مخاطر الشاشة

رينيه بلند

ميكائيل بول



نقله إلى العربية

د. حسن حتاحت





مخاطر الشاشة

رينيه بلند ميكائيل بول

نقله إلى العربية

د. حسن حتاحت



Original Title

Les dangers de l'ecran

Enfants, famille, societe et violence

Rene Blind & Michael Pool

Copyright © Editions Jouvence 2002

ISBN 2-88353-295-8

Published by: Editions Jouvence, S.A. Chemin du Guillon 20, Case 143, CH-1233 Bernex (Switzerland)

حقوق الطبعة العربية محفوظة للعبيكان بالتعاقد مع إديشن جفينز - سويسرا.

© العبيكان 2008 _ 1429

ISBN 2 - 476 - 54 - 9960 - 978

الطبعة العربية الأولى 1429هـ - 2008م

الناشر العبيكان للنشر

المملكة العربية السعودية - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة - عمارة الموسى للمكاتب

هاتف: 2937581/2937574، فاكس: 2937588 ص.ب: 67622 الرياض 11517

ⓒ مكتبة العبيكان، 1429هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

بلند؛ رينيه

مخاطر الشاشة./ رينيه بلند؛ ميكائيل بول؛

محمد حمين حناحت.- الرياض 1429هـ

228ص: 14 × 21سم

ردمك: 978 - 9960 - 54 - 476 - 2

1 - التلفزيون والأطفال أ. بول، ميشيل (مؤلف مشارك) ب. حناحت، محمد حمين (مترجم) ج. العنوان

ديوي: 301.161

ردمك: 978 - 9960 - 54 - 476 - 2

رقم الإيداع: 2000 / 1429

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: 4160018 /4654424 - فاكس: 4650129 ص.ب: 62807 الرياض 11595



المقدمة

يعرف مؤلفا هذا الكتاب التلفاز كما يعرفه سائر الناس، ولكنهم يعرفون كذلك مُعاصريهم خاصة، إن مهنتهما كمدرسين وصحفيين أتاحت لهما فرصة الاطلاع عن قرب على واقع الشبيبة فيما دعاه المحللون بحق مجتمع العروض السينمائية أو المسرحية.

لا يمثل التلفاز سوى النقاط المشتركة بين عالمين: عالم الناس والعائلات والتربية والحقيقة الاقتصادية والاجتماعية من جهة، وعالم العروض والإخراج والترفيه والإعلام من جهة أخرى.

إن الكتاب الذي تحملونه بين أيديكم هو ثمرة تأمل عميق بدأ في التسعينات من القرن الماضي، ولكنه في الحقيقة يجد جذوره في خمسة وعشرين عاماً من خبرة مهنية مزدوجة للمؤلفين اكتسباها بالاحتكاك مع مئات الأطفال والمراهقين ووالديهم، المعلومات والأمثلة المذكورة في الصفحات التالية هي عبارة عن نقل لحالات موصوفة بدقة، وقد قررنا نقلها كما هي دون تعديل، ولذلك فإنها ستكون مرجعاً للتركيبة الاجتماعية السياسية في زمنها، وللبرامج التلفازية التي عرضت آنذاك على الشاشات الفرنسية والسويسرية الناطقة بالفرنسية، إن تحديث هذه المادة الفكرية الاجتماعية كان من الممكن له أن يزيف الرؤية، والأهم من ذلك أن بُطلان الأعراف الاجتماعية، وتبدلها السريع خلال عدة أشهر أحياناً، جعل كل محاولة لهذا التحديث ضرباً من العبث، إن تجاربنا قد مرت عليها

عدة سنوات، وتواجه أفكارنـا تحدي الزمن، ولكن التركيبة التلفازية التي أصبحت عابرة ومؤقتة باتت تهرم بلمح البصر.

إن المواجهة بين هذا العالم من اليرقات الفتية الفانية والحقيقة القاسية للأحـداث هي برأينا التعبـير الصادق عن كوننا بشـراً واعين إضافة إلى كوننا آباء ومعلمين.

إن الصور تمحي وتقليعات الموضة تزول، ولكننا كبشر باقون وسيأتي بشر بعدنا أولهم أبناؤنا، وعلّ هذا الكتاب يسهم بتواضع بإبقاء عيوننا مفتوحة.



•ليس بإمكاننا قول الحقيقة على التلفاز لأن العديد من الناس يشاهدوننا• كولوش.

أخطار الشاشة

إن هذا الكتاب هو بين أيديكم ، فبداية أنتم تقرؤون وهذا لم يعد بدهياً، وثانيـاً: فأنتم تعترفون بأن التلفاز أصبح جزءاً من الحياة عامةً ومن حياة أطفالكم خاصةً، وثالثاً فأنتم ترفضون ديكتاتورية الشاشة الصغيرة. لقد كتبنـا حول هـذا الموضوع، وهذا يعنـي أننا نعتقد بضـرورة تحييد ظاهرة التلفاز، وأهمية التفكير الذي يحدث بهدوء، والذي يعطى الوقت الضروري لتعميـق هذا التساؤل، إننا لا ننكر حقيقة وجود وسائل الإعلام، والتغيرات الجذرية التي أحدثتها، والثورة في السلوك والعلاقات الاجتماعية والانفتاح على عالم أوسع وأغنى من ذلك الذي عرفته الأجيال التي سبقتنا، ولكننا نجـد في تحفظنا على هذه الأمـور نفس الدوافع التـي دفعتنا لإنجاز هذا الكتاب، وحثكم على قراءته، إننا نرفض أن تفلت الوسيلة من أيدي الذين ابتكروهـا، ونرفض كذلك أن ننسى أن الطفولة حساسة جداً وغالية جداً، لنضعها بـين أيدي تجار الصور ومخترعي الأحـلام الذين يملكون أحياناً دوافـع شريفة، ولكنها تخضع دائماً لضوابط لا علاقة لها البتة بالحب، أو علاقتها به ضعيفة.

نحـن نعتقد بـأن غنى الحيـاة اللامتناهـي لا يمكن أن يُجتـزأ في بضع سنتيمـترات مربعة تمثلها الشاشة الصغيرة، وبأن الطفل يتغذى بالعلاقات الاجتماعيـة والحب، وهذه أمـور لا يمكن حصرها في علبة مستطيلة، ونحن مقتنعون بأن التلفاز إن لم يكن سيئاً بحد ذاته، ولكنه يخفي أخطاراً حقيقية عندما يصبح البديل عن الأبوين والفعاليات، أو بكلمة واحدة عن الحياة.

إن أخطار الشاشة هو كتاب من أجل الطفل أكثر من كونه ضد التلفاز. قد نكون تركنا الحبل على الغارب لحس الدُعابة عندنا أحياناً، ولكننا بنفس الوقت اطلعنا على عشرات الآلاف من الصفحات التي كتبها غيرنا من الباحثين والمربين والكتاب والصحفيين، وواجهنا معارفنا وأفكارنا بممارستنا كمدرسين وآباء.

إن هذا الكتاب لا يدعي الموضوعية الكاملة، ولكنه يعكس التعددية في النظرة إلى ملف معقد يتعلق بالطفل والتلفاز.

كيف نستخدم هذا الكتاب؟

لم يكن هدفنا كتابة مرجع تثقيفي ممل حول التلفاز، وإنما دعوتكم للتفكير ملياً في الموضوع، ونحن ندعوكم للدخول في صلب الموضوع من خلال القاموس، و لا نعني بذلك معجماً علمياً للمصطلحات، ولكن خياراً موضوعياً للألفاظ والمفاهيم والمعارف التي تحمل شحنة عاطفية أو مثيرة للجدل.

دعابة ماكرة وتحدٍ أو سخرية هي المفردات التي سنجد مثيلاتها في هذا القاموس الذي يعتبر مدخلاً لأبواب الكتاب السبعة، وليس لترتيب هذه الأبواب أهمية خاصة، فالأهم هو الاهتمام الذي ستبدونه في اختيار هذا الباب أو ذاك.

في هذه الأبواب، ودون أن نضع ألسنتنا في جيوبنا، حاولنا جاهدين تلخيص الاكتشافات الرئيسة، وجمع الآراء الأكثر أهمية فيما يتعلق بالموضوع، إن العبارات المنقولة عن الكتب المذكورة لا تعني أننا ندعم

قائليهــا في كل ما ذهبــوا إليه، والأمر بكل بساطة هو توضيح تيارات الرأي الرئيســة ذات الصلــة بموضوع الكتــاب، ومقتطفــات الصحف والمجلات التــي نعرضها يجب أن تقــرأ بنفس المنهجية، ستجـدون فيها غالباً صدى قناعاتنــا الخاصــة، وأحياناً عاملاً حافـزاً للخلاف والمناظـرة، والهدف دائماً هو إغناء النقاش والحوار.

الخوف الكبير من عام 2000م

إن التوجه العام هو باتجاه التشاؤم والكارثة.

دعاة الفضيلة الذين كانــت آراؤهم مسموعة سابقاً يدّعون تحلل الأخــلاق وتفكك العائلــة ووقاحة الشباب في تعاملهــم مع المتقدمين عليهم بالســن، نعرف هذه الموعظة منذ آلاف السنين، ولم يقل دعاة الفضيلة غيرها، ومع ذلــك فالأخلاق ما زالت باقية، وما زال الكبار يقــودون الشباب، ومــا زال الشباب الذين يتبادلــون الحب ويريدون تكوين عائلة يرتبطون برباط الزواج المقدس.

كل نشاطاتنــا خضعــت للتحليــل النفســي: حياتنــا الاجتماعية، وفعاليــات الحيــاة اليومية، وحتى قيادتنا للسيــارات، كل شيء يدعو للقلق، ورغم أن أمامنا طريق باتجاهين فإننا جميعاً مذعنون للاتجاه باتجاه واحد نحو الكآبة العامة، بجهود هؤلاء الدجالين الذين يبيعون الــكلام المعسول (دجال أصلها من الإيطــالي القديم وتعني المتكلم) إننا نقترب من العام 2000م في محيط من الخرافات والذعر مشابه للذي عاشه أسلافنا قبل عشرة قرون دون أن يكون أكثر منطقية.

إننا نعيش مثلهم نظرية الخوف من نهاية العالم في نهاية الألفية الثانية.

صحيح أن كل تقدم تقني له مساوئه، وأن كل نوع من أنواع التلوث التي نتكلم عنها ليس خدعة، إنها أخطار حقيقية يجب ألا نقلل من أهميتها، ويمكن تجنبها في كثير من الأحيان. يمكن لسماء مدننا أن تعود صافية، وتجربة لندن تؤكد هذا، وأنهارنا التي أصبح ماؤها آسناً يمكن لها أن تعود صافية، وما حصل في السويد يثبت ذلك، كما أنه يمكن لطرقنا وأريافنا أن تصبح نظيفة.

إن تطور تقنياتنا حتمي، وهو مرتبط بعدم قبول الإنسان بواقعه ورغباته واضطرام حماسه، ولا أحد يستطيع إيقاف هذا الزحف، ولكن على الإنسان أن يحرص على أن تفوق محاسن التطور تبعاته السيئة.

وإن دور دعاة الفضيلة والمفكرين والأطباء، والذين يملكون السلطة وحق الكلام أن يعينوا الإنسان على الحياة عندما تكون ظروف معيشته غير معقولة، وإلا فإنه تراب وسيعود إلى التراب بعد سنوات من الشقاء على هذه الأرض، إن مهمتهم الاجتماعية هي مساعدة الإنسان على أن يحيى، وليس بث القلق واليأس بحال من الأحوال.

يجب علينا أن نتابع العمل على تحسين الحياة، وأن نكون يقظين ومنتبهين لآثار تقنياتنا الحديثة وألا نشارك في حملة الرعب الجماعي في عام 2000م.

ج.س سورينا. جريدة لوموند 12 أيار 1972م.

إن كل كلمة في القاموس تحيلنا إلى أحد أبواب الكتاب السبعة. وستجدون أنفسكم غالباً عائدين للباب الثالث والرابع والخامس، لأننا في

هذه الأبواب نتحدث عن المواضيع الخلافية، وهي تأثير التلفاز على الطفل وعلاقته بالمجتمع.

يتحدث الباب الأول عن التطورات الأكثر توقعاً للتلفاز ولا يلقي بالاً للنقد اللاذع، وهو المُعرض للتلاشي في المقام الأول بسبب التطور السريع للتقنيات في هذا المجال.

وفي الباب الأخير سنجازف باقتراح بعض الحلول، وإسداء بعض النصائح، وصياغة توصيات، ولكن لا تنسوا أن هدفنا ليس أن نلقي عليكم موعظة (إغراء كبير للمعلمين)، ولكن أن نساعدكم في إيجاد حلولكم الخاصة، وأن تحافظوا أو تستعيدوا السيطرة على الوضع بحسب معاييركم الشخصية، وأن تتابعوا التفكير بجدية بأمر مهم أملنا أن نغني الحوار فيه قدر المستطاع.

إذاً يمكن أن يستفاد من هذا الكتاب بتنقل سريع وحكيم بين القاموس والأبواب، وبين ما كتبناه ومقتطفات الصحف، وبين القناعات الموضوعية وتبني المواقف الشخصية.

إذا استطعتم بعد إغلاق هذا الكتاب أن تغيروا مكان تلفازكم ولو مجازياً، فإن جهدنا لم يضع سدى، إذا تحولت أنظاركم من الشاشة إلى الطفل، وإذا اكتشف طفلكم أنكم أسياد الموقف كما هو بطله المفضل في علبة الصور (التلفاز)، فإن هدفنا من وراء كتابة هذا الكتاب قد تحقق إلى حدٍ كبير.

التوقيع: ر. ب و م.ب

قاموس الاستخدام السيئ للتلفاز

غائب: من هو غير موجود بجسده أو بروحه، كلمة تصف عدداً من الآباء أو المربين الذين يعتقدون أن التلفاز يمكن له أن يستبدلهم بجدارة (البابان 4 و 5).

إدمان: درجة من استخدام الشاشة الصغيرة يفقد بعدها الشخص حرية الاختيار، وجه آخر.

للمشكلة: هو الاهتمام المبالغ فيه المعطى لأشياء لا تستحقه، ومثال ذلك عدد الثواني التي وضع فيها مغنٍ أسود مخنث يده في سراويل أطفال صغار (البابان 4 و5).

مُشعَل: حالة شخص شغَّل تلفازه ولم يستطيع إطفاءه (الباب 5).

أشعل: فعل له نتائج لا يمكن حسابها يقوم به طفل لا أحد يراقبه. انظر أطفأ.

حُب: (أ) عاطفة أو فعل يعبر عن إرادة فعل الخير لأخيه الإنسان؛ (ب) رياضة غريبة يمارسها الرجل والمرأة أمام الأطفال الصغار الذين يشاهدون التلفاز وحدهم، هذه الرياضة تعبر عن طريق أصوات مختلفة عن حالة انزعاج يمكن أن تصل حتى الألم، وبالنسبة لبعض الأطفال هي المرادف للاغتصاب (البابان 4 و 5).

أمّي: الذي لا يقرأ ولا يكتب، وذلك إما لأنه لم يكتسب هذه المهارات لعدم ذهابه إلى المدرسة، أو أنه اكتسب هذه الإعاقة أمام الشاشة الصغيرة في معظم الأحيان. (الأبواب 2 و4 و 6).

المال: هو عصب الحرب، لأن التلفاز غدا ساحة معركة حيث تتواجه مجموعات ذات نفوذ تزداد قوتها باضطراد لتسيطر على السوق. لا يعتمد عليه في حب الأطفال و لا تربيتهم (البابان 1 و5).

سلاح: أداة أو عدة تستخدم لجرح أو قتل أو اغتيال أو صرع أي إنسان. يلجأ إليها كحل أخير في الواقع، وكحل أول في برامج الأطفال. حل لكل المشكلات. (البابان 4 و 5).

آلهة المشاهدين: آلهة شريرة يسجد أمامها أتباع الطريقة TV über alles. تطلب قرابين غير بشرية ومنها التضحية بالحرية الشخصية. (الباب 5).

متسلط: الذي يحب السيطرة، وهو عيب كبير ولكنه أفضل من الغياب، انظر غائب وإباحي (الباب 5).

طريق باتجاهين للإعلام: نظام يستعمل كبلات الألياف البصرية خاصة لنقل أكبر كم من المعلومات، وكما هو الحال بالنسبة للطريق ذي الاتجاهين العاديين فإن الحركة عليه سريعة، ولكن إلى أين؟ (الباب 1).

يملك: امتلاك شيء ما أو التمتع به مثال: أن يكون لديك 52 محطة تلفازية، أو 852 شريط. ارجع إلى كلمة يكون (البابان 4 و5).

أنظرُ: يكون (الابواب 4 و5)

(مهنة لا قيمة لها) (باليقرن): مواد غير معروف تركيبها، هلامية ليس لها قوم، ورائحتها خفيفة أو كريهة، وطعمها غير مريح، تشاهد على حالتها الطبيعية في برامج الأطفال، ويؤدي تناولها المنتظم إلى حالة هذيان شديدة، ولا يوجد أي حظر على عرضها. (باب 4).

بوف (BOF): تعبير يعنـي الشك والاستهزاء (سخرية سيئة). تعجب لا مبـال، يظهـر على شفـاه المدمنين، يُعبر عن انزعـاج شديد من أي ظاهـرة مـن الإبداع تظهـر على تلفـاز لا تتدخل فيـه الكنيسة الكاثوليكية: «هل أتيت لترى النجوم؟ على أي محطة؟ ـ في السماء! ـ بوف. (البابان 4 و5).

شـاحب اللون: سحنة تميز مشاهـدي التلفاز الشباب، ميزة لا علاقة بالتعرض للشمس. (باب 3).

تكملة عدد: لا واحدة من ثلاث طرق لمشاهدة التلفاز، يُلجأ إليها عندما لا يكون لدينا شيء أفضل تفعله، انظر هوى وبساط. (البابان 4 و6).

موصـول: موقـف متسامح مـن طرف الأهل مـؤداه أن يبقـى التلفاز مستخدماً. (الأبواب 3 و5 و6).

كبل: حزمة من الأسلاك الكهربائية أو الألياف البصرية أو أي وسيلة أخرى تسمح بنقل المعلومات، تزيد إلى حد كبير كمية البث الملتقطة، ولكن ليست لها أي سلطة للأسف على نوعية هذا البث. (باب 1).

أشعة مهبطية: ديانة تسمى آلهتها الرئيسة آلهة المشاهدين، تُمارَس طقوسها أمام مذبح للقرابين متوازي المستطيلات. (البابان5 و6).

سلسلة: (المقصود بها بالفرنسية محطة تلفاز): أ) مجموعة من الحلقات المعدنية المتتابعة والمتصلة ببعضها تفيد في تقييد العبيد. ب) مجموعة من المؤسسات، ورؤوس الأموال و المختصين هدفها حرمان الناس وخاصة أبناءَهم من الحرية. (البابان1 و4)

يختار: امتلاك البصيرة لاختيار الفاعلية الأهم في الحياة. يحصل هذا الأمر بإعمال العقل في الحياة الطبيعية، وباستخدام جهاز التحكم بالتلفاز أمام الشاشة الصغيرة، انظر حرية وتقليب. (باب 5).

غاية: أ) الهدف الذي نحدده ونصوب إليه رمينا للتدرب ودون أذى أحد، ب) في المصطلح التلفازي هو الجمهور الذي نستهدفه دون أن نلقي بالاً لصحته النفسية أو الجسدية. مثال: الأطفال. (الأبواب 5.4.3).

مسلٍ: جهاز يسمح باللعب بألعاب الفيديو، وذلك بربطه بالتلفاز، وسيلة تسلية سخيفة للأطفال الذين لا يجدون من يهتم بهم. (البابان 4 و5).

مؤخرة: تعبير أوسع استخداماً من الجزء من الجسم الذي يشير إليه. يعني تعاسة البرامج المختلفة سواء كانت للأطفال أو غيرهم. إن تكرار الكلمة (مفغل) لا يعني بالضرورة درجة من الغباء، فمثلاً يمكننا أن نترك الأطفال يشاهدون مجازاً برنامجاً «غبياً»، ولكن يجب أن نكون حذرين جداً من المنتجات المدعوة مؤخرة ونصف. (الأبواب 5.4.2).

ثقافة: مرادف لساعة متأخرة من الليل، مثال: «على المحطة التلفازية المشفرة غبار الدماغ، يوجد حوار حول الشعور بالذنب في أعمال المركيز دوساد الأدبية، يوم الأحد ما بين الساعة الثانية عشرة إلا عشر دقائق والساعة الواحدة إلا عشر دقائق صباحاً» (باب 5).

غبي: صفة تصف عدداً من البرامج، وهي مرادف لكلمة رائع في قاموس الأطفال اللغوي (البابان 4.3).

يُطفئ: عمل يعني قطع التيار الكهربائي عن التلفاز، ولكنه نادراً ما يُلجأ إليه خوفاً من انقطاع الصلة بالتلفاز (الباب 7).

الاستقالة: وضع الطفل أمام برنامجه التلفازي حتى نرتاح من تربيته (البابان 5 و2).

مُخدر: مادة تسبب تغيراً في الوعي، وتؤدي إلى الإدمان. مثال: كحول، دخان، أدوية، تلفاز، هيروين. (البابان 4 و5).

مدرسة: مكان غريب حيث لا يحتل التلفاز كل الحيز المتاح، وحيث لا يفيد التقليب، لأن المدرس يتابع درسه بعد الثلاثين ثانية من التركيز المعتادة (البابان 2 و5).

شاشة: جهاز وظيفته إخفاء الحقيقة، واقٍ من الشمس كامل الفاعلية، فالواقي المهبطي (الشاشة) يقي تماماً من ضربات الشمس. (écran cathodique) (البابان 3 و5).

يربي: من اللاتيني ومعناه القيادة في الخارج، فعل أصبح محرجاً لأن التلفاز يشاهد داخل البيت دائماً (الأبواب 3 و5 و7).

التأثير المشوه: وجهة نظر تصف الأثر الذي يُقلل من أهمية الأشياء ويلعبه التلفاز (كما يرى الإنسان مشروعاً كبيراً من خلال تصميمه المُجسم المُصغر). فالتلفاز لا يعكس الوقع ولكنه يشوهه تماماً (البابان 4 و5).

برنامج: لحظة من وجود الطفل تمر غالباً عندما يتخلى الوالدان عن مهماتهما. (البابان 5 و7).

طفل: مخلوق مهدد بأن يصبح أبله إذا أهمله الكبار أمام الشاشة الصغيرة (الأبواب 4 و5 و6).

عقلية المغامرة الحرة: مصطلح سياسي اقتصادي يُعطى الكثير من الأهمية عندما يتعلق الأمر بالسيطرة الاقتصادية على التلفاز بأي ثمن، ينبني عليها ضياع الفكر والحرية والإبداع. (الأبواب 6.5.1).

جمالي: مصطلح مهمل ويصعب تسويقه وغائب عن معظم برامج التلفاز، انظر أخلاقي (الباب 6).

يطفئ: يطفئ التلفاز قبل أن ينطفئ أي بريق في عين المشاهد الصغير إذا كان ذلك ممكناً، انظر شغّل (الأبواب 3 و4 و6).

أخلاقي: مصطلح مهمل ولا يمكن تسويقه وغائب عن معظم برامج التلفاز، انظر جمالي (البابان 5 و7) يكون: يوجد لا يمكن للتلفاز أن يفيد في ذلك بأي حال من الأحوال، بعكس يملك (البابان 1 و5).

طُق: لفظة نستخدمها عندما ندوس على المبادئ (الباب 4).

خيال: كلمة مرادفة للواقع عند المشاهدين الصغار. (البابان 4 و5).

يفعل: فعل عفا عليه الزمان واستبدل بفعل يشاهد، مثال: نحن لم نعد نقول يلعب لعبة وإنما يشاهد لعبة (البابان 4 و 5).

هـرب: أ) بالنسبة للأطفال هو الفعل الذي يتمثل بعدم مواجهة الواقع واستبداله بالمشاهد التلفازية. ب) بالنسبة للآباء هو عدم الالتزام بالمسؤوليـات التربوية بإرسال الطفل لمشاهـدة برنامجه التلفازي. (البابان 4 و 5).

بطـل: شخص ليس له أم أو أب، ولا يذهـب للمدرسة، ولا يتبول أبداً، والمطلوب من الأطفال أن يقتدوا به (البابان 4 و 5).

أمـي: الـذي فقد القدرة على القراءة والكتابـة، ومن ثمّ صياغة فكرة منطقيـة، وذلك بسبـب المشاهدة، والمشاهدة ثـم المشاهدة للتلفاز (الأبواب 2 و 4 و 5).

وهـم: خطـأ في الفهم سببه مظهـر خادع، أخذ الخيـال على أنه واقع (البابان 4 و 6).

صـورة: تمثيـل لشيء أو شخص بالفن، تقليـد غالباً ما يحصل خلطه مع الأصل (باب 4).

معلومـة: إخبار، خبر تحمله لأذهـان المشاهدين، لا يميزها الأطفال عـن الوهم، وهكذا يصلون لاستنتاجات مثل: ذو العضلات المفتولة أقوى من ميتيران (رئيس فرنسا السابق) (الباب 5).

لحظـة: برهة من الزمن يجب ألا تتجـاوز مدتها القدرة على التركيز عنـد أكثر المشاهديـن بلاهة، والتـي يترتب عليه بعدهـا أن يقلب المحطة التي يشاهدها (الباب 4 و 5).

معلم: شخصيـة أسطورية يدعون أنها كانت تملك في الزمن السحيق المعرفة والقـدرة والحكمة، يحاول أن يصـرع التنين المهبطي بدون سيف. (اليابان 4.2).

الـذكاء: إعاقة عقلية يصعب تجاوزها تمنع المشاهد من التمتع الكامل بالتلفاز، وتقترح عليه أشياء أكثر نفعاً يمكن فعلها. (الأبواب 5.4.2).

يمنع: حل سيئ ولكنه أفضل من الاستسلام. (اليابان 7.5).

تفاعلـي: ما ستؤول إليه حال وسائل الإعلام في مستقبل قريب، بحيث يستطيـع المستخدم التدخل فيها، وبحسـب رأينا فالجزء الأول من الكلمـة ومعناه بين هو في طريقه للحدوث، أما الجزء الثاني ومعناه فاعـل فإنه لن يتحقق قريباً لأنه لا يتماشـى مع مبدأ التلفاز، انظر فعَّال (الأبواب 5.4.1).

لعبـة: سابقـاً كانت نشاطـاً أو أداة تسمح بإنشـاء علاقة مع الآخرين والواقـع بحيـث تخلق جـواً من التفاعـل وتحقق المتعة، حاليـاً أداة معقـدة تمنع من التواصل مع الآخرين والعـالم وتمارس غالباً على طاولة، وهكذا تصبح اللعبة مكروهة (الأبواب 5.4.2).

لعبة متلفزة: آخر نشاط متاح للإنسان في نهاية حياته بعد أن فقد كل قدراته العقليـة، وبفضل التلفاز فالأطفال ليسـوا بحاجة للانتظار حتى يصلوا عمـر الثمانين ليبلغوا هذه المرحلة، فثمانون دقيقة هي غالباً كافية لذلك (اليابان 4 و 5).

القـراءة: عقوبة همجية تفرض على مدمن التلفاز، تمنعه من الشاشة الصغيرة بوضعه أمام كتاب (الأبواب 2 و 4 و 5).

بقل: أ) غذاء نباتي غني بالفيتامينات والألياف والعناصر النادرة..... إلخ. ب) حالة مدمن التلفاز صغير السن الذي يشاهد العديد من البرامج الخالية من المادة المفيدة (الأبواب 3 و 4 و 6).

حرية: 1) (قديم، مهجور) حالة غير طبيعية لشخص لا يخضع لشخص آخر أو أي شيء. 2) القدرة على الانتقال من فيلم السفاك 1 إلى السفاك 2 على محطة ثانية بمجرد ضغطة على جهاز التحكم. 3) حق المحطات التجارية بعرض برنامج أكثر تعاسة من برامج المحطات المنافسة لزيادة نسبة المشاهدة، انظر آلهة المشاهدين (باب 6).

كتاب: شيء مهمل مصنوع من الورق والورق المقوى والجلد والقماش.... إلخ، يستخدم ككرسي مطبخ لتناول جهاز تحكم مشاهدة الشاشة الصغيرة دون بذل جهد التواصل مع الطفل (البابان 5 و 6).

جهاز الفيديو: جهاز يسمح بالتحرر من تسلط البرامج ليصبح الإنسان أكثر عبودية للشاشة (البابان 4 و 5).

وسائل إعلام: من اللاتيني: وسيط، وسيلة، ذات مستوى متدنٍ. (باب 1).

الموجات ألفا: موجات يرسلها الدماغ وتميز حالة نصف نوم يصبح الإنسان خلالها قابلا للتأثر بشدة بالآخرين، وتشاهد في أحسن الأحوال خلال جلسات الاسترخاء، وفي أسوأها أمام التلفاز (البابان 3 و 4).

نهاية الكلمة: or ــ في الكلمات الإنكليزية وتفيد الفعل، نهاية كلمة تستخدم لأسماء أبطال الأفلام والمسلسلات التي تستهوي الأطفال، وأشخاص يتميزون بإمكانيات عقلية محدودة، وحس خلقي منخفض، وبنية عضلية قوية، وترسانة من الأسلحة يمكنها أن تدخل الرعب على قوة عظمى في أحلك أوقات الحرب الباردة، مثال: مفتول العضلات، السفاح، السفاك، الجلاد (الأبواب 4 و 6).

السلم: حالة تخلو من النزاع يحلم بها الآباء المنهكون بعد يوم من العمل المضني، يمكن الحصول عليها آنياً: أ) بوضع طفله أمام التلفاز. ب) بشراء المنتجات المعروضة خلال الدعاية على التلفاز. (باب 5).

المستقبل الهوائي: 1) قصة رمزية ذات مغزى وتدل على فكرة. 2) شكل منحنٍ للمستقبلات الهوائية يسمح بالتقاط البرامج عن طريق الأقمار الاصطناعية، هذه البرامج لا تحمل أي معلومة أو هدف (باب1).

عشق: إحدى ثلاث حالات لمراقبة التلفاز تتميز بالاختيار ووجود مصلحة حقيقية للطفل فيما يشاهد، انظر تكملة عدد وبساط، (البابان 4 و 5).

سياسي: عدو علني للتلفاز ولكنه مضطر لمداراته بسبب الانتخابات المقبلة (الباب 5).

السلطة: 1) إمكانية التأثير على شخص أو شيء، يمارسها عادة التلفاز ويرفضها أحياناً الآباء أو المربون. 2) مرادف لجهاز التحكم عن بعد (البابان 4 و 6).

مقدم برامج: شخصية من أسطورة التلفاز مهمتها أن تُنسي ما تقدمه (البابان 4 و 6).

برنامج: أ) نص مقدس يسمح بقراءة مستقبل السهرة من خلال مكعب من الكريستال يدعى التلفاز. ب) مجموع معلومات مشفرة تسمح بتحويل طفل إلى رجل آلي (البابان 4 و5)

جمهور: أ) موصوف: وحدة اجتماعية مفقودة رخوة تتميز بانعدام الخواص وتطالب ببرامج سيئة! ب) صفة: 1) شيء لا يباع (محطة حكومية)! 2) شيء يباع (مومس). (الباب 5)

دعاية: مرادف للحقيقة بالنسبة للأطفال الصغار، إذا أخبرناهم أن رقاقات الفطور كنوسبيز هي الأكثر تحميصاً، فهذا يعني أن الأمر حقيقي ويجب شراؤها، وهذا ما يفعله الآباء ليشتروا راحة بالهم (البابان 4 و5).

قواعد: مجموعة من الإجراءات المتخذة للسيطرة على الفعاليات الإنسانية وتوحيدها، وبحسب رأي بعض الممثلين المتهورين فإنها تنطبق على التلفاز (البابان 5 و7).

قمر صناعي: آلة فضائية بين النجوم تقوم بالهيمنة على العقول بتحويل الأنظار عن السماء (البابان 1 و4).

مسلسل: تتابع حلقات مملة من حياة شخصيات تافهة ليست لها علاقة بواقع الذين يشاهدونها، يجب متابعته بأية حال. (باب 5).

نوم: حالة يعيشها الشخص الذي ينام، ويمكن له أن يُحرم منها بإساءة استعمال التلفاز (باب 3).

تلفــاز: في علــم المصطلــح الرؤية عن بعــد، في الواقع رؤيــة سطحية.
مرادفات: الشاشة الصغــيرة، T.V، مجنونة البيت، مظلة اليهود. (البابان 4 و6).

تلفــازي: معاكس تماماً لبعيد النظــر، الشخص الذي لا يتعدى بصره حدود الشاشة (بضعة أمتار). (البابان 4 و5).

سجـادة: إحــدى طــرق ثلاث يشاهــد بها الأطفــال التلفــاز. هي التي تحصــل دون أن يُعيرهــا اهتماماً، ولا تمنع مــن ممارسة أمر آخر. انظر تكملة عدد وعشق (البابان 4 و5).

تيرانوسور: حيوان شائع جداً عنيف، يعرض على التلفاز بكثرة، انظر بقرة (البابان 4 و 6).

بقـرة: حيوان غريــب ومسالم يعطــي الحليب، ونادراً مــا يعرض على شاشة التلفاز (البابان 4 و 6).

منوعات: برامج يميزها عدم التنوع، لأننا نرى فيها دائماً نفس الوجوه المعروفة لدينا. (البابان5 و 6).

مستغـرق: وضعية الطفل أمام برنامجــه المفضل عندما يكون الأبوان جالسين بعيداً عنه (البابان 4 و 5).

يبيــع: فعل متعد استبدل الفعــل يعطي في القرن العشرين، مثال: يبيع الحب والمعرفة والحلم واللذة، والتي يمكن كذلك أجرتها عن طريق أشرطة الفيديو. (البابان 1 و 5).

ريح: أ) حركة الهـواء التي تجعل أوراق الشجر تغني، ولا نشعر بها في غرفـة يشتغل فيها التلفاز. ب) مجازاً تعنـي لاشيء. مثال: التلفاز الذي ليس إلا ريحاً (البابان 3 و4).

ڤيديـو: آلـة تعفـي مستخدميهـا من مواجهـة الحقيقة، مثـلاً للحب بالفيديـو يكفي جهاز الفيديـو وشاشة تلفاز، بينمـا في الواقع ليس الأمر هكذا، فلا بد من قلب وأعضاء تناسلية (البابان 4 و5).

اغتصـاب: بالنسبـة للأطفال المتروكـين دون حماية أمـام التلفاز هو مرادف للحب. (باب 4).

عنـف: في التلفاز هو الحالـة الطبيعية للعلاقـات الإنسانية، وهو يحل كل المشـكلات لصالـح الأقوى جسديـاً (غالبـاً) ولصالح الأخبث (أحياناً)، والأكثر تسليحاً (دائماً). (باب 4).

ياكا: ترسانة دوائية تباع دون وصفات طبية في كل العيادات السياسية والإداريـة، ليست لهـا آثار جانبيـة بالتأكيد لأنه لا أثـر لها أصلاً. (باب 7).

قَلَّبَ: فعـل لازم (غـير متعد) استبـدل فعل اختـار، ميزته، عدم الحاجـة للجـوء للتفكير المتعـب المعتمد علـى عوامـل التحليل المرتبة، اختيار تعب الدماغ بينما لا يكلف التقليب سوى تحريك السبابة. (الأبواب 1 و4 و5).

تقليـب: فعـل التقليـب، أي عطالة تامـة، وذلك عندما يكـون معادل الذكاء واقع بين كرسيين. (الأبواب 1 و4 و5).

«تتأوه الإنسانية شبه المسحوقة تحت ثقل التطورات التي أحدثتها.
إنها لا تعرف تماماً أن مستقبلها متعلق بها».
هنري بيرغسون (1859-1941م)، المصدرين للفضيلة والدين.
«لا أحد يعرف مستقبل الفجر القادم» مثل زنجي.

الفصل الأول

الرائي غداً

لماذا نبدأ بالمستقبل؟

جرت العادة على أن يبدأ العمل الجدي بتاريخ مختصر للموضوع المعالج، ويظهر أن له جذوراً في تربة الماضي الخصبة، وهكذا يكون لدينا انطباع — أو وهم - بوجود استمرارية بين الأدوات الحجرية لأجدادنا القدماء والتقنية المتطورة التي يسيطر عليها أطفالنا بشكل أفضل منا.

ولكن التلفاز لا ينسجم مع هذا التمرين، ما تاريخه؟

إذا لم نضعه ضمن تاريخ الاتصال، ولم نعد به إلى النقوش الحجرية للعصور السحيقة، فإنه لا وجود له. التلفاز فتي جداً. بل فتي إلى أقصى الحدود، لا يمكننا تصور مراهق ملأ وجهه حب الشباب يكتب مذكراته. وليست علاقة الاختراعات التقنية التي صنعت التلفاز بالتاريخ هي أفضل حالاً، لأننا هنا كذلك لا نعرف أين نبدأ؟ بالكهرباء؟ أم بمذياع أجدادنا؟ أم محلل الصورة لزوركين، والذي يعتبر الآلة الأولى لتحويل الإشارات الإلكترونية إلى صورة؟

في الواقع إن تاريخ التلفاز هو أقل بكثير كماضٍ انقضى منه، كسلسلة من مراحل مستقبلية غير معقولة تم إنجازها، وكان ذلك تارةً للخير وللشر تارةً أخرى منذ وهلة قصيرة بحساب الزمن، ولكنه سيدوم طويلاً دون شك، سواء كان هذا يجعلك تطير فرحاً أو يجعلك تغوص في الوجوم المطلق.



إن الصدمة المستقبلية لم تحدث حتى الآن

المستقبل سيخبرنا، المشكل أن التوقعات للاختصاصيين المشهورين كذبتها الوقائع، ونحن لا نعتبر أنفسنا اختصاصيين ولا مشهورين، ولذلك فإننا قد نسيء قراءة المستقبل، أو على الأقل لا نتفوق على من قام بهذا، فكتاب ألفين توفلر، «صدمة المستقبل»، يدعو للضحك اليوم لأن توقعاته تبدو ساذجة بعد مرور جيل صغير على كتابته، ما فات عالم الاجتماع الأمريكي الكبير هو قدرة المجتمع على تحقيق ما يعد به العلم، إن القطار المعلق ذا المحرك المستقيم والهاتف المصور الذي ينقل الصورة، والكرسي الرافع الشخصي ...... إلخ، كلها يمكن إنجازها من الناحية التقنية منذ وقت طويل، ومع ذلك ما زلنا نفضل القطار والهاتف والسيارة في الزحام، مازلنا نستعمل المَهَدّة في ورشات البناء؛ لأن السلوك والعرف الاجتماعي يتطور ببطء أشد من تطور العلم، باختصار الأمر ليس سهلاً، وللتنبؤ بالمستقبل يجب أن نعرف التطورات التقنية المستقبلية، إضافة إلى التنبؤ بالعادات والموضة والعوامل العديدة المنطقية وغير المنطقية التي تغير وجه العالم.

ماضي المستقبل

إذا كنا نجهل المستقبل فإننا نعرف الماضي، ولكن هذا الماضي نفسه كان مستقبلاً في السابق لا يعرفه أحد ثم أصبح جلياً تراه كل الأعين اليوم.

دون العودة إلى ماتوسالم، لننتقل إلى العام 1935م بالخيال، ولنحاول التعرف على رينيه بارتيليمي مهندس شركة العدادات في مون روج، ضمن قفص من الأسمنت المسلح المبطن استقبل الوزير جورج مانديل ليطلعه على شيء يشبه جهاز المذياع له نافذة تعادل مساحة بطاقة بريدية على أحد جوانبه.

وخلف الزجاج المحدب ظهرت صورة مقدمة البرنامج مهتزة ومتقطعة ولكنها متحركة كالصور المشاهدة على شاشة السينما، لا توجد آلة عرض ولا بكرات ولا مصابيح، كانت المرأة قريبة جداً بلحمها وعظمها تحت العين الكهربائية للكاميرا، هذا السياسي والضحية الأولى للإعجاب بالتلفاز زود برج إيفل بجهاز إرسال تجريبي من غير أن يكترث لذلك أحد، لم يكن أحد في ذلك الوقت يمكنه تنبؤ مستقبل شيء لم نكن ندري بوجوده، ولكنه رغم ذلك سيغزو كل بيت في فرنسا خلال بضعة عقود من الزمن.

ولم يكـن بارتيليمي الأول في هذا الموضوع، ففي عام 1932م كان المدعو هـنري دوفرانس يحصل على صور باستخـدام أنبوب مهبطي، وقبل ذلك بمـدة تخيل الروسي نيبكو اختـراع قرص قادر على تحليـل الصور، وهذا دون شـك حدسـ عبقـري في عـام 1884م!!، وربما قبله الجهـود المبذولة الضائعـة للقس الفلورنسي جيوفاني كاسيللـي، وجهازه الراسم للذبذبات «بانتيليغـراف» الـذي يرسم عن بعد في عـام 1862م، والذي جسد مسبقاً الجهـاز الذي بنـى عليه إيطـالي آخر سيلفيـو بيرلسكـوني إمبراطوريته الاقتصاديـة والسياسيـة بعد قـرن من الزمـان! اختراع عظيـم يتوقع له مستقبل باهر؟ مجرد طرفة محكوم عليها بالكتمان هكذا، بدا تلفاز BBC عام 1939م ببرنامجه ذي الأربـع وعشرين ساعة أسبوعياً، وعشرين ألفاً مـن مشتركيه، والذين أصبح عددهم مليونين بعد أربعة عشر عاماً، وهذا يعني ازدياداً قدره مئة ضعف.

الأمـر الجديد الذي حـدث هو التعاون بين مخترع عبقـري وإمكانيات ماليـة لتحقيق هذا الاختراع، إن الشخص الذي اختير اختراعه كان فلاد يميـز زوركين، وكانت الشركـة RCA هي صاحبة الفكـر الواسع بتوظيفه كباحث، كانـت الشركة الأمريكية مقتنعة بمحلل الصـورة «إيكونوسكوب»

الذي اخترعه العالم الروسي في العام 1934م، وكان أول جهاز معتمد كلياً على الإلكترونيات، بعكس الأجهزة السابقة التي كانت تعتمد على مبادئ كهرطيسية وربما ميكانيكية.

وكذلك هنا كان المال هو الأساس لتحقيق الحلم المستقبلي، فلولا أن شركة RCA لم توظف مبلغاً هائلاً بالنسبة لذلك الوقت يقدر بتسعة ملايين دولار على جهاز اخترعه شخص غريب الأطوار، لولا حدوث ذلك لما حصلنا على متعة كتابة هذا الكتاب، و لنجوتم من الإكراه على قراءته!.

في عام 1950م لم يكن يراهن على التلفاز الملون سوى شخص حالم، ورغم ذلك فقد أصبح متوفراً بعد عام من ذلك في الولايات المتحدة، ففي الستينات كان جاك دوبر دنكار يغني «عندي المحطتان والألوان، كم أنا سعيد!» ليعلن رفضه للجري اللاهث وراء التطور العاجز عن إعطاء معنى حقيقي لحياتنا.

هل كان بإمكانه أن يخمن أن المحطات التلفازية سيصبح عددها بعد زمن ليس بالطويل يقدر بالعشرات بل بالمئات، هذا عدا الصورة ذات الأبعاد، وتطورات أخرى لا تخطر على بالنا.

ولنقم بقفزة عبر التاريخ ولنتوقف عند العام 1980م. كيف تنتقل الصور المتلفزة؟ عن طريق موجات مصدرها صادات طوبوغرافية وتغيرات كهرطيسية للوسط المحيط، إن سكان الوديان السحيقة والأماكن النائية يعرفون تماماً أنهم لا يستطيعون التقاط إرسال جيد ترسله محطات أعدت للمراكز السكنية الكبيرة، من كان ليراهن بقروش في ذلك الوقت على إمكانية وصول الإرسال من السماء، غير عابئ بتوضع الهوائيات والمحطات المرسلة والمستقبلة؟ ورغم ذلك فاعتباراً من عام

1987م أصبحت كل القارة الأوربية مغطاة بالأقمار الصناعية، وبذلك بات الحصول على صور دقيقة لكل القارة ممكناً وبدون استثناء.

عندما حرر غوغليلمو ماركوني وسائل الاتصالات من عبودية الأسلاك في عام 1895م لم يخطر بباله في حال من الأحوال أننا بمرور أقل من مئة عام سنعود لاستخدام الكابلات بتصميم، وذلك لنتخلص من متاهات الأثير التي لا يمكن السيطرة عليها، وخاصة لا يمكن فرض ضرائب عليها. ومع التقدم الذي حصل في مجالات معقدة جداً كالألياف البصرية، فإنه بإمكاننا أن نمرر آلاف المعلومات خلال كبل كان غير قادر سابقاً على تمرير رسالة مورس واحدة من نوعية سيئة، مع زيادة العرض فيما يتعلق بالبرامج تظهر المشكلة الحادة في اختيارها، هل كان يخطر ببالنا أو نحلم قبل عشرين عاماً بتسجيل برنامج يبث بنفس الوقت الذي ترى فيه برنامجاً آخر يبث مباشرة؟ واليوم كلٌّ يستطيع استخدام جهاز الفيديو، وأن يبرمجه كما يريد ليحصل على مكتبة من الأفلام المفضلة.

حيث توجد المحطة التلفازية، لا توجد متعة.

في عام 1994م لم يكن عدد البيوت التي زودت بنظام الكابلات يزيد عن 1.4 مليون منزلاً مقابل 13.5 مليون في ألمانيا، وبدفع ضريبة تلفاز شهرية قدرها 145 فرنكاً مقابل خدمة الكبل، استطاعت هذه الأسر المحظوظة في فرنسا توسيع حقل التقليب اليومي بإضافة عشرين محطة إضافية.

وهكذا فإن بإمكان المشاهد الفرنسي سواء عن طريق الأثير أو الأقمار الصناعية أو الكبلات استقبال 118 محطة تلفازية مختلفة

(هل هي حقيقة مختلفة؟). إننا نعد الآن في فرنسا اثني عشرة محطة مختصة بموضوع محدد مقابل 78 محطة في الولايات المتحدة.

بلند، بول

المستقبل قد بدأ فعلاً

يجب أن نتطرق الآن لاحتمالات تطوير الرائي الممكنة، إن أول الحقائق التي يجب تقبلها هو أن الرائي سيكون حاضراً في القرن الحادي والعشرين، لقد تلمظنا كثيراً باختراعات عديدة يُتوقع لها مستقبل باهر، من الشاشات الحائطية في البيوت إلى الهاتف المتلفز الذي يسمح برؤية رأس الشخص الذي تحادثه على الجانب الآخر، ولكننا نسينا أن نطرح السؤال الأساس، هل سيكون الرائي موجوداً؟ إنه سؤال يبدو سخيفاً، ولكن عدد التقنيات التي طرحت جانباً كبير، من الطباعة بالتنضيد إلى الآلة البخارية، من منا لم يتمنَ التخلص يوماً من اختراع مزعج ولا يمكن السيطرة عليه؟ بخصوص الرائي والفيديو والحاسوب يجب علينا أن نتقبل فكرة أنها ستحتل مكاناً أوسع في حياتنا خلال السنوات المقبلة رغم أن أشكال هذا الاحتلال لا يستطيع أحد الآن تخيلها.

التطور الأول: الكم

يصعب الخطأ في الإجابة على هذا السؤال، إن التعميم من التجربة السابقة، وجرد الثقافات الجديدة المتوفرة تسمح بتأكيد حقيقة أن العرض الكمي من البرامج سيزداد حتماً.

مـا زلنا نتذكر الثورة التـي أحدثها ظهور «المحطـة الثانية» في فرنسا، ثم بدا ظهور المحطة الثالثة طبيعياً تماماً، بينما لم يستدع ظهور المحطات التجاريـة سوى بعض التصريحـات السياسية غير التقنيـة للترحيب بها. إننـا نعتبر الآن طبيعياً تقليب المحطات الذي ينقلنا عبر المحيطات من بلد لآخـر، ومن الإيطالية إلى الإنكليزية مروراً بلغات أخرى التعرف عليها أكثر صعوبة مع جيل الأطبـاق الهوائية وخاصة الكابلات. فالمشكلة لن تكون في العثـور على برنامج يعجـب بمساعدة أو بدون مساعـدة مجلة مخصصة لذلك، وإنما أن لا نضيع في متاهة البث التي تشمل مئات المحطات.

إن تطور الأمور يسـير نحو البحث عن موضوع محدد: فنحن لن نختار بعد الآن المحطة، وإنما عنوان ما نريد كالرياضة أو الموسيقى الكلاسيكية، أو السينمـا الفرنسيـة قبـل الحـرب العالميـة أو المنوعات، إنهـم يتنبؤون باختراع أجهزة تتعلم على معرفتك، وتعرف أنك لا تشاهد مباريات القدم أبداً، ولكنك تشاهد الأوبرا، وتوجهك إلى المحطات التي يمكنها أن ترضي ذوقك، إن برنامج الأخ الأكبر «Big Brother» ليس بعيداً عنا.

الثمن الغالي

الاستثمـار: إن نفقـات تطويـر التطبيقـات متعـددة المصـادر التلفازيـة سيزداد من 650 مليونـاً إلى 5 مليارات مارك بين العامين 1991م و2000م في البلـدان الأوربية الأربعة الكبرى (ألمانيا، فرنسا، بريطانيـا، إيطاليـا). وفي سويسرا يقدر الإنفاق علـى هذا الموضوع بمليار فرنك سويسري.

الرائي والتعليم: في الولايات المتحدة إن الثقافة التعليمية المنشورة عن طريق الشبكات عديدة القنوات تصل كلفتها إلى 400 مليار دولار بنهاية العقد الأخير من القرن الماضي، وتقدر قيمة هذا السوق في ألمانيا بمئة مليار مارك.

الرائي الطبي: إن الصور الشعاعية المنمنمة و المتداولة عبر الشبكات بين المنشآت الطبية سوف توفر في الولايات المتحدة 140 مليار دولار في السنة (إلغاء الأفلام وتحميضها إلخ ...)، ولكن يجب استثمار عدة مئات من المليارات للتزود بالتجهيزات الجديدة اللازمة لذلك.

معارك العمالقة: إن زواج تقنيات الهاتف والرائي و المعلوماتية يتطلب مناورات إستراتيجية كبيرة من قبل أكبر الشركات العالمية في هذا المجال، ففي العام 1989م ولدت المجموعة تايم - ورنر التي تعتبر المجموعة الثانية لكابلات الرائي في الولايات المتحدة من اندماج عملاقي النشر والسينما، و منذ ذلك الوقت ازداد احتدام المعركة على شكل إعادة شراء واندماج و اتفاقات لتجميع الكفاءات واحتلال الأمكنة الأولى في السوق المستقبلية، التعاون بين بل أتلانتيك تلفون وتيليه كومونيكاسيون العملاق في مجال الكابلات التلفازية (33 مليار دولار خلال 5 سنوات). إعادة شراء باراماونت للاتصالات المنتجة للأفلام من قبل فياكوم المالكة للشركة MTV(8.2 مليار دولار)! التحالف بين الاتصالات البريطانية وشركة الاتصالات قصيرة الموجة المُرتَبة بالدرجة الثانية في مجال الاتصالات الهاتفية بعيدة المدى (4.3 مليار دولار).... هذه العمليات كانت أمريكية خاصة،

وهــذا يعني أن مستقبل الاتصالات في العــالم سيكون متأثراً إلى حد كبير بالثقافة الأمريكية (Yankee).

مجلة المعلم رقم 13، 1994م

إن زيــادة الطلب يمكن لها أن تأخذ اتجاهــاً آخر: يمكن لجهاز الرائي وبحســب مبــدأ مشابه للمينيتيــل الحــالي أن يصبح من وقــت لآخر بنكاً للمعلومــات، ومركــزاً للتوجيــه، ولتبــادل الرسائــل الغرامية ســواء رُبط بالحاسوب أو لم يربط.

ولا يهم هنا الشكل الذي ستبدو به هذه الإنجازات الجديدة وإنما تغير السلوك الــذي ستؤدي له، يبدو أن حقبة البرامج المعنونة بحرف E الكبير وهو بداية كلمة طفل بالفرنسية، والتي تختار بعناية وتراقب بدقة ستنتهي قريباً، ويجب أن لا ننسى أن نأخذ بعين الاعتبار هذه الحقيقة عندما نحلل الآثــار والأذى الذي يلحقه الرائي بالأطفال، لأن استنتاجاتنا سوف تعتمد علــى الشكل الحالي لوسائل إعلام هــي في أوج تطورها. إن الحصول على الصورة سيكون سهلاً للغاية ومحرراً من قيود التوقيت، وسنقول سقى الله أيام برامج الأطفال الثابتــة الموعد التي تتيح للآباء أن يتحكموا بمشاهدة أطفالهم للرائي، وفرض الشــروط المعتادة لهذه المشاهدة: أداء الواجبات المدرسيــة و ترتيب الغرفة و إخراج الكلب لقضاء حاجته.... إلخ، إن هدف الكتاب المعلن هو السيطرة على الشاشة الصغيرة، ولذلك يجب ألا تدغدغ الأحــلام عقولنا، فــإذا لم تمارس رقابة شُرطيــة (بوليسية) على أطفالنا ليلاً ونهاراً فإن أبناءنا وأحفادنا سيشاهدون الرائي، علناً أو بالخفاء تحت أنظارنا أو في مكان آخر و أكثر من أي وقت مضى.

إن السبيل الوحيد الفاعل لحل هذه المشكلة هو تثقيف الأطفال حول الرائي، وهذا ما سنؤجله للفصل الأخير.

التطور الثاني: التفاعل

إن اللحن الحزين الذي غنيناه كلنا يوماً حول السلبية التي تولدها الشاشة الصغيرة سيكون قريباً جزءاً من الماضي. (وهذا لا يعني أن الأمور سائرة إلى الأفضل).

فباستطاعتنا دون الوقوع في الهذيان أو الخيال أن نتوقع تطور الأمور باتجاه مشاركة أكبر وتفاعل من طرف المشاهد، فتوجد أمثلة لتجارب في طورها الجنيني الآن، مثل المسلسلات التي تستطيع اختيار نهايتها، ولكن الأمر الأهم ليس هنا، سوف نكون قريباً بوضع يشابه وضع القارئ الذي يمر من كشك يبيع عنواناً أو عنوانين فقط إلى مكتبة غنية يمكنه فيها أن يقرأ بحرية حسب مزاجه، أو أن يلجأ لفهرس المحتويات ليجد كتاباً معيناً، فبدلاً من السؤال: «ماذا يوجد على القناة الثالثة هذا المساء؟ سيحل السؤال أين يوجد فلم رعاة بقر جيد؟». هل هذا الأمر سهل؟ بالتأكيد لا. إن موقف مستهلك الصورة يتغير تماماً للأفضل. إن الوقت باكر جداً لنقول هذا.

مثال آخر لتفاعل ممكن: بينما تشاهد مباراة لكرة القدم، تتساءل أحياناً إذا حصلت مخالفة في الموقف؟ (أوفسايد) وعندها تنتظر العرض البطيء للمشهد الذي يسمح لك بإعادة رؤيته إذا انتبه المخرج لحدوث هذه المسألة أثناء المباراة، قريباً سيكون بإمكانك مثلاً أن تختار بنفسك زاوية الرؤية، وتعيد رؤية المشهد المرات التي تريد إلخ..... وسيردون علينا بأن هذا الموضوع سيكون متعلقاً دائماً بلعبة القدم وحدودها بالتأكيد.

وهكذا ستعلمون كيف تشاهدون، وتطالبون بفهم ما تشاهدون. هذا ما يؤكده لنا، ويعتبره البعض ثورة حقيقية في عالم الأفكار.

مثال أخير بسيط وعملي: مراقبة الطفل الرضيع أثناء مشاهدة البرنامج المفضل. كاميرا داخلية في غرفة الطفل موصولة بالتلفاز. ونافذة صغيرة في زاوية الشاشة تقتطع من الصورة الكاملة يمكن الحصول عليها بجهاز التحكم عن بعد: وهكذا سيكون بإمكانك الاختيار بين دموع البطلة ودموع الطفل الصغير وما تبقى هو أن تعرف متى سيكون تحركنا؟

وعلى كل الأحوال فإن سلوك المشاهد بكامله سيتأثر باتجاه الاستقلالية الكبير وخيارات وحرية أكبر. ولكن على الطرف الآخر عزيزاً عن السيطرة والتلاعب والتدخل في العمليات الخاصة. وهذا الأمر له شواهد من حياتنا اليومية في العالم تقنيات الاتصال واستطلاعات الرأي والشراء بالمراسلة. والتي تسمح للمتنفذين من أصحاب السلطة السياسية أو الاقتصادية بتجميع المعلومات حول كل منا ليتآمروا علينا بالاتجاه المطلوب.

المستقبل كامن في الأدوات

متى أتاح المستمر اختراع طرق عبقرية لتحسين (أو لإصلاح) التعامل مع الشاشة، وبرغم التحول من التحسينات المكلفة جداً والضرورية للحصول على نوعية مترقية من الصور، فإن الثورة القادمة ستطال شيئاً آخر، بلا شك انه سيصبح الكمبيوتر زيادة عند المخطط، وزيادة أبعاد الشاشة. والصورة ذات الأبعاد والصوت المتناغم مع الصورة... الخ، تفتح مجالات شيقة في مجالات الثقافة والتعليم. علينا أن نتحدث عن كيفية استخدامها على الأقل؟

خط تجعل الإنسان يشتهي المشاهدة، وصوت سوبرانو بالإمكانيات الحالية يعطي نتفة صغيرة من غنى الأوبرا، وفيلم أمريكي 70 ملم على شاشة شبه مربعة ذات قطـر مائل يصل بالكاد إلى نصف متر يرضي فضول شخص محـب للسينما، إن بن هور مثل بافاروتـي سيستفيدون دون أدنى شك من التطورات المذكورة ومن أخرى لا تخطر لنا الآن على بال.

إن الانقـلاب الذي نشهد حدوثه بأم أعيننـا يحدث في مجال مختلف تمامـاً، وهو حيز السلطة، وهنا نغادر مجـال التقنية المطمئن لنخوض في مجـال زاخر بالحركـة متعلق بعلمـي الاجتماع والنفس، وهنـا نخرج من المختبر والمعمل لندخل عالم السياسة واللوبيات والتلاعب بالأخبار المتلبد بالغيوم، وإذا كنا لم نصل بعد لمرحلة دق ناقوس الخطر، فإن أشد درجات الحـذر مطلوبة، والأمثلـة التاريخية تؤكـد إلى أي درجـة استطاع مُلاك وسائـل الاتصـال الحديثة أن يسيطـروا سيطرة تامة علـى معاصريهم. ويخطر ببالنا الرايخ الثالث، والسيطرة على المذياع من قبل هتلر وكوبلز، والحـدث الأقـرب إلينا هـو حرب الخليـج أو المقبرة الجماعيـة في جبال تيميسورا في أفغانستان.

وهكـذا فالتطور الحادث في أدوات الاتصـال سيزيد إلى حد استثنائي قوة أولئك الذين يسيطرون على نظام الاتصالات.

المحطات الجديدة

وسائـل الإعلام المتعددة (Multimèdia) خلف هذا المصطلح الجديد المريح بمصدره اللاتيني تكمن الآلة الأكثر سحراً للاتصال في كل العصور. وتعتمد على اختراعين تقنيين عاديين إذا أُخذ كلٌ على حدة:

- التعـداد المزدوج: وهو تركيز بسيط للغاية مكون من إشارتين نعم أو لا. والأصـوات والصور تخزن بنفس الطريقـة، وتنقل وحدات التعداد المزدوج «bits» كل معرفة الإنسانية المتراكمة منذ ولادتها.
- الأليـاف البصرية: وهي ألياف دقيقة تسمـح بمرور الضوء وليس التيـار الكهربائي، وهـي تسمح بنقل مباشـر وكمية غير محدودة من المعلومات.

والباقي ليس إلا تطبيق لإجراءات تسمح بتصفير أحجام أجهزة التشفير وإزالـة التشفير من جهة، وانتقال المعلومـة في الاتجاهين من جهة أخرى. وهـذا يعني التصفير والتبـادل. بوضوح إننا نملك الآن لغـة عالمية وقدرة علـى البث غير محدودة بآن واحـد، إننا نتكلم عن طريـق واسعة متعددة الاتجاهـات معبدة لنقل المعلومة، تشمـل الهاتف القديم للجد غراهام بل، وبنفسـ الوقت دعـم الحاسوب المنزلي الـذي يصـل كل المستخدمين بين بعضهـم، ويصلهم بكل بنوك المعلومـات، والسوق الكبير للمعرفة والتسلية أصبح متوفراً للجميع، وعملياً فأنتم تسألوننا: ماذا يحدث؟

بكل بساطة الآتي: عندما تضغطون على رمز (icon) من رموز حاسوبكم المنزلي، فإنه سوف يبحـث ليس فقط في ذاكرته المحدودة بطبيعة الحال، وإنمـا في المعين الـذي لا ينضب للشبـكات المعلوماتية، عـن طريق الأقمار الصناعيـة و الكبلات التي تتيح الوصـول إلى المكتبات الجامعية وأرشيف المجـلات والجرائد لكل البلدان، والنسخ الأندر لأفلام كانت طي النسيان، وكذلـك بيانـات البيع عن بعد، والمحـلات التي تحرض الشهية الجنسية تجارياً، ولعب الفيديو التي لم تزدد ذكاءً رغم كل هذا التطور.

إننــا نقترب من السؤال الذي لم يجرؤ أحــد على طرحه حقيقة، بماذا سنستخـدم هذه الروائع؟ وخاصة في أي مجتمعات، ولأي هدف؟ إننا نعود بإصـرار لطرح هــذه المشكلة، ولكـن دعونا ننهي الجولــة الميدانية التقنية للأيام المقبلة التي يعدوننا بأنها ستكون مشرقة.

السرعة

إن سرعــة الحصول علــى الصــورة وحريتها ستزيد كمــا حصل فيما سمحـت به أدوات كجهــاز التحكم عن بعد وبعض وظائــف جهاز الفيديو، سيكـون المشاهــد أكثر اختيــاراً في مشاهدته، وسوف يلغــي دون رحمة كل المواضيع التي تبعث ملله، وذلك لصالح الأمور التي يفضلها، وهذا سيخلق تناقضــاً سنتعرضـ له بالشرح لاحقاً وكلمــا زادت احتمالات الانفتاح كلما زاد خطر انغلاقنا على الحيز الذي نعرفه.

الإمكانية

إن إمكانيــات التخزين ستستمر بالزيادة مع الوقت، فالانتقال الحديث العهد من الفلم التصويري السينمائي إلى شريط الفيديو يوحي بالخطوات العملاقــة المستقبليــة في هذا المجــال، لا أحد يعــرف الآن أي اختراع وأي أسلوب سيسيطر في المعركة الجارية على ساحة المسموع المرئي.

إن مــن المحتمــل أن يتغلب القرص المدمــج (CD) على شريط الفيديو التقليـدي مؤكداً انتصــار وحدات التعــداد المزدوج ببساطتهــا على طرق التخزين الأخرى التي لن تختفي تماماً دون شك (نرى مثال هذا باستمرار سـوق الأسطوانــات السماعيــة القديمة التــي تبقى المفضلــة عند المولعين

بالموسيقـى المُتَطَلبِين والذين يحنون للماضـي)، ولكنها سوف تنحصر في مجالات خاصة.

العلاقة الحميمة

الصلة بين المستخدمين الموصوفة من قبل البعض بالساحة العامة ملتقى العشـاق المستقبلية، أو ساحة القرية الإلكترونية حيث نتبادل آخر الأقاويل عـن طريق فأرة الحاسوب ولوحـة أزراره، ستتطور دون شك على الطريقة المشاهـدة في أنظمة الهاتف و تبادل الرسائـل الإباحية، والإنسان يتساءل إن كانت هذه الوسائل تحقق الصلة فعلاً، فنحن لدينا شكوك حول حقيقة هـذه الصلة، ويجـب ألا نخلط بين الأشياء الحقيقية ومـا يشابهها ظاهراً فقط، ولكن الخوض في هذا الموضوع هو عبارة عن مجال آخر للنقاش.

من الأمور الواعدة تبـدو إمكانيات استغلال عمل الصحفي على سبيل المثـال، فقد يتلخص عمل أيام بل وأشهـر أحياناً بعدة سطـور وصورة أو صورتـين من نوعيـة سيئة في إحـدى الجرائـد اليومية، ومـع الإمكانيات التي يتيحهـا القرص المدمج والذاكرة الإضافيـة للحاسوب، يمكن للمادة الإخباريـة أن تصنـف بدقـة، وأن تستخدم من قبل عـدد غير محدود من المستخدمـين في كل زمـان ومكان، وهكذا تتبنـي إلى مالا نهاية علاقة بين العناصـر بمجرد استخدام اسـم أو موقع أو تاريخ.... إلـخ، هذه التجربة ليسـت من الخيال، ولكنها جربـت في الواقع في مجلـة نيوزويك التفاعلية News week Interactive بالتنسيـق مـع جريـدة واشنطـن بوسـت، إن كامـيرا الفيديو حلت محل دفـتر الملاحظات أو المسجلـة التي يستخدمها الصحفي أو مذيع المذيـاع، إنها زيادة هائلة في الإمكانيات المتوفرة، ولكن هنـاك بالمقابل وأكثر من أي وقت مضى اعتمـاد على تقنية معقدة تتطلب

مـوارد اقتصادية كبيرة، ومـن ثم تدخل مجموعات الضغـط (اللوبيات) التي نعرف للأسف جيداً أهدافها الربحية والفكرية.

ببساطة أكبر إن إجراءات أخرى سوف تسمح لكم بالحصول على النص الصحفـي ولكن على شاشاتكم، وبالنسبة للذيـن يحبون قراءة جريدتهم المفضلة أثنـاء تناول القهوة، فإن عليهم الانتباه الشديد لفتات الكرواسان الذي يأكلونه فوق لوحة الأزرار.

لست بحاجة للاختيار: شكراً!

إن التـزاوج بين الحاسوب والتلفـاز سيصبح قريباً أذكى منك، وسوف يوفـر عليك جهد البحث بين البرامج التـي لا تحصى والألعاب والمعطيات ...... إلـخ، بتذكر عاداتك الصغيرة وبالاحتفاظ بكل ما سيمنعك بالتأكيد من كل محاولة لانفتاحك على آفاق جديدة.

سوف يُمنـع موزار عن المعجبين بمايكل جاكسـون، ويمكن للعنصريين أن يختصـوا بفنان أكثر بياضاً منه، كيـف يمكن لهذه المعجزة أن تتحقق؟ ببساطة عن طريـق تذكر حاسوبك لصفاتك وسلوكك، وهكذا يوفر عليك عناء التطور ومساءلة النفس ومحاسبتها.

الوسائط المتعددة؟

تعريف تقني

الوسائـط المتعـددة هـي... الـزواج الرقمـي للصـورة والصـوت والمعلومات الـذي يسمح بالشغل عليها وتخزينهـا وتبادلها ومشاركتها مع الآخرين عبر الشبكات عالية القدرة.

تعريف شاعري

الوسائط المتعددة هي.... مثل الجنس عند المراهقين:

- كل الناس يفكرون به.
- كل واحد يعتقد أن الآخرين يمارسونه.
- كل الناس يتكلمون عنه ولكن لا أحد يمارسه فعلاً.
- القليلون الذين يمارسونه لا يصلون للتمتع به جيداً.
- يظـن الجميع أنه سيكون رائعاً ذلك اليوم الذي نتعلم فيه كيف نمارسه.

المصـدر: مورا كونـت، أستـاذ في EPFL الأسبوعيـة (إيبدو) 30 حزيران 1994م.

إن البائعـين مـن كل الأصناف سوف يتدخلـون في قدرتك على الشراء دون، أن يتعرضـوا لخطر سحق أقدامهـم عندما تغلق الباب في وجوههم. إن الميغابايـت اللامتناهية تحت تصرفهم سـوف تكشف لهم كل رغباتك الأكـثر سريـة، وحاجاتـك الأقل إلحاحـاً، ولا يبقى عليك سـوى أن تقول: شكراً بانتظار الكشف الذي لن يتأخر بالوصول إليك عن نفس الطريق.

إضافة لذلـك فإن انتشار الإعلانات المبوبـة، والوصول لسوق الأشياء المستعملة سوف يكون سهلاً بالتأكيد.

سيكفيك أن تستخدم لوحة الأزرار لكتابة اسم الشيء الذي تبحث عنه والشركة المنتجة وسنة الإنتاج والسعر المرغوب به لترى لائحة كاملة بالمنتج على شاشة التلفاز.

وإذا حصل وأصبحت عاطلاً عن العمل، فبإمكانك البقاء في بيتك لاختيار الوظيفة التي تحلم بها بينما يسخن فرن الموجات الصغيرة الكرواسان الذي كان يجب عليك سابقاً الحصول عليه عند إنسان آخر في أمكنة منسية كانت تدعى مخابز.

إن استخدام شبكات المعلومات الواسعة في التعليم سوف يتطور في مجال المدارس، وكونوا متأكدين بأن خطوات تعليمية عملاقة تنتظركم بفضل لمسة صحية للوحة أزرار عقيمة تغنيكم عن وخم مصافحة الأستاذ، أو الجراثيم الضارة التي يمكن أن تنتقل من الفم المبتسم لُمدرسة بلحمها ودمها.

مستقبل الرشاد

بإمكاننا متابعة التسلية بالوعود الخرافية التي مفادها في معظم الأحيان الوصول إلى تحسين التقنيات المهم بالتأكيد، ولكنه تقدم لا يطال أبداً معنى وهدف النشاط الإنساني، والدليل التقليدي على هذه الفكرة هو الاستعمال الحربي للاختراعات، فأجدادنا القدماء عندما اكتشفوا أول الأدوات على شكل عظم أو عصا أو قرن وعل، اكتشفوا كذلك ـ حسب ادعاء المتشائمين ـ الهراوة والمطرقة والدبوس، فأينشتاين لم يُرد القنبلة الذرية، ولم يرغب غراهام بل بالتنصت على المكالمات الهاتفية بين المواطنين.

مع الثورة التي نشهدها في عالم الإعلام تبدو هذه الحالة أكثر جلاء من أي وقت مضى، إن التقنيات الحديثة الأكثر عنفاً لا يمكنها أن تؤثر إلا في العقول الموجودة، ولكنها لا يمكنها استبدالها، فالأثر المضخم الناتج عن كابلات الألياف البصرية والترقيم لن يظهر إلا على المحتويات الموجودة

سابقـاً، وهذه الظاهرة تأكدت في عدة مناسبـات. كلنا يتذكر الآمال التي وضعـت في وسائـل الإعـلام المسموعـة المرئية ثـم في الحاسـوب لتطوير التعليم، والحالة هكذا لا يمكننا إلا أن نسجل إخفاقاً أو على الأقل الحدود الصارخـة لهذه الأدوات في مواجهة مشـكلات المجتمع المحورية: الاندماج والإقصاء، والمنافسة الشرسة، وهيمنة الاقتصاد.... إلخ.

إن الاختراعات الأكثر جنوناً ليست لها أي قدرة على التغيير ما لم تطرح التوجهات الفلسفية والسياسية للمجتمع للنقاش، إننا نعبر الأطلسي خلال عـدة ساعات اليوم لنذهـب إلى نيويورك، ولكنهم دائمـاً نفس الأشخاص الذيـن يذهبـون، و يقومـون بفعاليـات أكثر ارتباطـاً بأسعـار الدولار من ارتباطهـا بالتقريب بـين الشعوب، فنحن ننزل في فنـادق نمطية متشابهة سـواء كانـت في هونغ كونـغ أو في نيروبي، ونزدرد طعامـاً محايداً على كل خطـوط العرض أثناء الرحلـة، وبدل أن نراقب السمـاء فإننا نغلق ستارة النافـذة لنشاهد فلماً من نوعيـة رديئة، وما زال معظـم الرجال والنساء يسيرون على طرق ترابية بحثاً عن قليل من الماء والأمان.

أمـا فيروس نقص المناعـة المكتسب فقد استفاد من حـركات الهجرة للانتشـار بسرعـة أكـبر، هذه التنقـلات التـي لا علاقة لها البتـة بروعة اكتشاف آفاق جديدة من خلال السفر، استمعنا منذ عدة سنوات لمحاضرة ألقاها اختصاصي بعلم الاجتمـاع ماركسي التوجه وساذج جداً حاول من خلالهـا بيان أن التقنيات التـي نملكها ستمكننا من ري الصحراء في وقت قريـب، ومنذ ذلك الوقت تطورت الثقافة إلى حد أكبر من توقع المحاضر، ولكن تصحر الساحل الغربي لأفريقيا زاد أكثر.

التقليب يقتل هواة الرائي!

في نطاق الرائي ولدت ظاهرة التقليب في السبعينات مع ظهور جهاز التحكم عن بعد، أما المذياع فأصيب بهذه الظاهرة في منتصف الثمانينات مع وصول اختيار البرامج المسبق القابل للتخزين.

من المسؤول: الكبل أم الأقمار الصناعية؟

وازدادت حدة الظاهرة بظهور المحطات التلفازية العديدة الواصلة عن طريق الكابلات أو أطباق المستقبلات التي تعرض العديد من البرامج، في الوقت الحالي يمكنكم التقاط أكثر من مئة محطة راء ومذياع عن طريق طبق استقبال جيد.

وهكذا يجد المشاهد نفسه في وجه بحر من المحطات، وأمام أنبوب الأشعة المهبطية يبدأ يشعر بالقلق يزداد شيئاً فشيئاً من عدم قدرته على القيام بالاختيار الصحيح، ويصبح الرائي وسيلة اتصال إعلامية بديلة مع العالم الخارجي، وعندها يبدأ المشاهد ببناء محطته الخاصة، فهو يحاول أن يبني برنامجه بخلط أشياء متنوعة، لأن كل شيء أصبح ممكناً اليوم، ويدخل فيما يمكن أن ندعوه «الرائي الافتراضي» لا شيء يبدو حقيقاً بعد الآن ...... فالرائي أصبح معيناً لا ينضب من الصور حيث يستطيع كل إنسان أن يجد ما يشابه شيئاً ذا معنى، وأحياناً يتجاوز الرائي الافتراضي واقع المشاهد المُقَلِب فيصبح أكثر حقيقة رغم عدم وجوده.

التقليب ومشاهدي الرائي

إن التقليب إضافة إلى صنع مُقَلبين يؤثر كذلك على محترفي الإعلام، ويجعل كل معطيات إحصائيات المشاهدة غير موضوعية. فمثلاً كان أعلى رقم للمشاهدين للمحطة TF1 في عام 1993م أثناء عرض مباراة كرة القدم بين مرسيليا وميلانو، ولكن رغم وجود آلات إحصاء المشاهدين المعقدة، كيف يمكننا التأكد من صحة الأرقام المقدمة لنا.

ففي استطلاع للرأي أجري في فرنسا لصالح محطات الكبل (Paris TV cable) هدفه معرفة ما يشاهد المشاهد كل ربع ساعة تبين أن تفوق المحطة الفرنسية الأولى (TF1) ونجاح المحطة الفرنسية الثانية France 2 منقوصان، فالاتجاه واضح، والمحطات المختصة بمواضيع مُعينة تأخذ جزءاً من مشاهدي المحطات الرائدة، فالتقليب موجود دون شك.

رائي المستقبل: أقوى ألف مرة من رائي اليوم

إن مؤلفي الكتاب لا يملكون الكرة الزجاجية الشفافة التي تسمح لهما بالكشف عن المستقبل، إنهما يملكان ككل واحد منكم، قراءنا الأعزاء، قدرة على الملاحظة الطبيعة، وجرعة من الحس النقدي، ولقد تصفحا آلاف الصفحات من الوثائق، والسؤال المطروح هو: ما شكل رائي المستقبل؟

علينا ببساطة أن نستنتج الإجابة من رائي اليوم، ومن هنا يمكننا البدء: خذوا أي عنصر من عناصر الواقع اليوم، وكبروه بقدر الإمكانيات الحديثة المتاحة، وبإمكانكم تنبؤ المستقبل إلى حد كبير كما لو كنتم مطلعين عليه، لنرى ذلك!

إنكم مذهلون الآن من رداءة المسلسلات الجاهزة؟ ومن الآن فصاعداً فإن عليكم أن تتجرعوا ليس مسلسلاً أو مسلسلين تافهين ولكن عشرين و مئة وألفاً، فيالحظنا!

أنتم الآن فزعون من العنف في الأفلام وألعاب الفيديو والكليب المخصصة للشباب؟ فلا تشكُوا، ولن تخسروا شيئاً بالانتظار، فأبناؤنا سيكون بإمكانهم مشاهدة مجموعة أكبر بكثير من الألعاب الحربية التي تتطلب مشاركة اللاعب، سيكون بإمكانهم أن يُقتلوا بواقعية شديدة قد تصل إلى الحقيقة، وستبدو الجراح وكأنها حقيقية، ومن يدري ربما تنقل لنا تقنيات الحاسوب رائحة الدم، و ربما الإحساس بالألم!

إن التعصب الوطني الأحمق الذي يَسِمُ الرياضة المنقولة بوسائل الإعلام يثير اشمئزازكم اليوم؟ ولكن غداً سيكون بإمكانكم بضغطة على زر أن تذيقوا حكم المباراة الويل، أو ببساطة أكبر أن تشتروا له نظارات عن طريق محطة من محطات البيع التلفازية!

كل شيء قابل للشراء في هذا العالم المنحط، و خاصة في الغرب! فمع الزيادة الهائلة للعرض، والدفع للاستهلاك، وضرائب أجهزة إزالة التشفير، والتسعيرات المدفوعة على الدقيقة..... إلخ، سوف تصلكم كشوف الحساب دون تأخير، واطمئنوا فسيكون بإمكانكم قريباً أن تدفعوا المال بالضغط على رمز ad hoc، وضمن المستقبل المنظور سوف يُسحب المبلغ من حسابك حتى دون أن تشعر بذلك، إلا إذا كنت غير قادر على وفاء الدين (فالتطور لن يصل إلى الكرم).

إنــك تعيش اليوم حياة متواضعة شحيحــة ليس لها معنى، ولكنك رغم ذلك واحد من «القلة السعداء» الذين يستهلكون وحدهم بقدر ما يستهلكه 99% مــن الجنســ البشري من مــوارد الأرض؟ فلا تخف أبــداً، إن تقنية جديدة تعني استبعاداً جديداً، فغداً لن تكون حياتك خاصة بعد الآن، ولكن مليئة بالحظ! (إياك أن تتخلى عن وظيفتك، و إلا.....).

ســوف تفقد بالتدريج الصلة مع أطفالك المتسمرين دائماً أمام التلفاز أو منضــدة ألعــاب الفيديو؟ لا توجــد مشكلة، فمستقبــلاً سيصبح التلفاز ولعبــة الفيديو جهازاً واحداً، وبفضل عرضــ مضاعف عشر مرات، فإنك لــن تسمح لنفســك بتحطيم قلب ملاكك الغالي بمنعه مــن التمتع بأنظمة MEGADEHBILL أو HYPERFLAHUTE التي تلقاها من أصدقائه كهدايا.

إننــا في نهاية القرن العشرين نحيا بالنيابة أكثر فأكثر، فوهم الصورة يستبــدل الحقيقة، والأحاسيســ العابرة تحل محل التأمــل العميق، ويحل الضجيــج محــل الهدوء... إلــخ، ليست مشكلــةً (No problem)، فسوف تبــث محطة ما (مدفوعــة، فلا بد مما ليس منه بــد) برامج سكوت أثناء الدعايات التي تنشرها الشركات التي تدعم هذه المحطة.

إلا إذا كنت أنت من سيصنع تلفاز الغد.....

هــل هذا هو قدرنا؟ هذا يعني أننا نسينــا أن الجنس البشري قد وهبه الله القدرة على الفرار من كل توقعات المتنبئين بالمستقبل و الإستراتيجيات التجارية: عن طريق الحرية.

حريــة أن نقول: لا، لا نقولها للتقدم والعلـم ولكن للسباق المحموم نحو أيام تمجـد التجزئة الضائعة، كل الاختراعات تدعـو للتفاؤل، ولكن يجب أن نحسن إخراجها، هل نريد دائماً المزيد؟ ألسنا نحبذ الإضافات المفيدة لحياتنـا؟ قليـلاً من الروح غـير المُسَعَرَة، ومن الحياة غـير المدعومة، هل هـذا كثير نطلبه؟ ولكن لابد من فعله، وطالمـا يوهم المشرفون على التلفاز الناس بأنهم يعبرون عن رغبات المشاهديـن، فإننا لن نحصل إلا على ما نستحـق، سواء كان ذلك بالأبيض والأسـود أو بالوسائط المتعددة، و سواء كان بالصـورة ثنائية أو ثلاثية الأبعـاد، وبالنقاء العالي للصورة أو بدونه. وطالمـا أننا لا نستطيع التواصل بـدون لوحة تحكم وفأر، فإن المعالج الأكثر عبقريـة سيبقـى عاجزاً عن خلـق تواصل لا يعدو كونه تجـاري جشع، من وجهة النظر هذه، فإن المحطات الحكومية المُدانة بتعجل من قبل عبدة إله التلفـاز وعجل الدعاية الذهبي سوف يكون لهـا مستقبل في عالم الغد، إن تلفاز المستقبل بالنسبة لنا وربما لكم ـ و إلا لما كنتم قرأتم كتابنا ـ هو تلفاز الاحترام والحقيقـة غير المُقَنَّعة، والذي لا يُشرى عنـد الطلب كالغانيات. وبعبـارة مختصرة نريد محطـات وليس بنات هـوى، إن التنبؤ بعالم الغد يتطلـب فهماً لعالم اليوم في المقـام الأول، إن التحكم بتلفاز المستقبل يكون أولاً برفض الخنـوع الذليل لتلفاز اليـوم فلعل الفصـول القادمة من هذا الكتاب تسهم في هذا الأمر، وأنتم كذلك أيها القراء.


المبادرة
لا أحب هذا البرنامج
اقلب المحطات
ZAPP!

«الحضارة هي سباق بين التربية والكارثة»

هـ. ج. ويلز

الفصل الثاني

الرائي والمدرسة

ماذا يجب علينا أن نعلم شبابنا؟ وأي شباب؟ و كيف؟ ولماذا؟ وأين؟

هـذه الأسئلة الكبـيرة المتعلقة بشكل ومحتوى النظـام التعليمي هي في مركز الاهتمام لـكل تقييم للتعليم، وتزداد أهميته كلما عاشت مجتمعاتنا تغيرات سريعة وغير قابلة للتراجع.

هل المدرسة قادرة على فعل كل شيء؟

حتـى زمن قريب كان توزع المهام بين المدرســة والعائلة واضحاً، ورغم كـون هذا التقسيم مضحكاً قليـلاً، ولكنه كان جلياً: فالتربية تعود للأبوين بينمـا يعود التعليم للمدرسين، وبما أن كل واحـد كان حريصاً على القيام بمهمته (أن ينظف أمام بيته)، كان الأطفال محميين.

ورغم ذلـك ففي نهاية الستينات أظهر استطـلاع أجري في بلجيكا أن من أصل مئة معلومة موجودة عند الأطفال في نهاية دراستهم في المدارس، حصل هؤلاء الأطفال على اثني عشر معلومة فقط عن طريق المدرسة، أما التسعة أعشار الباقية فمصدرها الأهل والأصدقاء، والشارع وقليلاً الرائي حتى في ذلك الوقت.

هـذه الملاحظـة المذهلة لم تصدم كثـيراً أو قليلاً الأوســاط السياسية والمدرسـية. كان المربون يؤكدون أن دور المدرسة هو التزويد «بالوســائل»

ـ القراءة، الكتابة، الحساب، العد ـ الخاصة، والتي تسمح بمجرد امتلاكها لكل شخص أن ينطلق حسب رغباته في اكتشاف المعرفة.

فلم تكن المدرسة في ذلك الوقت تشكل موضوعاً انتخابياً مهماً بالنسبة للسياسي، وكانت الاثنى عشر بالمئة من المعلومات المذكورة آنفاً كافية لتأمين: التعليم المدني ــ الجغرافيا، التاريخ الوطني ـ والحد الأدنى من الثقافة الوطنية التي تخلق عبقرية الشعوب، وتؤمن استمرارية مؤسساتها، سواء كانت إدارية أو اجتماعية أو اقتصادية، شهدت الستينات تعاظم ظاهرة عمل المرأة خارج المنزل، أما النساء اللواتي اُعتبرن متطرفات أو أمهات غير رزينات في سنوات ما بعد الحرب، أصبحت المتزوجات منهن أمهات الأطفال العاملات بأجر تشكلن الغالبية في مجتمعنا المعتبر، مجتمع رفاهية.

وصحيح أن في بعض الأوساط غير الميسورة أصبح الحصول على السيارة، وقضاء الإجازة خارج البلاد، أو امتلاك جهاز الستيريو، أو امتلاك الشقة، وباختصار الوصول للنجاح الاجتماعي الظاهري، لا يتحقق إلا بوجود مرتبين يصلان في نهاية الشهر.

سواء كان عملها وراء مكتب، أو على سلسلة التجميع في معمل، أو على صندوق المتاجر الكبيرة، لم تعد المرأة قادرة على القيام بدورها المزدوج كما سبق لها أن فعلت.

وهكذا أُنيط بالمدرسة رويداً رويداً كمية من الواجبات التعليمية التي قبلها المدرسون مسرورين بكثير من الحماس وعدم الوعي بثقلها بآن واحد. وبحسب المناطق أو البلدان يمكننا أن نذكر اعتباطياً: التربية

الدينيـة، وقواعد المـرور، والثقافـة الصحية والإعلاميـة، وثقافة التبادل الحضـاري، والثقافة الفنية، كل التعلم، والتدريـب والتوجيه والتهيئة التي أضيفـت للفـروع التقليدية للتعليـم، والتـي أصبحت بدورهـا أكثر حمداً وتعقيداً، مما جعل مهمة المدرسة صعبة للغاية إن لم تكن مستحيلة.

وتحت شعار تكافؤ الفرص، فإن السلطات السياسية لم تطالب المؤسسة التعليمية بتعويض التقصير التربوي من قبل الأبوين فقط، بل حملتها هذه المهـام الجديدة، مع البـدء بإدخال الأطفال للمدارس باكراً، ولوعي هذه السلطات بالنمو المطـرد للقطاع الثالث (فئة من السكان تعمل في التجارة والخدمـات والتأمينات... إلـخ). الذي يتطلب ثقافة عامـة واتقاناً للغات الرمزيـة، فإنها دعت لبذل جهـد كبير في مجال التأهيل النظري للشباب. إن إطالـة الدراسـة والمشـروع الفرنسي الطمـوح الهـادف إلى 80% من حاملـي الشهادة الثانوية كانا النتيجتين الأكـثر وضوحاً، كل هذه الأسباب سواء كانت جيدة أو سيئة تفسر جزئياً الازدواجية في سياسة المدرسة التي تدعي أنها مكان التعارف وتفتح المواهب و احترام الطالب، والتأهيل الذي أصبح أكثر فأكثر تعقيداً، والاصطفاء ومنح الشهادات، وهي بنفس الوقت مـكان طبيعي منطقي للفشل والإخفاق، نعم، ولكـن أين دور الرائي في كل هذا؟صـبراً فنحن نكاد نوصلكم لهذا! ولكن بـدا لنا مهماً في هذا الفصل المخصص للرائي التثقيفـي، أن نصف بسرعة كبـيرة الوسط المدرسي و الاجتماعـي الاقتصـادي للسنـوات الثلاثـين الأخيرة التـي شهدت ظهور الظواهـر التي ذكرت أعـلاه، وبنفس الوقت وبشكل مـوازٍ الولادة والتطور والتأصل العجيب لوجود الشاشة الصغيرة ضمن العائلة.

• مبدأ المسموع المرئي والتلفاز الذي يهدف أولاً إلى استرعاء النظر على حساب الانتباه أو التركيز، والذي يسيء استخدام مثيرات العواطف، ويحاول أن يحصل على الإعجاب ويأسر المشاهد ويهدف للتسلية فقط.

ولكن ألا يمكن بالعقلانية والإرادة إيجاد طريقة لتقريب هذين العالمين المختلفين تماماً و المتكاملين والضروريين للتأهيل قليلاً، في الواقع تمركزت العلاقة حتى الآن حول محورين:

• التربية عن طريق وسائل الإعلام، والتي في حيز المدرسة تريد من الطفل أن يصبح مشاهداً ناقداً قادراً على استخدام الرائي كوسيلة للحصول على المعلومة وكمنفذ على الثقافة.

• التلفاز التربوي الذي يزود بوثائق صالحة لتطوير المهارات المدرسية. ولكن يجب ألا ننسى أن الرائي يبقى قبل كل شيء جهازاً «منزلياً عائلياً» ومن ثم خاص، وذلك يعني أن كل تربية إعلامية وكل تلفاز تربوي يجب أن يكونوا خاضعين إلى حد كبير لمواقف وعادات الأهل.

التربية عبر وسائل الإعلام

إن الحاجة لتأهيل الشباب عن طريق وسائل الإعلام أُريد لها أن تكون ضرورة تعليمية منذ السبعينات من القرن الماضي، ويدخل هذا الأمر في سياق إرادة سياسية أولاً لتحديث محتوى البرامج المدرسية الجامدة قليلاً، وربما تزويد المدرسة بوسائل جديدة للتعليم، كم هو مُوال سياسي - غنائي جميل يريد أن يصدح به الإيمان بالتقنيات الحديثة، وهكذا أعلن أندريه مالرو أثناء الحملة الانتخابية في عام 1974 على المحطة الفرنسية الأولى

TF1 عـن ثورة حقيقية بالتعليم عن طريق الرائـي والحاسوب: «استبدال الكتـاب بالحاسوب، يجعـل الطفل يتمتع بدل أن يمـل، ويكون ذلك بالبدء منـذ المراحـل الأولى للمدرسـة وحتى التعليـم العالي باستخـدام مزدوج للرائي والحواسيب».

في معظم التجارب، يريد التعليم عبر الإعلام الوصول لهدفين ساميين:

- خلق قدرات تحليلية وفهم لنظام الاتصال بالجماهير.
- إسداء خدمة للطلاب مواطني ومبدعي المستقبل بتزويدهم بإمكانية التعبير عن أنفسهم عن طريق وسائل الإعلام المسموعة المرئية.

لنُعَرف

التلفاز:

كلمـة مكونة مـن مقطـع أول Télé ومعنـاه (بعيـد) ، ومقطع ثانٍ Visio ومعناه(رؤية) .

نقـل بالأمـواج الكهرطيسيـة لصـور أشيـاء جامـدة أو متحركة. فمستقبلات ومرسـلات التلفاز تستقبل وتصدر في نفس الوقت أصواتاً كذلك، وهكذا يصبح التعبير الدقيق عن النظام «المذياع المتلفز»

1) يمكـن للمذيـاع أن يُسمَعَ بـأذن شاردة، بينمـا يستنفر التلفاز الحاستـين الأساسيتـين (السمـع والبصـر)، ويستحـوذ على الانتبـاه تماماً. فأحيانـاً يكون الصـوت هو بـؤرة التركيز، ولكن بالإجمال فإن المسموع المرئي لا يترك مجالاً للشرود.

(J. Cazeneuve,in Diogène, juill- sapt.1962,P.H146)

2) لا نجد الطبقات الاجتماعية الموسرة والمثقفة في الطليعة عندما نحصي العائلات التي تمتلك جهازاً رائياً.

(Id., " les ėlites contrela tėlėv.", in la table ronde, mars 1966,P.90)

3) لُوحظ في الطبقات الغنية المثقفة أن الرائي غير موجود في غرفة الجلوس، وأنه أُبعد إلى غرف أخرى أقل أهمية حيث لا يمكن للأصدقاء الذين نستقبلهم أن يروه، وبالإجمال فهو قطعة أثاث مشبوهة نشعر بالخجل من اقتنائها، وبالمقابل ففي الطبقات الاجتماعية المتواضعة فإن اقتناء الرائي عُدَّ وما زال يُعَدُّ رمزاً للارتقاء الاجتماعي. (Ibid.,98)

4) لا شك أن الرائي يثقف لأنه يقرب المسافات ويجعل الغريب مألوفاً، وأكيد أنه يخفف قسوة تقاعد المسنين، ويُبقي الزوج المعتاد على ارتياد الملاهي في البيت. ولكن «الخلايا الرمادية الصغيرة» التعبير المفضل لهيركول بوارو تتخدر، وينام الحس النقدي.

(F.Fernand- laurent, Morale et tyrannies, 1718-. Ed. Ouvr., 1967)

5) لاشك بأن المنازل الخاوية من الكتب هي التي تنمو على سطحها مستقبلات التلفاز، وهكذا فإن أستاذ اللغة أصبح من الواجب عليه أن يكون كذلك أستاذ صوت وصورة.

(J.Delannoy, in Cahiers Pėdag., mars 1970.p.11.)

مقاطع مستخلصة من قاموس اللغة التعليمية لبول فول كييه.

Tirė du Dictionnaire de la langue pėdagogique de Paul Fouliquiė. PUF. 1991.

ولكـن الأمـر الأهم هـو جعـل الطالب أكـثر قدرة علـى رؤيـة التلفاز بعـين الناقـد، وأن نساعده في خياراتـه، وأن نتيح له الفرصـة أن يحتفظ باستقلاليته فيما يتعلق بالقيم والمثل المنقولة.

إن هـذا الهدف الـذي يسعى للمساواة يدخل تمامـاً في سياق الحديث التقليدي عن مدرسة تتصف بالكرم والديموقراطية وترغب بإتاحة الفرص للجميع عن طريق تعويض التقصير العائلي.

للوصـول إلى هذه الأهـداف الطموحة، لابـد أن تكـون المدرسة قادرة علـى جعل الأطفـال يكتسبون معارف جديـدة متعلقة بالتلفـاز، وأن تغني مفرداتهـم، وتطور قدرتهم علـى الملاحظة، وتجعلهـم يستوعبون أن كون الشخص مشاهداً لا يعني أن يكون متلقياً. وأن هناك طرقاً أخرى للترفيه عن النفس، ومفاتيح أخرى للمعرفة والثقافة.... وعندها، وفقط عندها، تكـون المدرسة قـد سمحت بتغيير موقف الطلاب مـن التلفاز، إنه برنامج كبير جداً بالنسبة لمعظم المدرسين الذين لم يُهَيَّؤوا أبداً. أو كان تجهيزهم سيئـاً للقيام بهـذه المهمة الجديدة، إنهم أكثر ضيقـاً من تلامذتهم، فهم لا يجـدون كتباً مخصصـة لتعليمهم إنجاز هذه المهمـة، ولأنهم تنقصهم القواعد النظرية لها التي لم توجد حتى الآن، وخاصة الدافع للوقوف أمام وسيلة الإعلام هذه التي يعتبرونها و سيبقون منافساً لهم.

ومـن ناحية أخرى ـ وكما يوضح الباحثـان الفنلنديان مينكينن ونوردن شهرنغ ـ فإن التعليم عبر وسائل الإعلام «يقحم مسائل أخلاقية ومسائل أخرى ذات علاقة بالآراء الشخصية يمكن لها أن تخلق نزاعاً بين المدرس والطالـب أو أهله..... فالأهل قد يشعروا بتوجيهـات الأساتذة أو سلوكهم كتدخل سافر في حياتهم الخاصة».

وهكذا ورغم أن بعض التجارب بدت مثيرة للاهتمام في بعض جوانبها، فإن التعليم عن طريق الإعلام فقد التعاطف معه تماماً في أوروبا، إن عدم وجود دوافع حقيقية لدى المدرسين ليس التفسير الوحيد لهذا الفشل، ففي فرنسا وسويسرا وفنلندا والدانمارك والنمسا وأماكن أخرى يمكننا ملاحظة النقص الدائم في الإمكانيات المخصصة المتاحة، ولن نركز على سلبية المؤسسات التعليمية التي لا تقصر فقط في تأهيل المدرسين، بل لا تترك أي مجال في البرامج المدرسية الكثيفة عبثاً «لقراءة التلفاز» قراءة حقيقية في الصف.

تعلم مشاهدة الصور

نريد أن ننتقل من فك الرموز إلى التعليم، هل تعتقدون أن بإمكاننا أن نتعلم مشاهدة التلفاز؟

إنني شديد القناعة بذلك، وإلا لما كنت كتبت هذا الكتاب الذي يعتبر طريقة توضيحية تجريبية لهذا الموضوع، إن كل مشهد ينبع مقصداً تعليمياً، وعلى محطات التلفاز أن تقوم بنفس الجهد، وسيكون هذا برأيي إجراءً اجتماعياً صحياً، ويمكننا دائماً أن نحلم بولادة مستبعدة لبرنامج يكون بنفس الوقت منقذاً ومهدماً للأداة نفسها.

وقد أعطيتُ المثال على ذلك عندما انتهزت فرصة وجودك في برنامج برنار بيفو لتعلق على الأثير على لقطات مختارة من نشرة أخبار الساعة الثامنة مساءً.

لقد تمتعت بتحليل واحدة أو اثنتين من الخدع التلفازية، واحدة منها نمطية تظهر إدوار بالادور في مطار جنيف لحظة صعوده طائرة

عاديــة للعودة إلى باريس بعــد أن قضى نهايــة الأسبوع في منزله في شاموني للاستجمام، يريد التقرير المُصوَر أن يقنعنا أن رئيس الوزراء يسافر دون مرافقة كشخص عادي بغرض الاقتصاد في النفقات. إنه تقرير من صنع مخادعين، فكل صورة خضعت لتعديلات مُسبقة. ففي إحداها يمكننا أن نلمح واحداً من حرس بالادور الشخصيين خارجاً بسرعــة من حيز الصورة ليكــون الخداع كاملاً، وبقــي هذا الخداع ناجحــاً إلى أن علمنا لاحقاً أن نصف المسافرين العاديين طلب منهم استخدام رحلة طيران أخرى للسماح لمرافقة رئيس الوزراء بالصعود معه إلى الطائرة.

ورغـم أن الفرصـة كانـت سانحـة للقيـام ببعضـ التعليم على مشاهدة التلفاز في برنامج السيد بيفو الذي يدوم أقل من ساعة، فقـد تحــول دانيــل شنيدرمان خلالهــا ولسخرية القــدر إلى مادة تلفازيــة صرفة، لقد تمكنــت خلال هذا الظهور الوحيد على التلفاز أن استشعر ومن الداخل حجم الآلية التي تجعل من الرائي ـ عندما نرزح تحت نيره ـ أداة قوية للدعاية الشخصية.

وهــا أنـت أصبحـت بـدورك شخصيــة إعلامية يتلقـف الناس مقالتك اليومية في صحيفة لوموند: ويتخاطفون كتبك، فكيف تتعامل مع هذا النجاح؟

بكثير من الخوف والقلق.

تيــري ميرتونــا، جريــدة جنيــف، 22-23 كانــون ثــاني 1994. مستخلصــ من مقابلة مع دانييــل شنيدرمان، ناقــد تلفازي ومؤلف كتاب وقفات مع الصور (Arrêts sur images) المنشور في دار النشر (Fayard).

ودون رغبــة سياسيــة حقيقية، فإن التعليم عن طريــق الإعلام سيبقى ولزمــن طويل فرعــاً ثانوياً و فلوكلوريــاً لا يلقى إلا دعمــاً هامشياً وفردياً. وهذا مؤسف حقــاً لأن هذا الأمر كان فرصة للمدرسة للخروج من عزلتها بــين أربعة جدران، ومن عالمها العقيم إلى العــالم الخارجي، مُبادِرَة للقاء الطــلاب والدفاع عن مصالحهــم، لأننا شئنا أم أبينا فــإن التلفاز يتدخل بشــكل أكــثر سوءاً منه جُــودة في بناء ثقافة الأطفال، وذلــك عائد لنقص في المعلومــات والتأهيــل، يجد الأطفــال في التلفاز قُــدرات صُورية، وأمثلة يحتذونهــا في لَعِبِهِم وعلاقاتهــم الاجتماعية، يمكن لها أن تؤثر بقوة - كما سنرى لاحقاً - في أدوارهم في الحياة وفي سلوكهم.

إن التنكــر للتعليــم الإعلامــي يسهــم في تعميق الهوة التــي تفصل بين تطلعات المدرسة وتطلعات من يرتادها.

فباستثناء التعليم عبر الإعلام المثالي و المنهجي تتجاهل المدرسة وجود التلفاز تماماً، هذا الموضوع لا يزيد إلا قوة نظرة الأطفال للمدرسة كمؤسسة مصطنعــة، و للمدرس كشخص قادم من كوكب آخر، وذلك بعلاقتهما مع واقع الأطفال اليومي.

تلخص ليليان لورسا المختصة بعلم النفس، ومديرة الأبحاث في المركز الوطنــي للبحــث العلمــي CNRS، إحــدى دراساتها العديــدة بقولها: «في المدرســة لا نتكلــم عن الرائي مــع المُدرسة، وأحياناً يــؤدي حدث مؤلم لأن يتكلم الأطفال عما شاهدوه في الصف، ولكن هذا نادر كذلك، وهذا يدعو البعض للتساؤل عما إذا كانت المُدرسة تمتلك تلفازاً، وأنها تعيش بعيداً عن أجواء الذين يشاهدونه».

التلفاز التربوي

إذا كانت كلمة «تلفاز» ما زالت موضع جدل في معظم المدارس من الابتدائية وحتى الثانوية، فكيف يمكن أن نتصور أن تستخدم المدرسة في يوم من الأيام هذه الوسيلة الإعلامية لتوصيل المعارف، في سويسرا مثلاً تمتلك كل المؤسسات المدرسية تقريباً جهاز تلفاز وفيديو و ربما كاميرا فيديو، ولكننا نادراً ما نشاهد درساً كاملاً يعطى أمام شاشة الرائي. إن مشاهدة برنامج يبقى شيئاً استثنائياً، ولا يُبرر إلا إذا كان محتوى البرنامج يتماشى مع عنصر محدد من برامج المدرسة، أو إذا كان المُدرس من عشاق متابعة النقل المباشر لمباراة كرة قدم، أو مسابقات الهبوط السريع على الثلج، أو لقضاء الوقت دون تعب في نهاية العام الدراسي.

باستثناء الاستعمال الأول، فإن استخدام الرائي في الحصة الدراسية ينقصه الكثير من النُبل والموافقة.

جهاز الفيديو: الضالة التي نبحث عنها؟

لا أحد يستطيع أن ينكر أنه ورغم كون الأمر نادراً، ومروره في ساعات بث غير معتادة، فإن معظم الخمس أو السبع أو التسع محطات الناطقة بالفرنسية تبث وثائقيات يمكن للمشاهد أن يلتقطها دون دفع، وذلك في مجال القضايا الاجتماعية والسياسية والعلمية ذات الأهمية، هذه الأفلام الوثائقية قد تكون على درجة من الجدية والمصداقية والقدرة على توضيح مادة من المواد التعليمية تفوق من حيث حيويتها وقدرتها على التفعيل والتجاوب بكثير خطاب الأستاذ التقليدي الممل.

إن استخـدام الفيديو اليوم لا يسمح فقـط بالتحرر من قيود البرنامج الزمنـي الدقيـق لبث البرامـج، بل يسمح كذلـك برؤيـا مسبقة وتحضير ضـروري للاستفـادة منه تعليمياً، إضافـة إلى إمكانية العـودة إلى الوراء وإيقـاف الصورة، والتوقـف المباشر عن العرض للـرد المباشر على أسئلة الطـلاب، وتقديم معلومة إضافية، أو ربط المشهد بمعلومة مكتسبة سابقاً، وهذه الأمـور هي الأهم، إن «الاستفادة التعليميـة» للمدرسة من الرائي لا تحتـاج إلى تأهيل خاص للمدرسـين، ولا إلى إنشاء هيئـة ثنائية الجانب تجمع رجال التعليم والعاملين في التلفاز.

ولا تحتـاج كذلك لإيجاد بُنى تعليميـة جديدة، أو إمكانات مالية مهمة، ولا حتـى تأسيس مجموعـة ضغط (لوبي) من المربـين الرسميين لممارسة الضغط على منتجي التلفاز، لإنتاج برامج موجهة لشريحة عمرية معينة أو ذات علاقـة ببرنامج دراسي محدد، وباختصار كل ما سبب الفشل الذريع للتلفاز المدرسي.

لسنـا بحاجـة لكل هذا، وما علـى المدرس سوى أن يختـار ما يريد من البـث، وأن يضغط على مفتاحين أو ثلاثـة، وأن يكون مكتبة فيديو صالحة للاستخـدام المهنـي وعظيمة الفائدة، وهذه بدون شـك طريقة آمنة ذكية غير مكلفة ومُرضية لبعث الحياة في التعليم وشحذ همم التلاميذ!

ولا شـيء يمنـع الآباء مـن القيام بنفس العمل، وأن يقدمـوا لأبنائهم في عطلاتهـم المدرسية الطويلة الماطرة غـذاءً تلفازياً مختلفاً عن برنامج «دوروتيه» دائم الوجود، أو حفل توزيع الجوائز المعروض في منتصف الليل، والمُسجل بناء على طلب الوالد الذي كان غائباً ـ أثناء عرضه على التلفاز ـ بسبب حضوره اجتماعاً إدارياً!

إن ظهور جهاز الفيديو واستخدامه المناسب لأغراض تعليمية وتثقيفية كان بوسعه أن يسمح بولادة تلفاز تعليمي حقيقي يستفاد منه في غرف الجلوس العائلية، وفي المدرسة إلى جانب لوح الحائط الأسود، وإن هذا لم يحصل لأن الرائي بقي في نظر الآباء وكثير من المدرسين أعجوبة اللحظة الراهنة: فنحن نشاهد ما يعرض في نفس اللحظة، ونقلب المحطات كلٌّ بحسب رغبته من جهة، ومن جهة ثانية بقي الرائي وسيلة هرب من الواقع وتسلية رخيصة، هاتان النظريتان مأخوذتان معاً أو بشكل منفصل تجعل من الفيديو أداة لاستخدام وحيد: فنحن لا نسجل سوى أفلام التسلية وبرامج المنوعات، وأحياناً نستأجر شريط فيديو من إحدى متاجر أشرطة الفيديو التي انتشرت في كل المدن، إن النشر المنتظم في بعض الجرائد «للخمسين الأولى» ترتيباً بين الأشرطة المستأجرة يبين لنا شغف الناس بهذه المسابقات: لا شيء للأفلام الوثائقية أو التثقيفية.

ولا شك أن الرائي في نظر معظم معاصرينا ليست له قيمة تعليمية. وهل نشارك فرانسوا مارييه وجهة نظره الإعلامية المُزدرية، والتي تؤكد أنه لا يمكن أن يكون للرائي هدف تربوي، وأن التلفاز المدرسي هو أكثر قرباً من المدرسة المصورة بالتلفاز منه إلى التلفاز الحقيقي، وأن البرامج التثقيفية مثل «افتح يا سمسم» أو «هكذا كانت الحياة» ليست سوى تسلية تثقيفية.

إن السيد مارييه المدرس يُظهر من خلال ما ذُكر عدم التقدير الذي يشاطره إياه زملاؤه للاستخدام الممكن للتلفاز. ودون الرغبة في البحث عن التناقض، نجده يدلي بآراء بعيدة تماماً عن بعض زملائه في كتابه المستفز «دعوهم يشاهدوا الرائي». فإذا كان العنوان وحده كافياً لإراحة

ضمير معظم الآباء، ولضمان التسويق في المكتبات، فإن المحتوى يُبدي بوضوح عدم اكتراث، وأفكاراً محافظة بسيطة.

«يحتاج الأطفال من الأجيال الأولى التي تدخل سلك التعليم إلى مدرسة تعليمية ولمدرسين يقومون بمهمة التعليم، لابد للوصول إلى مدرسة تقدمية من تطوير طريقة تعليم محافظة بالضرورة، فمن خلال تعليم الأطفال القراءة جيداً تساعدهم المدرسة في الاختيار بين الكتاب والرائي، وعبر تزويدهم بقواعد ثقافية متينة تمكنهم من تقييم وهضم المعلومات التي يتلقونها عن طريق التلفاز، وتجعله بذلك تعليمياً»

التدريب

يجب أن يتأقلم التعليم مع متطلبات الدماغ

بعد عشر سنوات من مغادرة المدرسة من يستطيع أن يتذكر بالتفصيل درس التاريخ عن الثورة الفرنسية؟ السيد بيير ماجيستريتي أستاذ الفيزيولوجيا العصبية في جامعة لوزان يتحدى أياً كان في دحض هذه الظاهرة. «يسجل الطالب المادة في ذاكرته إلى حد كبير واضعاً في حسبانه الامتحان، ولكن الطرق التي نستخدمها لنقل المعلومة لا تضمن لنا أن يتذكرها بعد سنتين أو ثلاث».

وبحسب رأيه فإن طريقة التعليم لا تركز كفاية على متطلبات الدماغ.

«تُعرض كل معلومة مجزأة كما لو كانت في دُروج صغيرة، بينما يعمل دماغنا بنظام الشبكات، وبطريقة ترابطية وبحيث أن كل معلومة مرتبطة بمئات المعلومات الأخرى». وبطريقة ما يقوم نظامنا التعليمي «بتثبيط التعلم».

ولذلك طور بيير ماجيستريتي المُولع بآليات التدريب بمساعدة أحد مُساعديه القُدامى بهرام زيربور نظام تعليم فيزيولوجي عصبي لطلاب السنة الأولى في كلية طب لوزان . ويعتمد نظامه على الاكتشافات الأخيرة في مجال المعلوماتية والعلوم الطبية العصبية. واستهوت نظريته المربين. (...)

ما الفكرة الدقيقة التي تصنع الفرق؟ تعتمد الطريقة على حقيقة أن الدماغ يعمل بالتفكير الترابطي، فكل شيء موجود من خلال علاقته بشيء آخر، وانطلاقاً من هذا المبدأ بنى بيير ماجيستريتي دروسه بناءً على برنامج حاسوبي سمعي بصري شديد التطور (تحريك، فيديو) يسمح بربط عدد غير محدود من المعلومات.

إن طريقته المُعَدَّة لتوضيح أسرار الفيزيولوجيا العصبية للطلاب صالحة للاستخدام في مجالات أخرى، تخيلوا درس تاريخ كالآتي: على الشاشة يظهر ماراً وقد أغتيل في حوض استحمامه، ويستطيع الطالب أن يضغط على أي عنصر من عناصر الصورة ولنفترض النص الذي كان يقرؤه السياسي قبل موته، ثم بضغطة على أي كلمة في الصفحة إذا اختار كلمة «سياسة» فسيقوم برنامج Hyper texte بوصف المناخ السياسي لفرنسا في تلك الحقبة، و بإمكانه أن يعود للصورة ويضغط على باب الحمام، ليكتشف خلفه شارلوت كورديه التي انتهت لتوها من قتله، بإمكان الطالب أن يعرف من هي، ومن خلال الشرح الذي يُعطى له فإنه إذا ضغط على كلمة امرأة فسيُشرح له كذلك ماذا كانت أدوارهن في تلك الحقبة ...إلخ، لا توجد حدود، فكل ترابط للأفكار مسموح به.

«كل مـا يحتـاج إليه المخ ليزيد من قدرتـه. إن الدروس التقليدية تُجبر المدرسين على عرض المادة بطريقة جافة متتابعة ومُجزأة.

وتنساب المادة فصلاً بعد فصل وعبارة بعد عبارة، ولكن تأثيرها علـى المخ غير فاعـل، كما لو أننا نجبر رجلاً قصـير القامة جداً أن يرتـب كتبه في مكتبـة عالية. إننا نعـرف مسبقاً أنه لـن يتعب نفسه ليصعـد على دَرَجٍ صغير لتناول كتبه، وأنه سيفقد قريباً حتى الشعور بوجود مواد في القسم العلوي من مكتبته». (...)

بيا تريس شاد، L` Hebdo، كانون الثاني 1994

«نظامنا التعليمي يمنع التعلم»

مـن المؤكد اليوم أنـه لا يمكننا انتظار شيء كبير مـن التلفاز التعليمي باستثناء بلدان العالم الثالث التي ما زال انتظام الأطفال في المدارس فيها يتعثر في خطواته الأولى.

إن البرامـج الخاصـة الموجهـة للاستعمـال المدرسي حصـراً الثقيلة والمكلفة جداً والدقيقة للغاية، والتي لا تجذب أياً من المعلنين المحتملين، قد اختفت تقريباً من الشاشة في معظم البلدان الصناعية.

وإذا كانـت لا تـزال هناك بضعة ساعات في الشهـر، فذلك لأن المذياع والتلفـاز التعليميين يشكلان جـزءاً من الواجبات القانونيـة أو الأخلاقية لمحطـات البث الرسميـة التابعة للدولة، وأنه ليس مـن السهل إلغاء خدمة يقوم عليها موظفو الدولة.

إن أسباب فشل هذا الزواج المتوقع بين المدرسة والرائي عديدة، ولندع رونيه دي بو يلخصها على طريقته: «لا يملك موظفو التعليم الوطني في فرنسا، والتعليم الحكومي في سويسرا الروماندية (مقاطعة في سويسرا يتكلمون فيها بالفرنسية) حقيقة أي خبرة في التعامل مع وسائل الإعلام، وإنهم يعتمدون في قراراتهم على نظريات وتقارير صادرة عن مجموعات المنتفعين، والفضائح تُخفيها لعبة المصالح السياسية، وباختصار فإن محطات التلفاز التي يريدها موظفو الدولة لا يمكن لها إلا أن تكون دوائر مغلقة».

المدرسة والتلفاز المنافس

باستثناء حالات نادرة يستغرب الإنسان التحفظ الكبير الذي يبديه كل المدرسين تجاه استخدام الرائي لأهداف تعليمية.

ويزيد استغرابنا لهذا الإجماع عند معرفتنا لتنوع الميول والاتجاهات في وسط المعلمين تنوعاً فريداً في الاهتمامات والرغبات والفلسفات، وخيارات الحياة التي تتراوح بين النضال النقابي العنيف، والاهتمام بعلم الطيور أو تقديس الرياضة، وبين النشاط السياسي متعدد التوجهات، والإدمان على الخمر مروراً بعزف الموسيقى والصيد النهري.

إن سنتين أو ثلاث أو أربع في المدارس العادية أو دور المعلمين ليست لها القدرة على معادلة وتساوي الطباع، ولله الحمد. ورغم ذلك فقد وُلد إجماع على إبعاد التلفاز عن صالة الدرس، أو استخدامه الضئيل جداً. صحيح أن وسائل الإعلام لا تُسهل استخدامها ضمن مجموعة: إن وجود دزينتين من التلاميذ متكدسة أمام شاشة قطرها 56، 67، أو 70 سم ليس مثالياً لرؤية جيدة للصورة، ولا لتسجيل الملاحظات، و لا يسمح بالحصول

علـى أقل درجة من النظام، فمـن جانب المدرس نجـد أن إعداده كمُوجه ومُحاسـب وفاعل يجب أن يتحقق بطريقة تجريبية، دون رقابة ودون وجود كتب مرجعية في هذا المجال، إضافة إلى أنه يجد صعوبة في أن يعرض على طلابه ساعة أو ساعتين من المشاهدة في الأسبوع، بينما يقوم هو بمشاهدة التلفاز من ثلاث إلى أربع ساعات في اليوم.

والأمـر الأهـم هـو أن المدرسـين يُبـدون الكثـير مـن الحـذر والشك بمستجدات مجتمع التسلية المكونة من الرفاهية واللذات الآنية والانتهازية والتُرهات... كل المكونات التي لا تتماشى مع المؤسسة التعليمية التي لا تقدر إلا العمـل والجهد، وهكذا فعلينـا أن نرى العلاقات بـين المدرسة والرائي علـى أنها علاقـات تضاد أكثر من كونها علاقات تنافـس، إنه تفرع ثنائي بين نظامين مختلفين مـن السلطة والواجبات يتخوف منه ميشيل بانيه في مجال الثنائيات الجدلية المتضادة.

تعارض بين المتعة والقسر

بينما تُقـدر المدرسة الجهد والعمل والنظام، يعتمد الرائي على قضايا كالمتعـة والاسترخـاء والهروب من الواقـع والبحث عـن السهولة، وعلاقة الطفل مع الرائي تعود أكثر إلى العاطفة والآنية أكثر من ارتباطها بالذكاء والتفكير.

تعارض بين المعرفة والخيال

إن كل نظريـة التعليـم مبنية على نقل المعرفة، إنـه نقل هرمي يحصل خطـوة خطوة عبر مراحل من التحصيل، وتعتمـد كل إستراتيجية التعليم

المدرسي على البرامج الدقيقة والثابتة: يجب الحصول على معلومة ما أولاً للانتقال للَّتي تليها.

ويُستهان بمتع اللهو لحساب قيم التعليم، ويُحصر الخيال والتخيل والصورة أو يُتخلص منها عند التلاميذ الكبار لحساب المعرفة والتعلم والعلم.

تعارض بين اللغة المنطوقة ولغة الصورة

تظل المدرسة مؤسسة للتعليم والتعبير والتواصل الشفوي المبرمج والمكتوب، إنها تشجع طريقة لغة الخطاب، وخاصة الاستماع وتشجع كذلك التبادل، وهكذا يسهل علينا وضعها كنقيض للرائي الذي يمثل طريقة للتعبير وحيدة الاتجاه تفرض الصورة، والسهولة دون خطاب بليغ، وسلبية المشاهد الذي لا يطلب منه أن يعبر عن أي شيء.

تعارض بين السلطة والاستقلالية

يهدف التلفاز إلى إرضاء الجميع في الوقت الذي يتوجه فيه إلى شريحة كبيرة من الناس بآن واحد، وليس بإمكانه ـ خلافاً للمدرسة ـ أن يختص وأن يتأقلم مع حاجات كل منهم، وأن يُراعي السرعة الخاصة بكل طالب، وأن يتوقف ويكرر ويعود إلى الوراء، إنه يعرض صُوره وإضاءته وتدفقه وآنيته واندفاعه، ويستسلم لرغبة المشاهد الحرة: ما أشاهده يهمني ويسليني إذاً أتابع مشاهدته، أو أنه عديم الجدوى إذاً فأنا أُقلب المحطات!

إن كل هذا يُعاكس الطبيعة المنظمة الانسيابية المبرمجة للمدرسة، حيث يحاول التعليم أن يزود بنفس المعلومات للجميع من خلال فرض تمارين تطبيقية تهدف إلى التحقق من المعلومة، وتسمح باستدراك الضعف

والتأهيـل، وتثبيت المعرفة، وهكذا يمكننـا استيعاب ما ينقله ستار وسلطان مـن أن 80.7% من المدرسـين يعتقدون أن المعلومات التـي يقدمها الرائي هـي مبعثرة إلى حد كبير، فـلا يستطيع الطفل الاستفـادة منها، لا توجد منافسة بين المدرسة والرائي: فكل منهما يعمل حسب آليات مختلفة تماماً، وأهـداف متباعدة جداً: إن خلاف الشكل والمضمون المذكور آنفاً يدل على الغـيرة، ففرانسـوا ماربيه يؤكد قطعياً: «ليس علـى المدرسة أن تخاف من التلفاز أو أي فعالية ترفيهية لأنه لا يمكن الاستغناء عنها، ولكن يجب عليها أن تقـوم بعملها وعملهـا فقط ولكن بشكل كامل، وليس عليها أن تتدخل في منافسة مع أول منافس مُزوّر يقف أمامها».

حتـى إذا لم تكـن المدرسة قـادرة على فعل كل شيء، ولكـن الثابت هو أن المهتمـين بشؤون الأطفال لهم دور وعليهـم مسؤولية يجب تحملها أمام التسـاؤلات الكبيرة التي يطرحها الرائي، إن الموقـف الساذج الذي يتبناه العديـد من المدرسين، والذي يتخلص بتحويل «مشكلة الرائي» على الأهل بدعـوى أنها جزء من الحيـاة الخاصة للعائلة هو بنظرنـا لا يمكن قبوله. فالمدرسـة تتدخل دائماً في الحياة العائليـة، ولا تمتنع بدافع عدم تعكيرها عن إبداء الملاحظـات، وتقديم النتائج المدرسيـة والعلامات والشهادات، وتقـوم أحياناً بهتك الحيـاة العائلية عن طريق فرض الوظائف المنزلية، والنفـاق الذي يجمع بين الود والمرارة والعنـف الذي تمارسه المدرسة ضد الأطفـال، إذاً لمـاذا ترفض المؤسسـة التعليمية أن يدخـل الرائي الصف الدراسي، وأن تهتم به؟

كيـف يكون ذلك؟ سنحاول أن نعطي بعض إمكانيات الحل في الفصل الأخير من الكتاب.

كان يا ما كان

في زمن الآمال العريضة

الرائـي المدرسـي ـ أ ـ في العـرف المعمول به: استخـدام التعليم لبرامج المذياع والتلفاز الحكوميين الفرنسيين.

ف. مسموع مرئي (تعليم ـ).

6) المذياع والتلفاز التعليمي بخلاف الهيئة الفرنسية للإذاعة والتلفاز لا يمكنهما تجاهل هذه الأولوية المهمة للتعليم: الوصول إلى التصور، وذلك إذا لم ترغب في تشكيل عقول تحكمها الشهوة.

(م. فوكيه في التعليم الحكومي، 27 نيسان 1967م الصفحة 32).

7) فعـل ما لا يستطيع المدرس فعله، بشرط تركه يفعل: ما عليه أن يفعل هذا ما يبدو لي أنه المبدأ الوحيد الذي يسمح بتعاون مثمر بـين التلفزيون التعليمي والتعليـم التقليدي. (ر. ماس في دفاتر التعليم ـ شباط 1969م، الصفحة 38)

8) إن استقبـال برامج التلفاز لا يريد أبداً طرد المدرس من صفه. بل على العكس فالتلفاز يتطلب وجود المدرس، ولكن بدور مُعدل قليـلاً لا يمكـن الاستغنـاء عنه. (ج. دوبـوا في دفاتـر التعليم، شباط 1969م. الصفحة 47.)

بول فولكيه. قاموس اللغة التعليمية. 1991م. PUF


الرجل: التلفاز
عبارة عن متعة
شخصية
المرأة: إنه يجعل
الإنسان أصمّ!
الرجل:
ماذا؟

«فوضى في الجسم وخطأ في التفكير يغذي بعضها بعضاً، هذا ما ندعوه بالخيال الحقيقي».
آلان (1868م - 1951م)، نظام الفنون الجميلة.

الفصل الثالث

الآثار الحسية للتلفاز

إن الفصول الأربعة التالية التي تعالج تأثيرات الشاشة الصغيرة على الأطفال حُصرت ضمن حدود بطريقة اعتباطية نوعاً ما، فمن العبث محاولة إقامة حدود واضحة بين ما يخص الجسد أو النفس أو المجتمع أو الثقافة، وإذا كنا قد تبنينا هذا الفصل، فإنما يعود ذلك لأسباب عملية، وليس بقصد تبني نظرة مجزأة للطفل، وسيقوم القارئ عفوياً بإعادة توحيد هذه المجالات الأربعة، لعلمه بأن كل واحدة منها تتفاعل باستمرار مع الأخرى، وأن الموضوع الذي نعرضه يمكن له أن يوجد في هذا الفصل أو ذاك من الكتاب غير الذي وضعناه فيه..

بعد توضيح هذا، يجب توجيه تحذير آخر قبل تهيئة محاكمة التلفاز، وانعكاساته على صحة الأطفال، من خلال تسليط الضوء على هذه الوسيلة الإعلامية، فإننا سنكتشف بالتأكيد بعض الأمور المرعبة التي كان من الممكن ألا ترى النور، لنحاكم بمنتهى العدالة الآثار المدمرة الممكنة للتلفاز، فيجب علينا أن نخضع وسائل الإعلام الأخرى، وكل نشاطات الأطفال لنفس إجراءات التحقيق، وسنلاحظ عندها أن المطالعة واللعب والمدرسة والرياضة ربما تحتاج إلى مُساءلة أيضاً..

حبل القنص الإلكتروني

لابد أن كل بالغ راشد قد لاحظ هذا التناقض العجيب: فالصبي المزعج دائم الحركة، الذي يذهل أهله بنشاطه المفرط، وخياله الجامح، وطاقته غير المحدودة، وإبداعه الكامل في وضع والديه ومعلميه و طبيب الأطفال في حالة استنفار، هذا الصبي تجده عندما يجلس أمام التلفاز ساكناً بلا حركة، وكأنه جهاز تنفس اصطناعي قُطع عنه التيار الكهربائي. وأحياناً يكون هذا مصدر راحة كبرى للأشخاص المذكورين، مُسترخٍ كلعبة مصنوعة من قطع القماش، وبنظرات ذابلة، يبدو أن كل حركة يقوم بها ستكلفه جهوداً جبارة، إن تقلب مزاجه الأسطوري الذي يجبره على تغيير فعالياته باستمرار، قد استبدل بسكون مُقلق، إن مستطيلاً وامضاً استطاع فجأة أن يُشبع رغبات عجز العالم بأسره عن إرضائها، تستطيع الأم الآن و بمعجزة أن تتفرغ لاهتماماتها دون أن تجد صغيرها الهائم بين ساقيها، ويمكن للمدرسين في المدرسة أن يتحاوروا بسلام، و يسود صمت مُريب في صالة انتظار عيادة طبيب الأطفال.

موقف جميل جداً ليكون صادقاً حقيقياً!

لابد من التأمل في حالة التنويم المغناطيسي هذه التي يقع تحت تأثيرها مشاهد التلفاز، إنه تأثير مُريب جداً لأنه يغير سلوك الطفل المعتاد، وسندرس أولاً أسبابه العضوية ثم آثاره.

آلة تحرض موجات ألفا

لندخل قليلاً في طب الجهاز العصبي، فدماغنا له مستويات مختلفة من النشاط يعبر عنها إصدار موجات ذات طول معين يمكن تسجيلها على

جهاز تخطيط الدماغ الكهربائي، ودون الدخول في التفاصيل، فيمكننا أن نميز الموجات بيتا التي تمثل نشاط المخ في حالة الصحو، وموجات ألفا الأكثر طولاً التي تُميز حالةً وسطاً بين النوم والصحو.

ونحن نعرف بدقة الآن، وبفضل الأبحاث المُجراة، ومنها دراسات ميرلين وفريد إيمري من الجامعة الوطنية الأسترالية بأن موجات ألفا المشهورة تظهر بعد عشرين دقيقة من مشاهدة الرائي، وهذا بغض النظر عن محتوى ما يُشاهد، وكلما طالت مدة مشاهدة الرائي، كلما أصبحت الموجات أكثر طولاً، وإن النتيجة الأساسية لهذه الحالة الدماغية هي القابلية العالية لقبول الاقتراحات، وحساسية الشخص المفرطة للرسائل المُلقاة، وبقدر ما هي مُجدية الاستفادة من هذه الحالة، وتسخيرها في اليوغا والتنويم المغناطيسي لأعراض علاجية، بقدر ما هي خطيرة ويمكن لها أن تدفع الإنسان ليسلك سلوكاً سيئاً وربما مدمراً، وسنعود لهذه الفكرة في الفصل التالي عندما نتكلم عن العنف.

إشعاعات مؤذية

توجد حالياً شكوك كبيرة حول سلامة الإشعاعات الصادرة عن الشاشة الصغيرة وبانتظار ظهور أدلة لا تُدحض بشأن ضررها، فإننا ننصح بالابتعاد عن جهاز التلفاز، وباستخدام راشح (مصفاة) بين الشاشة والمشاهد، وألا ننام في غرفة الحكم فيها للتلفاز، أدلة غير كافية لتحذيرات مشابهة لتلك التي توضع على علب لفافات الدخان؟ رُبما، ولكنها مثيرة للقلق وتدفعنا إلى الحذر، وأن نتابع باهتمام تطور الأبحاث في هذا الموضوع.

التأثير على النوم

بداهــة يشاهد التلفاز مساءً، ومن ثم فإنــه يأكل من الوقت المخصص للنوم الذي نعرف مدى أهميته لتطور الطفل الجسدي والعقلي، وواضح أن المشاهد المُلتهَمة في ساعات متأخرة من الليل سوف تسبب تأخراً في النوم، وأحيانــاً أرقــاً حقيقاً عند المشاهــد الصغير، كلما كانــت عنيفة، عدائية، مخيفــة أو بكل بساطة مثيرة، وإذا كان مدمن التلفاز الصغير يستيقظ في الساعــات المبكرة من الفجر لئلا يفوته برنامجــه الصباحي المفضل، فإن الأمــر لا يحتــاج إلى محاسب كبــير ليحسب مقدار النقصــ الذي يصيب ساعــات النوم، هذه الظاهرة دُرست مــن العام 1979م في بلجيكا من قبل شارل كابو المختص بطب العمل والصحة النفسية.

ولكــن الخطــر الأكبر لا يكمــن في الناحيــة الكمية بقــدر ما هو في الناحية النوعية.

إننا نعرف اليوم أن خلال النوم العجائبي تحصل تطورات عملية النضج، وكذلــك التذكر، والحالــة هكذا، فبحســب رأي طبيب الأطفــال الفرنسي بيــير روابيه تسبب المبالغــة في مشاهدة التلفاز اضطرابــاً في هذه المرحلة مــن النوم، ويُظهر بيير لولور معتمداً على تخطيــط الدماغ الكهربائي، أن الموجات الدماغية والنظم التنفسي تضطرب عند النائم الذي تعرض قبل نومه لرؤية مشاهــد عنيفة أو مثيرة للعواطف، وتحصل هذه الاضطرابات أثنــاء الأحلام، ودون القدرة على التأكيد على خطــورة حقيقية للظاهرة، فبإمكاننا القول إنها مشبوهة، و خاصة عند شخص في أوج تطوره برأينا. وعلينا ألا ننسى أن المشكلات الليلية تؤدي إلى مشكلات نهارية، إن الشعور

بالتعب، ونقص التركيز، والكفاءات الضعيفة (ذاكرة، قراءة) التي يشكو منها العديد من المدرسين يمكن تفسيرها بالليالي القصيرة التي ينامها الصغار المدمنون على المشاهدة.

التأثيرات على البصر

شارل كابو المذكور آنفاً يذكرنا بأن القواعد الأساسية للصحة البصرية غير مُتبعة عند مشاهدة التلفاز، وكما يمكن لكل شخص أن يلاحظ، فإن الأطفال يقتربون كثيراً من التلفاز، وهذا يُجبر العضلات الهُدبية المسؤولة عن تحدب الجسم البلوري على القيام بجهد أكبر، وإن التعب البصري الذي ينجم عن ذلك يُضعف قدرة العين على تغيير قطر العدسة، وهذا قد يؤهب لحدوث خلل مزمن في الرؤية.

وإن الإنارة الخارجية غير الكافية يمكن أن تكون لها كذلك آثار سيئة على تأقلم العدسة الذي يصبح بطيئاً في العتمة.

فالحدقة تتوسع كثيراً وتسمح للإشعاعات التي يرسلها الجهاز بالمرور بحرية أكبر، هذه الإشعاعات التي لم تُثبت براءتها.

إن ضبط جهاز التلفاز له دور كذلك، فالصور العالية الإضاءة وإن كانت مرغوبة من قبل الناس، تضع الشبكية على المحَكّ، ويحصل نفس الشيء مع الألوان شديدة التميز التي يمكن لها أن تؤذي مخاريط الشبكية، إن التعرض الطويل للتلفاز يسبب أعراضاً معروفة تتراوح بين احمرار العيون والدُماع والشقيقة، مروراً بكل درجات التعب البصري والصداع.

الطفل كمستهلك للتلفاز

بعض الأرقام المتعلقة بمشاهدة الرائي

منذ عمر السنتين: يدير الطفل الجهاز بنفسه.

في عمر 3 سنوات: 50% من الأطفال يشاهدون التلفاز كل يوم في ألمانيا الاتحادية

من 3 - 7 سنوات: ساعة في اليوم.

من 8 - 13 سنة 1.5 ساعة: في اليوم.

بريطانيا

من 5 - 11 سنة ساعتان في اليوم.

12 ـ 14 سنة ساعة في اليوم.

فرنسا ـ قريبة من سويسرا

أقل من 7 سنوات: 1.5 ساعة في اليوم.

7 - 12 سنة: 2.25 ساعة في اليوم.

في الإجازات: 4 ساعات في اليوم.

800 ساعة في السنة.

وتوجد فروق واضحة في ساعات المشاهدة بين الشتاء والصيف، وبين أيام الدوام المدرسي والإجازات، وبين البنين والبنات.

هذه المعطيات مأخوذة من محاضرة للدكتور كارين بوتشي طبيب ملحق بإدارة الخدمات الصحية في قسم التعليم الحكومي في مقاطعة جنيف.

Locarno, Octobre 1990

قلة النشاط الجسمي والحركة

إن مشاهـدة طفل مدمن على الرائي فاقـد للحيوية والنشاط تنبئ أكثر من كل كتب المختصين الذين كتبوا عن الموضوع، مُرتخٍ، خائر القوى، وذائب في أريكـة تعبة، يستنشق هواءً فاسداً، يضيـع الطفل أجمل لحظات طفولته السعيـدة، إنه يعرض صحته للخطر عندما يكتفي بالإعجاب بعضلات بطله المفضـل بـدل أن يطور عضلاته الخاصـة به، إنه معجـب للغاية بالحركات البهلوانيـة لشخصياته المفضلة، ولكنه لم يتعلم كيف يتسلق على شجرة، إنه يُخـزن العنـف الذي يراه في مسلسلاتـه المفضلة بدل أن يعـبر عن عنفوانه الخاص من خلال منافسة أقرانه بشرف، إنـه يحلم بصورة خيالية لعوالم رائعة، ولكنه عاجز عن فهم سر الضوء في غابة في فصل الخريف، إنه يجمع عـوزه إلى اللياقة والقوة والنشاط وسرعـة البديهة والاستيعاب، إلى ضعف ذكائه العملي، إن استقلاب جسمه ضعيف، وينام قليلاً، ويتغذى دون نظام، ويهضـم بصعوبة، ويزيـد وزنه، إن نقص الهواء وعـدم التعرض للحرارة والـبرد والعوامـل الطبيعيـة يضعف مقاومتـه للأمراض، فخطـوط دفاعه المناعية ضعيفة، ونتائجه الدراسية سيئ، وعلاقاته مع الآخرين مُتردية.

هل هذه صورة مبالغ فيها؟ لا شك بأن هذه الآثار لا تظهر كلها، أو أنها لا يتزامـن ظهروها في وقت واحد، ولكن الأمر الأكيد هو أن أي نشاط غير مشاهـدة الرائي أصبـح غير مرغوب به، والرائـي وإن كان محتواه جيداً، فإنه لا يتعامل إلا مع جزء صغير جداً من الكائن الحي، والإنسان الذي هو في طور البناء المتمثل بالطفل، وإننا باسم الحفاظ على الإنسان وشخصيته نقـرع ناقوس الخطـر، إن الأطفال بحاجة لأن يتنفسـوا ويركضوا ويلعبوا،

وأن يكتشفوا العالم ويتعاملوا مع الأشياء ويلمسوها ويحسوا بها، ليطوروا كل الإمكانيات الكامنة فيهم، وإن أفضل المحطات التلفازية عاجزة تماماً عن القيام بهذه المهمة، إن لم تكن تسيء إليها.

إنّ هذه اللوحة الكارثية لا يرسمها خيال المؤلفَين بدافع أيديولوجي مُعاد للتلفاز، ولكنها مُؤكدة من خلال العديد من الدراسات، ديتيز وغورت ماكِر يشرحون في المجلة الطبية الأمريكية المعروفة بجديتها «طب الأطفال» أن كل ساعة مشاهدة إضافية للرائي في اليوم تسبب زيادة في الوزن تقدر باثنين في المئة. وفي المجلة «المراهقة» يعمم توكر هذا الرأي بخصوص الوضع الصحي العام للشباب، ويلخص كلامه باستخدام تعبير أحد مدمني التلفاز: «كلما ازدادت مشاهدتي للتلفاز نقصت رغبتي وقدرتي على ممارسة النشاطات العضلية والرياضية، وكلما قلت ممارستي لها زاد هروبي منها ولجوئي للتلفاز»، ورغم حذرنا من أن نلقي كل اللائمة على التلفاز، فإن هذه الدراسات وغيرها لا تدع مجالاً للشك بالنسبة لنقطة واحدة على الأقل يمكننا أن نعبر عنها كالآتي: «إننا لا ندري إلى أي درجة يمكن للتلفاز أن يُسيء، ولكننا متأكدون بأنه لا يفيد».

مشكلات كبيرة يمكن أن يسببها التلفاز

إن الآثار المذكورة حتى الآن ليست مذهلة. وأحياناً غير ملموسة دون الاستعانة بتجهيزات متطورة، وبعضها لا يحدث إلا على المدى البعيد، ومسؤولية التلفاز عنها قائمة ولكنها ليست حصرية، إن العلاقة السببية لم تُثبت قطعياً، رغم أن هناك أسباباً وجيهة تدفع للاعتقاد بوجودها. هذه المشكلات رغم كونها جدية لا يبدو أنها تثير قلق الأهل إلى حد كبير.

يشـك بعض الباحثين في مسؤولية التلفاز عن حدوث نوبات صرع، دون أن يحـددوا إن كان الأمـر عبارة عن استعداد لحصـول الصرع، أو مجرد حساسيـة زائـدة للمؤثرات الضوئيـة، أو نتيجة لنزاعـات عائلية، وهنـاك تساؤل عن دور محتوى المشاهد على تحريض حدوث النوبات.

إن مظاهر القلق الأكثر شيوعاً، والتي تبدو علاقتها المباشرة بالتعرض للتلفاز أكـثر وضوحاً، قد أثارت فضول العلمـاء، كونتور وومانيه وغيرهما حللـوا هجمات الجزع التي أحدثها عرضـ فيلم «طارد الشياطين»، وكانت استنتاجاتهم غير قابلة للنقاش فيما يتعلق بمسؤولية المشاهد عن حدوثها، ولكـن يمكن لأحدهم أن يعترض ويقـول بأن مطالعة كتاب مؤثر في جو من العزلة والإنارة الخافتة يمكن أن تكون لها آثار مشابهة.

بعضـ الكتاب مثل البريطانيين غولد وشيفر عام 1986م لا يترددان في اتهـام التلفاز بالمسؤولية عن بعض التصرفات الانتحارية، إن مبدأ التقليد المتهـم عدة مرات هو السبـب، لأن حوادث الانتحـار أو محاولات الانتحار تزداد بشكل ملحوظ خلال أسبوعين من عرض برامج بث تُظهر أشخاصاً ينتحـرون، والسؤال الذي يطرح نفسه بطبيعة الحال: هل من يُقدِمُون على الانتحار هم أشخاص لديهم استعداد للانتحار أم لا؟.

ومهما يكن يبدو أن التلفاز يؤثر بصورة مشبوهة على الناس المستعدين، ونحـن نعرف أن المراهقـين يشكلون بهذا الصدد مجموعـة معرضة لهذا الخطر خاصة.

هل يُوَلِّدُ الرائي تصرفات خاصة فيما يتعلق بالصحة؟

إذا كنـا لا نشك بأن مجرد مشاهـدة الرائي لا تساعد في الحفاظ على الصحـة، فيجب أن نطرح تسـاؤلات جدية حول المعتقـدات والمواقف التي

يمكن لوسيلة الإعلام هذه أن تخلقها لدى أطفال ذكرنا قبل قليل بقابليتهم الكبيرة للتأثر.

فالرائي يعرض باستمرار رسائل تتعلق بما يجب أن تكون عليه السعادة والصحة وراحة البال، سواء كان ذلك مباشراً عن طريق الدعاية («استعلموا هذا وسوف تشعرون بالتحسن») ، أو غير مباشر بعرض أنماط حياة محددة، فمثلاً تعتبر قيادة سيارة قوية بسرعة أكثر أهمية من مسير هادئ على ضفاف نهر، والوفرة والشبع تُعرض كفضائل بعكس الاعتدال والاكتفاء، وتوجد أدوية لكل الآلام، والصحة والمرض يبدوان نادراً في علاقة مباشرة مع خيارات حياة مسؤولة، وإنما كصراع بين قوى الخير والشر، ويعود النصر للخصم الذي يملك التقنية المتطورة، أو الأدوية الأكثر تطوراً، وهو عادة السلاح الأقوى أو الدواء السحري في إحدى صوره.

أما المنتجات التي تسوق لها الدعاية فلا تتميز عادة بضرورتها أو قيمتها الغذائية، السلع الغذائية المحلاة بالسكر درسها دراسة جدية كل من غولد بيرغ وغورن وجيبسون في مجلة من مجلات المستهلكين الأمريكان عام، لقد اختار الأطفال ما يتناولونه من السكر في غذائهم بحسب ما رأوه سابقاً في التلفاز (دعايات للأشياء المُحلاة أو معلومات غذائية). هذه الملاحظات لا تكفي بلا شك لإدانة التلفاز من حيث دوره في التغذية، ولكنها تؤكد بالمقابل تأثير الشاشة الصغيرة على سلوك الأطفال، وتبديه بطريقة غير مباشرة كوسيلة خطيرة للتلاعب بالأفكار وتكييفها.

وبالعموم تبين في العديد من البلاد (الولايات المتحدة، إنكلترا، فرنسا، المكسيك، البحرين) أن الناس يستقون معلوماتهم وخاصة المشوهة منها

خاصة، والمتعلقة بالتغذية والصحة من الرائي، ففي فرنسا تقرر الأكاديمية الطبيــة الوطنية وجود تأثير سيئ للتلفاز علــى تصرفات الطفل الغذائية. واعتماداً على طرق استقصاء مختلفة تصل مختصة التغذية وعلم النفس ماري واتيه إلى نفس الاستنتاج، ودراسات أخرى مثل تلك التي قامت بها هيــذر نورتــون في أستراليا تخرج من حيز الإعلانــات لتكشف التصرفات الخطــيرة التــي تُعرض في المسلســلات ذات الشعبية: التدخــين ومعاقرة الخمر والقيادة السريعة بدون استخدام حزام الأمان... إلخ.

العين، الأذن، الدماغ

تعب كبير

(...) بضــع كلمات حول خصوصية القــدرة على الإدراك الحسي عند الأطفال، وحول انعكاساته عند مشاهدي التلفاز:

1. إن العلاقــات بين الكلمة والصــورة، والتنقل الدائم بين المعلومة البصريــة والمنطوقــة تقتضي متطلبات كبــيرة: فعند الطفل في ســن روضة الأطفال يسبب عدم التوافــق بين المعلومة البصرية والسمعيــة تشتتاً في التركيــز، هؤلاء الأطفال هــم غير قادرين علــى إدراك سلسلتــين منسجمتــين ولكن منفصلتــين (واحدة سمعيــة والأخــرى بصرية). بالإضافــة إلى أن الانتقال السريع بــين الواحدة والأخرى غير ممكــن، إن المحطات الكلامية التي تفســر تتابع الصور لا يمكن ربطهــا بهذه الأخيرة، ويغدو العالم الحــي للتلفاز بالنسبــة للطفل ـ العالم المُسلي غالبــاً ـ لغزاً من الانطباعات، ولكن المحتوى بعمومه تصبح أهميته ثانوية، وتأخذ التفاصيل ذات الطابع العاطفي القوي الدور الأكثر أهمية.

2. إن تسارع الصور لا يسمح بالتريث على ظاهرة نفهمها، إن صعوبة حل الرموز تجعل الاستيعاب صعباً، ولو من وجهة النظر البصرية وحدها، إن عدم توافر التفاصيل الداعمة يجبر الطفل على إضافة شخصية تجعل الأمر المشاهد ذا معنى (وتخطر ببالي هنا عملية ضبط الصورة) ولكن ليس لدينا الوقت الكافي للتفكير حتى نلجأ إليه، ولذلك إلى كليشات جاهزة، وهذا يؤدي بدوره إلى تقوية التفكير المعتد على الأفكار المسبقة.

3. إن سرعة تتابع الصور يُجبر العديد من الأطفال على التركيز الكامل على مجريات الحدث حتى لا يفوتهم شيءٌ؛ لحظة بلحظة. وهذا متعب جداً، ولذلك نلاحظ أن الأطفال يعودون للعب بعد زمن محدد بين «رضعتين» من التلفاز، ويغدو التلفاز هكذا موزعاً للصور، فإذا سُجل تتابع الحبكة التلفازية في مخيلة الطفل، وحصل أن كانت هذه الحبكة دون نهاية، وهذا يحصل غالباً، فإن هذه الحبكة تبقى غير منتهية في خياله. (...)

رودولف بوكمان، صيدليتك في بيتك، كانون الثاني 1993م.

دُرست ظاهرة تناول المشروبات الكحولية بكثير من الاهتمام في العديد من الدراسات، ومنها دراسات ريشتاريك وفيربالك وآلين عام 1983م في الولايات المتحدة، تُعرض على مجموعة من الأطفال تتراوح أعمارها بين 8 و 11 سنة مشاهد يحتسي فيها أبطال المسلسل الخمر، وعلى مجموعة أخرى مشاهد لا يوجد فيها شرب خمر، أما المجموعة الثالثة التي استخدمت كمجموعة محايدة للمقارنة لم تشاهد التلفاز بكل بساطة، وكان على

الأطفال أن يختاروا مشروباً بعد ذلك، فأبدت المجموعة الأولى ميلاً واضحاً لاختيار مشروب كحولي، ودراسات أخرى تشير إلى أن أكثر الناس استهلاكاً للكحول هم الذين يشاهدون التلفاز لفترات أطول، أما توكير الاختصاصي بشؤون المراهقين الشهير فلا يتردد بالتأكيد على أن اليافعين الذين لا يشاهدون التلفاز كثيراً يتمتعون بصحة أفضل، وأنهم أكثر توازناً من الناحية العاطفية، و أنهم أكثر ذكاءً وأقل تعقيداً، وخاصة أقل تعرضاً لإدمان المخدرات والكحول، الأمر الذي يجب أن ندركه كالعادة هو وجود علاقة سببية بين الأمرين، وفي أي اتجاه (إن عدم مشاهدة الرائي تسبب صحة أفضل، أو أن الصحة الجيدة تبعد الإنسان عن الرائي). ولكن ما هو ثابت بالمقابل، أنه لا توجد دراسة واحدة ـ على حد علمنا ـ تشير إلى وجود علاقة إيجابية بين الصحة ومشاهدة الرائي.

هل للتلفاز أثر سيئ على الصحة؟

لنخاطر بالابتعاد قليلاً عن أوساط العلم الحرفية، ولنحاول للحظات أن ننطلق في رحلة اكتشاف دون مظلة الدراسات الدقيقة التي يجريها الاختصاصيون المعروفون في الجامعات الراقية.

ما نظريتنا؟

التلفاز يؤذي الصحة بطبيعة برامجه، فهو يُرينا بدون كلل أن العالم من حولنا خطير، وأن جارنا ينتظر اللحظة التي ينقض فيها علينا، و لغة السلاح هي السائدة دائماً، باستثناء الأوقات التي نستعين فيها بنجوم العروض المسرحية لجمع مبالغ من المال، ومساعدة ضحايا الكوارث الطبيعية أو الحروب الغبية أو الأمراض المستعصية على العلاج، وسواء

تعلق الأمر بالأخبار مهما كانت جودتها، أو بخيال المخرجين الأكثر موهبة، يبدو الإنسان وكأنه لعبة في أيدي قوى الشر، ويبدو عجزه جلياً للعيان، ويزيد الطين بلة موقعنا السلبي والمستسلم أمام هذه الصور التي تُنومنا مغناطيسياً، ماذا بإمكاننا أن نفعل نحن المشاهدون البسيطون ضد الألم والمعاناة والموت، وليس بيدنا سلاح سوى جهاز التحكم عن بعد الذي يسمح لنا بالتقليب إلى محطة أخرى تُرينا أهوالاً أخرى نقف أمامها عاجزين عن فعل أي شيء؟ و إذا وقعت أنظارنا على مشاهد أكثر تشجيعاً، فهي عادة ليست في متناول اليد: القوة والغنى والسلطة السياسية والجمال الجسدي والشباب الدائم والمنعة، كل هذا في مناخ أكثر رحمة ولكن بعيد المنال، أما الطيبة وحب الآخرين فيمثلها الصالحون، والهدف هو جعلنا نئن تحت وطأة أوضاعنا الحالية المتزعزعة، من خلال موكب الصعوبات المادية، والصعوبات في العلاقة مع الآخرين، والمآسي الجسدية الصغيرة والكبيرة وغيرها، منذ عدة سنوات ظهرت بوادر حركة على هامش الطب الرسمي، في منتصف الطريق بين العلم التجريبي والباطنية، تجمع بمرح بين الأبحاث المتطورة، والتقاليد الروحية الكبيرة، وتطرح تساؤلات حول الإنسان في جوانبه المختلفة، ضمن هذه النظرة «الشمولية» تبدو الصحة على أنها تعبير عن عالم المادة والمحسوس وعالم الأفكار والعواطف بآن واحد، وتوجد لدينا في الوقت الحاضر أسباب وجيهة للاعتقاد بأن الأفكار يمكن لها أن تؤثر على عمل الجسم، وعلى بدء المرض وسيره والشفاء منه، وتثبت الدراسات كالتي أجراها الطبيب جيرالد إيبشتاين جدوى بعض الأفكار غير المنطقية كالتصور والخيال في تحريض آليات الشفاء.

مبدأ تأثير «الدواء الغُفل» معروف منذ عام 1894، وهو يقوم على إعطاء المريض مادة محايدة غير دوائية تشبه الدواء (سكر أو نشاء أو ماء مقطر له المظهر الخارجي للدواء). إن هذه المادة البديلة «الغُفل» تعطي في كثير من الأحيان أثراً قريباً من أثر المادة الفعالة بمجرد الإيحاء بالشفاء، بالمقابل يعرف الأطباء والمعالجون ورجال الدين... إلخ. الذين يرافقون المرضى المصابين بأمراض خطيرة أن الأفكار السوداء والضغينة والتشاؤم يمكن لها أن تحرض حدوث الأمراض وتفاقمها، وربما تُسرع نهاية الإنسان، وهنا يمكننا أن نتكلم عن الأثر الضار أو المؤذي للصحة. أبحاث أخرى حديثة (آلان روبرتس، لاشو، ولومُوان) تؤكد بقوة وجود هذه الظواهر التي يمكن أن تطال حتى 70% من الحالات، فنحن نعرف الآن أن دماغنا يفرز مواداً ثابتة الوجود، ومحددة الهوية تماماً، تؤثر على جسمنا بشكل مادي محسوس: حالة الكظر والأدرينالين والنورأدرينالين والكورتيزول.... إلخ.

في زيورخ وصلنا حقاً

لماراتون مشاهدة الشاشة الصغيرة

المسابقة سوف تكافئ ذاك أو تلك التي ستمضي أطول وقت أمام التلفاز دون نوم.

ولكن المتسابقين هم أكثر مقاومة من المتوقع.

كان من الممكن أن نسمي اللعبة «آخر من ينام هو الفائز». ومبدؤها بسيط: على المتسابقين أن يشاهدوا التلفاز أطول مدة ممكنة، والفائز سيستلم كما توقعتم جهاز تلفاز.

وكلما أرادوا الخروج من صناديقهم فعلى المتسابقين أن يطلبوا الحكم ليضبط على ميقاتيته الوقت الذي قضوه خارج صناديق

المشاهدة، ويحق لهم ساعتان راحة في اليوم، وخلال هاتين الساعتين يمكنهم أن يأكلوا و أن يريحوا سيقانهم، وأن يستحموا أو يناموا قليلاً، وبحسب أقوال منظمة المسابقة إيفا زورير فإن المشاركين في الماراتون لا يخاطرون: «إنهم يصمدون بشرب عصير الفاكهة أو أكل الخضار، وهي أشياء طبيعية، فلقد منعناهم من تناول الأدوية أو المنشطات، فلابد لهم في النهاية من النوم بطبيعة الحال».

بدأت المسابقة يوم الجمعة في الساعة الرابعة عصراً، وفي مساء يوم الأحد في الساعة الثامنة مساءً كان ثلاثة ما يزالون صامدين: أنتونيا مينيغ وستيفان ليدر وميشيل شلابفر، «إذ استمروا في صمودهم حتى الساعة التاسعة صباحاً عندما يفتح المركز التجاري أبوابه، فمن الممكن أن تُوقف المسابقة بقرار يتخذه حكم المباراة». ويخشى المنظمون أن يصاب المتسكعون بالذعر عند مشاهدة المتسابقين الصفار وقد أصابهم الإجهاد والإعياء بعد خمس و ستين ساعة من مشاهدة التلفاز؟ «تماماً» تجيب إيفا زورير. بيير غروجان، مقتطفات من مقال نشر في المجلة اليومية الجديدة «نوفوكوتيديان»، في عددها الصادر في 20 شباط 1994م.

الفائز هو الشاب ستيفان ليدِر، وعمره 18 عاماً من مدينة لاجنتال، وقد أُعلن فوزه بعد استسلام أنتونيا مينيغ للنوم بعد مرور 64 ساعة و16 دقيقة، وكانت الساعة الثامنة وست عشرة دقيقة صباح يوم الإثنين!

ولتبسيط الأمر قليلاً، يكفي أن نعلم أن مشاهد إيجابية تُنشط آليات شفاء والحماية، وتُفعل دفاع الجسم، بينما تُضعف الأفكار السوداء قدرة جسم على المقاومة.

ولنعد الآن إلى الطفل والتلفاز، فرغم أننا لا نستطيع أن نثبت الأمر قطعياً، ولكننا نراهن على حدوث تدهور شامل للحالة الصحية لهذه الشريحة العمرية بسبب رؤية انهزامية للحياة من خلال مشاهد تحط من قيمة الإنسان، إذا كان لابد من اللجوء لإنسان آلي فائق القدرات حتى يحل السلام، فهذا يعني أن الإنسان لا يتقن سوى إشعال الحروب، وإذا كان كائن فضائي هو الوحيد القادر على محاربة الجريمة المنظمة، فذلك لأن سكان الأرض سيئون بفطرتهم، وإذا كانت قمم الدول المتسلطة والغنية يمكنها أن تسمح بالعيش الرغيد والحب والسعادة، فذلك لأننا محكوم علينا بالبؤس والحرمان، وإذا كان من ينبري لتخفيف آلام هذا العالم لابد أن يكون مبعوثاً من الله، فذلك لأننا كبشر أصبحنا في حزب الشيطان.

وإننا كمدرسين لم نلاحظ قط تحسناً في مقاومة تلاميذنا للأمراض، وإننا نتساءل بجدية إن لم يكن للتلفاز أثر ضار بالصحة عام ومستمر، يفسر غياب التحسن المتوقع بسبب تقدم الطب، والشروط الصحية وظروف الحياة التي كان يُتوقع لها أن ترفع المستوى الصحي للناس.

حتى لا نتسرع بالاستنتاج

عند مطالعة دراسات العديد من المؤلفين، ومقابلتها بملاحظاتنا الخاصة، يمكننا أن نؤكد حقيقة واحدة على الأقل: لا يُسدي التلفاز أي خير للصحة.

ويبدو هذا الموضوع أكثر ثبوتاً كلما صَغُرَ السن الذي نتعرض فيه للمشاهد المتلفزة، حيث تظهر آليات التحكم لدى الإنسان أقل كفاءة في

التصدي للأذى المتوقع للشاشة الصغيرة، ولكننا مقتنعون بأن الاستسلام غير جائز مهما كان شكله، إنه الإذعان السلبي بالنحيب (لأمر هكذا، إنه هذا الزمان، آه لو...) دون التحرك لفعل شيء، والمبني على سياسة الأمر الواقع، بالمقابل فإن معركة الشرف (لا نريد هذا عندنا، يجب أن تمروا فوقي لتحقيقه. عاش الإنسان آلاف السنين دون تلفاز) ليست هي الرد المثالي، لأنها تقوم على عزلة متكبرة، وما هو أخطر أنها تعتمد على رفض للواقع لا يقل انحرافاً عن الشر الذي ندعي محاربته، إن الطريق الوسط المعتدل هو الأصعب ولكنه بنفس الوقت الأفضل ويمكن سلوكه. ونحن ندعوكم لاكتشافه في الباب الأخير من هذا الكتاب.

«أين ينتهي الكسل؟ وأين يبدأ التأمل؟»
جان دوتور، دوسان

الفصل الرابع

التأثيرات العضوية للتلفاز

لنتخيل للحظات وجود مجمع للحكماء يضم مختصين بالتربية وعلم النفس وطب الأطفال وعلم الاجتماع وغيرهم يعكفون على دراسة الآثار المدمرة لاختراع شيطاني قام به جوهانز جنسفليش المدعو غوتبنرغ في القرن الخامس عشر الميلادي (الطباعة):

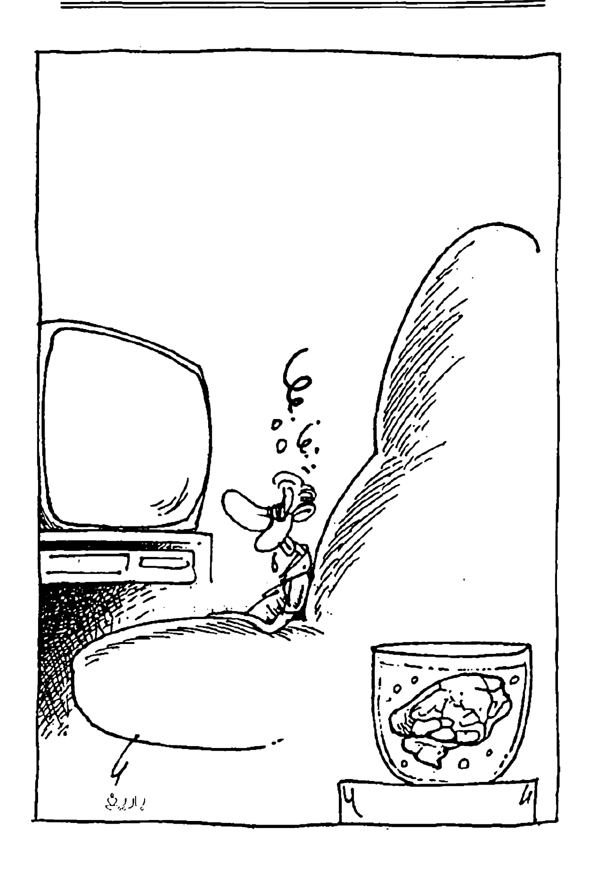
- الكتاب تلك الثمرة الملعونة للمطبعة يشار إليه بإصبع الاتهام باسم الحفاظ على الصحة العقلية للأطفال الذين يخضعون لهذا النوع الجديد من الاستبداد.
- النمو المخيف لنصف الكرة المخية الأيسر مركز اللغة والفكر التجريدي.
- ضمور الجهاز الحركي المأساوي بسبب عدم الحركة الناتج عن المطالعة، والتراجع المرضي للإحساس بالمكان والزمان بسبب العزلة والانكماش على النفس والتفرغ لهذا الكتاب المؤذي.
- الارتباك المحزن في أغنية رولان، والجنس الصريح في نشيد الأناشيد الذي يعرض على عقول الشباب دون احتياط.
- توقفوا! لا تضيفوا المزيد، وامنعوا انتشار هذا المنتج الخبيث، وليَحيِ الناسخون وشعراء الموسيقى حُماة المبادئ الحقيقية والتطور الأصيل للكائن البشري.

إن إلقـاء نظرة فاحصة بعد مرور خمسة قرون على اكتشاف الطباعة، والأثـر الذي تركته يسمح لنا بالتبسم على المشهد المذكور أعلاه، مع العلم بأننـا لا نستطيع إيقاف عجلة الزمن من جهة، ومن جهة أخرى فالإنسان لا يعبر إلا عن ذاته من خلال اختراعاته، إن العجل يستخدم في المصفحة وسيـارة الإسعاف، والمطبعـة تضع تحت تصرف النـاس كلمات ضغينة أو محبة، و الإنجيل كتاب بحمد الله، وماين كامف هو من أودلف هتلر كذلك لسوء الحظ، إن هذه النسبية في الأحكام يجب ألا تغيب عن أنظارنا عندما ندرس تأثير التلفاز على نفسية الأطفال، وذلك لسببين على الأقل: أولهما: أن الرائـي وسيلة إعلام حديثـة العهد، وأن ثورة السلـوك التي سببتها لم تنتـهِ بعد، وهي أبعد من أن تنتهي؛ و ثانيهمـا: أن من الصعب جداً فصل الأسبـاب والآثـار، وعزل العوامل المؤثرة الأخـرى إلى جانب الشاشة مثل: الوسط المحيط والثقافة... إلخ.

ويجـب الابتعاد كذلك عـن البساطة، فهناك باحثـون يقرعون ناقوس الخطر، ويجب أن نُصغي إلى تحذيراتهم دون أن نقع في فخ مواقف انكماش علـى النفس باردة، أو مواقف خوف وجزع. تجاوز الإنسان اختراع السكك الحديديـة لأنه قبلها، ولأنه قبـل كذلك الجهود المبذولـة ومراجعة الذات الضرورية لجعلها دقيقة وآمنة.

الآثار النفسية المرتبطة بفعل مشاهدة الرائي

لقـد أثرنا سابقاً موضوع الآثـار المادية للجلسات الطويلة أمام الشاشة الصغـيرة، وبدون شـك فإن كل مؤثر مادي ينعكس علـى الناحية النفسية للإنسان، ولنذكرها بسرعة.



إن انعـدام الحركة يؤدي إلى عواقب مهمـة لم تدرس إلا قليلاً من قبل الباحثـين، وهذا مثير للاستغراب، إنها تراكـم التوتر في الجهاز العصبي والذي لا يجد منفـذاً ليتحرر، ففي اللعب مثلاً، يتحقق التوازن بين الإثارة الحسيـة أو الجسديـة والعقل مباشرة، ففي الهـواء الطلق يستطيع الطفل أن يستفيـد بأفضـل الوجـوه مـن الأدرينالين الـذي أفـرزه جسمه، وحتى اللعب الاجتماعيـة الجماعية الدقيقة التنظيم تسمح بحدوث هذا التوازن الصحـي، بإمكاننا أن نضـرب بقوة على الطاولة ورقة لعـب رابحة (لعبة الورق)، أو أن نرمي زهر النرد بقوة إيمائية، ونقوم بحركات لجلب الحظ، وشتـم شريك اللعـب الذي يقـودك إلى الإفلاس في لعبـة المونوبولي، وأن نخربش بسرعة وغضب في لعبة قاموس الرسوم (Pictionary) وأن نجيل النظـر في كل الاتجاهات، أو أن نتوارى خلسـة لنصل إلى المربع الأخير في أيسر اللوحة.

إن مشاهـدة الرائـي لا تسمـح بإعادة التـوازن الدائم بـين العواطف والحركـة، إننا لسنـا بحاجة لإحصائيـات معقدة أو دراسـات في المخابر لملاحظـة هـذه التأثـيرات علـى الأطفال في محيطنـا، إن درجـة تعبهم و قابليتهـم للاستثارة وعنفهـم وعدم الروحي الحركي لهـا علاقة مباشرة بتراكم التوتر غير المنفس أمام الشاشة الصغيرة.

الشاشة الصغيرة كبديل عن النشاطات الأخرى

دون أحـكام مسبقة عن الآثار الضارة للرائي، يجب علينا ملاحظة أنه يحـل محل النشاطات الأخرى التي نعـرف أهميتها لتطور الطفل الصغير مـن الناحية العاطفيـة النفسية وتطور ذكائه، إن أبحـاث بياجيه أظهرت

بوضوح الأمر الجلي الـذي يعرفه كل الآبـاء والمدرسـون الجديرون بهذا الاسـم، إننا نتعلم من خلال التعامل مع الأشياء والتفاعل معها، إن الذكاء المبني على الاستهلاك السلبي للمشاهد التلفازية وحدها والصوت المرافق لها يبقى ناقصاً، مهما كانت مضامينه رائعة.

كيف يؤثر الرائي على الأطفال؟

أربع طرق لتمثل وتبني العنف ينقلها الرائي عَدّدهَا المركز العالمي:

- التقليد: يجد الطفل نفسه في شخصية يقلد تماماً سلوكها، أو يتبنى آراءها، وهكذا يصبح أسلوبه في التقليد إرادياً.
- الاندماج: إن آلية التمثل والتقليد تحصل بدون وعي، فالطفل لا يختار قدوته.
- التشجيع: إن مشاهد معينة تحرض الطفل على القيام بأعمال ذات علاقة بها.
- التقبل: إن الطفل الذي تأقلم مع تكرار مشاهدة أعمال العنف، لن يستتكرها بعد ذلك، وسيعتبرها طبيعية.

المصدر: مجلة العلم والحياة، شباط 1994م.

والحـال هكذا، فالوقت الذي يقضيه الطفل أمام الرائي يزيد من سنة لأخرى، ولاشيء يسمح في الوقت الحالي بتوقع عكس هذا الاتجاه، إن بعض الأرقام التي تذكرها الطبيبة كارين بوتشي العاملة في الصحة المدرسية في مقاطعة جنيف تدعو إلى التأمل:

بحسب رأي ماريبه، فإن طريقة المشاهدة الأولى هي الوحيدة التي تكون على حساب النشاطات الأخرى التي يفترض أنها أكثر نفعاً، أما الثالثة فهي نتيجة لغياب جو يشجع تألق الطفل، والثانية فإنها لا تسيء لتطور الطفل، ويمكن لها أن تزيد كفاءته من خلال السماح له بالتخلص من «الوقت الممل»، ومن خلال تعليمه القيام بعدة نشاطات بآن واحد، مثل إصغائنا للمذياع عندما نقود السيارة، والذي لا يمنعنا من الانتباه للطريق، ولا من التهيئة للمحاضرة التي نذهب إليها، ولا من التفكير بعلاقاتنا مع الآخرين.

الافتتان بالرائي

العديد من الكتاب (جاك بيفتو، بروتو لوساتو، ليليان لوزيتا، إذا لم نرد أن نذكر سواهم) يؤكدون وهم محقون على آثار الرائي كمنوم مغناطيسي، ودون الدخول في تفاصيل عصبية مملة، فيكفينا أن نعرف أن النظر الثابت على ذبذبات مهبط كهرطيسي (علينا ألا ننسى أن الصورة التي تظهر على التلفاز تنتج عن نقطة وحيدة تجوب الشاشة بسرعة فائقة، وأن استمرار خيال هذه النقطة على الشبكية هو الذي يعطي الصورة) يُولد حالة نصف وعي يترجمها بث موجات ألفا في الدماغ، وهكذا نصبح أكثر قابلية للتأثر بالإيحاء، وغير قادرين على القيام ببعض الوظائف مثل التحليل، أو بكل بساطة إيقاف التلفاز عن البث، هذه الظاهرة تطال خاصة الأطفال صغار السن الذين يسبب عدم نضجهم الفكري والعاطفي زيادة ضعفهم أمام التلفاز، وسنعود لهذا الموضوع عندما نتكلم عن ظاهرة العنف.

تأثير يشبه الإدمان

نقارن أحياناً الرائي بمادة مخدرة، وبالمراحل المختلفة من الإدمان التي تنجم عنها: ومضة متعة هائلة، أو رغبة في استعادة ذلك الإحساس، وضرورة زيادة الجرعة للحصول على التأثير البدئي، واستهلاك متزايد في مقابل متعة متناقصة، وأخيراً اعتماد كلي مع وجود ظاهرة حرمان عند الفطام.

إن التشابه بالتأكيد ليس مجانباً للحقيقة، ويستحق أن نركز عليه على الأقل من الناحية المجازية.

ولكن يجب أن نبقى حذرين، فبوسعنا أن نقول الشيء نفسه بخصوص نشاطات إنسانية أخرى مثل الرياضة ومنافسات المحترفين والموسيقى...... وحتى القراءة! وكي نبقى في مجال المقارنة مع المخدرات، فلنذكر أن ظاهرة الإدمان لها علاقة بالمدمن بقدر ما لها علاقة بتوفر المادة المخدرة، فكثير من الناس يشربون الكحول، ولا يصبح معظمهم كحوليين، وهذا يقودنا إلى تحديد مجموعات هي أكثر عرضة لإدمان التلفاز، وإلى دراسة الوسط الاجتماعي الاقتصادي، والتطور العاطفي، والعوز التعليمي التي يمكن لها أن تخلق مشكلة مأساوية، يصبح إدمان التلفاز بجانبها أداة تسلية مُسالمة.

كل الدراسات أو جلها تتفق على نقطة، تناسب مشاهدة الرائي عكساً مع المستوى الاقتصادي والاجتماعي، وإذا وفرنا على أنفسنا جهد الاطلاع على الأرقام، واكتفينا بخلاصات هذه الدراسات نجد مايلي: إن المستهلك الكبير للرائي يعيش في وسط فقير قليل الثقافة وغير مشجع كفاية، وضمن

عائلـة متفككـة، إن حل مشكلة المبالغة في مشاهـدة الرائي يمر عن طريق إصلاحات سياسية تتعامل مع أسباب الظاهرة وليس نتائجها، وبانتظارها يقترح مارييه أن نترك التلفاز لهـؤلاء التُعساء بما أننا لا نستطيع أن نُعيد لهم آباءهم.

التلفاز والمطالعة والملكة الإدراكية

«إنهم لا يقرؤون، ولا عجب فهم مُسمرون طيلة الوقت أمام الرائي»

«لقد فقدوا كل قدرة على التركيز: شيء طبيعي وكيف لهم ذلك بحضور الرائـي، وتقليـب المحطـات، والدعايـات الإعلانيـة، والمشاهـد المتقطعة القصيرة... إلخ».

«إننا نقوم ببناء جيل من الأميين»

نسمع هذا النُواح من أفواه المدرسين والآباء واختصاصي علم النفس والعديـد من الاختصاصيين بشـؤون الطفولة، وكلنـا أو جُلنا عزف على هذا اللحن.

في يـوم من الأيـام، وبقناعات متفاوتة، متوجسـين أحياناً خوفاً من أن نجـد أنفسنا في صـف المتزمتين مـن كل الاتجاهات، الرافضـين للتغيير، والمتمسكين بجنون «بالقيم المبدئية».

وعلـى العكس، فإننا أحيانـاً خضعنا لإغراء اتبـاع الدُرجة (الموضة)، وتخلينـا عـن راية الآباء المورثـين للقيم، وقبلنا الأمر بُعجـره وبُجره كي لا يشعر الملاك الصغير بالحرمان.

ولكـن اطمئنوا فمهما فعلتم، فأنتـم تعكسون التناقض العام في الموقف مـن وسيلـة إعلام مـا زالت غـير معروفـة تمامـاً، إن مواقعنـا و أفعالنا المتناقضـة لا تختلـف عن آراء الخبراء والباحثـين في هذا المجال، من بين مُفرقـي الصفوف العنيفين في هجومهم على الرائي باسم الثقافة، يمكننا أن نذكـر رونيـه دوبو، وكتابـه ذا العنوان الكارثي «الجيـل الأخير للكتابة» وبرونـو لوساتـو وكتابه «ابن الشاشـة» فكل منهما ـ وبناء علـى أدلة مختلفة ـ يُحملـون التلفـاز مسؤوليـة كبـيرة في عدم قـدرة الأجيـال الصغيرة على الكتابـة، وبالاعتماد على الأرقام واستطلاعات الرأي والتقارير يؤكدان أن مهـارات الأطفال في التعامل مـع النصوص قد انخفضـت بشكل مأساوي خلال السنوات الأخيرة، والأكثر إثارة للقلق يكمن في الجدب الذي أصاب القدرة علـى التفكير الخلاق لـدى مدمني الرائي، وبسبـب عدم قدرتهم علـى الفهم العميـق، ومحدودية رؤيتهـم على المدى القصـير، وتجردهم مـن الخلفية الثقافيـة، وعلوقهم في اللحظة الراهنـة والنظرة السطحية، وعجزهـم عـن بناء فكر ناقـد متماسك، نجد الأطفال الذيـن تغذوا على حليب التلفاز ينحدرون على الهضبة الزلقة نحو الهمجية.

لا يمكننـا ـ كمـا يفعل البعض ـ أن نتجاهل هـذه الكلمات ببساطة، إن هذه التحذيرات يجب أن تحمل على محمل الجد، وتتطلب إجراءات وقائية أثنـاء القيام بتربية الأطفال، وسنعود لهذا الموضوع في الفصل الأخير من الكتـاب، ولكن الخوف المُربك ليس هو الحل، ويجدر بنـا أن نتقبل أشكالاً جديدة من التفكير والسلوك تُولد تحت أنظارنا، وسوف نشرح هذا التطور المطلوب في الفصـل المتعلق بالنواحي الاجتماعيـة للموضوع، في نظرنا إن الخطر الحقيقي والوحيد يكمن في محاولة رفض نوع من الثقافة باسم نوع

آخر منها، وبشيء من المبالغة: القراءة أو الرائي، والمكتوب أو الصورة، والثقافة أو الإحساس، والخطاب أو التعجب، والتحليل أو السطحية... إلخ. إن حرب المبادئ التي بدأت بين الحداثة الكاذبة التي تريد أن تتخلى عن التراث المكتوب، والحنين إلى ماضٍ يُدَّعى بأنه جميل، ماضي الحضارة الإغريقية اللاتينية، إن هذه الحرب لا جدوى منها، مثل كل الحروب.

وحتى نبقى في موضوعنا حول آثار الرائي على الأطفال، فلابد من أن نستوعب حجم هذه الظاهرة، لا يمكننا أن ننكر أن الرائي رغم أنه ينمي قدرات فكرية أخرى، ولكنه يسيء لقابلية اكتساب التفكير المنطقي، والتمكن من الكتابة، بقي علينا أن نعرف إلى أي حد يتحمل التلفاز وحده هذه المسؤولية، لأنه توجد عوامل أخرى مؤثرة وخاصة تفكك الأسرة وغياب الأب (ظاهرة حللها بشكل جيد جداً كل من س و م. نباتي أو رغي كورنو). ولنعبر عن هذا بطريقة مُبسطة، فإننا نقول إن غياب الوالدين يدفع إلى مشاهدة التلفاز الذي يلعب دور الأم الحاضنة، وهكذا تضعف قدرة الأطفال على التواصل مع الآخرين، وهنا أيضاً نعود لمشكلة الأسباب والنتائج، هل الرائي هو الذي غير المجتمع؟ أم أن التغير الاجتماعي هو الذي سبب إدمان الرائي؟

ظاهرة النموذج المُصَغَّر أو التصميم

إنه برونو لوساتو الذي يعرض هذا التعبير، وهو ترجمة حُرة لظاهرة «الاتجاه السائد» (Mainstreaming) وهي نظرية طورتها مؤسسة أنينبرغ للاتصالات في فيلادلفيا في تقرير لها عن الرائي في نهاية السبعينات، ما هذه الظاهرة؟

برونــو لوساتــو يقــول: «لا يقبــل الجمهــور التعقيــد والفــروق الدقيقة والمراجعة والاعتراف بالجهل والتأمل العميق في القضايا المهمة، فهو يريد تصميمــاً أو نموذجــاً ثابتاً، يمكنــه التعرف عليه بسهولــة مثل شخصيات وديكـور برنامجه المفضل، بألوانها الفامقة، هــذا التصميم يبنيه التلفاز؛ ويفــرزه بطريقــة لا شعوريــة كل من يشــارك في صنع التلفــاز، كما ينسج العنكبوت بيته.

هذا التصميــم يتضمن حزمة مُلونة من الأفكار المُسيطرة أو الهامشية (...)، ولكنــه لا يمثل الواقــع (...) إنه عبارة عــن (...) خارطة مُشوهة متجانسة مُلونة مُهَندَسَة، وتمثل مواقعاً غير موجودة!»

الكتاب والرائي: ليسا أعداءً إلى هذا الحد

(...) تُقــدم المنافســة الشديدة التــي يمارسهــا الرائي كتفسير لتراجع المطالعة: يفقد الكتاب فرصته أمام التلفاز المستهلك للوقت.

إنها فكرة تأخذها دراسة المؤسسة الوطنية العليا للتربية والتعليم INSEE بعكس المقصود منها، تعلمنا هذه الدراسة أن الناس الذين يشاهــدون الرائي لمــدة ثلاث ساعات على الأقــل في اليوم لا يقرؤون كتباً أقل من الذين يشاهدونه أقل من ساعة!

إن الوقــت المأخوذ من قبل الرائي يكون على حساب قراءة أشياء أخرى غير الكتاب، «وذلك لأننا إما نحمي مطالعة الكتب بالمحافظة عليهــا، أو أن مطالعتنا للكتــاب قليلة جداً بالأصل ليتمكن التلفاز من الحد منها».

وعموما فإن القراء والقراء المكثرين من القراءة نجدهم بين الفرنسيين الذين يمارسون عدة نشاطات، الذهاب إلى المسرح والمتاحف والحفلات الموسيقية، إنه منطق التراكم الذي يُسيطر: كلما كانت حياتنا الثقافية زاخرة، كلما زادت مطالعتنا للكتب...

«تراجع القراءة» مقال كتبه فرانسوا دو سينغلي وكلود تيلو وفرانسواز دومونتييه، في مجلة الاقتصاد والإحصاء، رقم 23 الصادر في حزيران 1990م نقلاً عن كريستين غران في «عالم التعليم» أيار 1991م.

كفاءات جديدة بفضل التلفاز؟

في الاتجاه المعاكس لمهاجمي التلفاز يوجد مؤلفون مثل: ميشيل فيريه وخاصة فرانسوا ماريه لا يترددون بالدفاع عنه.

الأول يشير في كتابه «الثقافة العمالية» إلى أن الرائي يحافظ على «العلاقة الأكثر مُساواة (...)، والأكثر حرية كذلك (لأنه بإمكان من يريد أن ينسحب أن يفعل ذلك)، والأكثر انفتاحاً (لأن من يريد أن يقول كلمته يستطيع ذلك)».

أما الثاني فإنه ينقض تعسف مصادر «الثقافة»، التي تشكل بنظره مجموعة من التقاليد البالية التي يهاجمها الرائي، إن بلاهة الأطفال المزعومة التي يسببها الرائي هي غير موجودة إلا في خيال المدافعين عن نمط حياة عفا عليها الزمن، باسم رؤية محدودة للذكاء تحصره في كفاءات بالية مصدرها الكتب، يجب على العكس تشجيع الطفل على

مشاهـدة التلفـاز، لتحضيره للتمكن من التعامل مـع نظام اتصالات أكبر أداء، ولتدريبه على الخروج من عصر «الأحادية» التي رُبيت عليها الأجيال السابقـة، والتي تمنعها من القيام بعدة مهمات بـآن واحد، ومن العمل في أجواء الصخب، ومن التواصل بطرق مختلفة في نفس الوقت... إلخ.

قيـم كُنا سابقاً نبجلها، وكانت تعني قمـة الأداء يجب أن نتخلى عنها، ومنهـا: التركيز الذي يحصرنا في فعالية واحدة، ويُفوت علينا إدراك أهم مـا يحصـل، والسكوت الـذي لم يعد من الذهـب، والخيـار الوحيد الذي يجـب الالتزام به، بينما يمكننـا برؤى جديدة أن نقلب المحطات، وأن نغير البرنامج قبل أن نُضيع أمسيتنا.

إن التمسـك بالأشـكال التقليديـة للثقافـة واللبـاس والهمس المحترم للـكلام والأساليب المتكلفة... إلـخ. ليست بالنسبة لماريبـه سوى واجهات خارجية، ولا يمكنها أن تعبر عن قيم فكرية أو روحية.

أما رتابة الزمن فيجب علينا أن نتخلى عنها وبسرعة، لحساب تقنيات حديثـة مثل جهـاز التحكم عن بعد، والفيديـو، فتسريع الزمـن أو إبطاؤه يسمـح بتغيير صحـي لبُنيته الإدراكية، بالمـرور على ما ليسـت له أهمية، والتوقـف عند الأمور الأساسية، وإنجاز عـدة أعمال بآن واحد إذا لم يكن المشهـد مثيراً للاهتمام لحـد يُجبر على التركيز عليه فقـط، إن الأطفال الذيـن اكتشفوا منذ طفولتهم الباكرة هـذه التطورات الحديثة يستطيعون في نهاية المطاف امتلاك كفاءات لا نملكها.

أخـيراً يلاحظ ماريبـه بالمناسبـة أن الأطفال الذين يدمنـون الرائي، ورغـم أنهم يبـدون ضعفاء أمام المكتـوب، ولكنهم يظهـرون أميتنا، إنهم

يتقنون أكثر منا استعمال الأجهزة، ويكتشفون بسرعة كل خصائصها، في الوقت الـذي نكتشف فيه بصعوبة واحدة أو اثنتـين من تلك الخصائص، ونحن نحمل دليل الاستعمال بيدنا!

إن الحجـج التـي يقدمها مارييــه جديـرة بالاهتمام لأنهـا تذكرنا في الوقـت المناسب بنسبية المفاهيم مثل الذكاء، والصحة العقلية، والأعراف الثقافيـة والتطور... إلخ. وبالمقابـل فإنها لا تجبرنا على التخلي عن حسنا الناقد لمحدودية وسيلة إعـلام تحاول أن تحتل مكاناً على حساب الوسائل الأخرى، وأن تطغى بشكل غير مقبول على كل أشكال الحياة، وسنعود لهذا الموضوع في الفصل التالي.

العنف والتلفاز: الدليل الدامغ في الملف

إذا كان الشك لا زال مخيماً على آثار الرائي على ذكاء الأطفال، فإن بحوزتنـا الآن فرضيـات قوية تتعلق بالعنف المرتبـط بمشاهدة المشاهد المصـورة، إذا لم يكـن الرائي قادراً علـى تطوير الذكاء ـــ إن الرائي لا يجعـل الطفـل أكثر غباء كمـا أن الاستمنـاء لا يسبب الطرشـ ـ ولكنه لسوء الحظ يوقظ اندفاعات العنف النائمة في أعماق كل مشاهد، وهذا لسببين على الأقل.

أولاً: عـدم القدرة على تفريــغ الشحنة العاطفيــة المتراكمة بالتسجيل العفـوي لمشاهد لا نتحكـم بها، والذي يسبب تأجيجـاً لا يُنكر للعنف الذي سيظهر بطريقة فظة عاجلاً أم آجلاً.

العنف اليوم

في مجتمعاتنا المعاصرة، يُعبر عن العنف بطقوس أصبحت أكثر تعقيداً، السباق على تحصيل الشهادات، والمطامع الشخصية، والاستهلاك التفاخري، والمنافسة الاقتصادية، والإبداع الفني، والفكاهة، والرياضة.... وكل هذه الفعاليات تمارس ضمن مؤسسة خاصة لها قواعدها وتسلسلها الإداري: المدرسة، والشركة، والمركز التجاري.

ولكن هذه الممارسات التي أصبحت أكثر تعقيداً وتقنيناً تسبب اضطرابات مثل الشدة النفسية، وفعاليات أقل «شرعية» تظهر متحدية نظاماً اقتصادياً أو بيروقراطياً ساحقاً: الإستراتيجيات غير المؤذية الصغيرة (التغيب والخداع والغش)، و«الجريمة الاقتصادية» (سرقة الأشياء المعروضة، وخداع شركات التأمين والغش الضريبي)، وتخريب النفائس، كل هذه المظاهر في زيادة واضحة بينما يميل العنف الجسدي (القتل، والاعتداء بالجرح والضرب) إلى الانخفاض في أوروبا رغم المخاوف المبالغ بها لبعض الأوساط الإعلامية (باستثناء المدن الكبيرة حيث زاد العنف الجسدي في العقود الأخيرة، ولكن دون الوصول إلى مستويات القرن الماضي).

وما يدعو للاستغراب هو الشعور الشخصي بعدم الأمان في الوقت الذي يزيد فيه الأمان فعلياً، إن العنف المادي والجسدي قد استُبدل جزئياً بعنف خيالي رمزي يسمح باستمرارية الأسطورة المؤسسة (قتل قابيل لهابيل).

فرنان وتيه، عالم اجتماع، مجلة المعلم، أيلول 1991م.

Revue Educateur, September 1991.

ثانياً: لابد أن نكون سيئي النية لندعي أن العنف لا يُجل في البرامج والأفلام والمسلسلات... إلخ، التي تُعرض على المشاهدين، والبرامج المخصصة للأطفال لا تشذ عن هذه القاعدة، وتحوي كماً من المشاهد العنيفة الذي لا يمكن مقارنته بالعنف الموجود بوسائل الإعلام الأخرى والألعاب والنشاطات، إننا نضرب ونقتل وندمر ونفجر ونبيد ونعذب بكثرة لا نشاهدها في الحياة اليومية لأطفالنا (رغم أن بعض أشكال العنف المستور موجودة). عندما يصل صدى صوت التلفاز لأسماع الكبير الذي أوكل للرائي مهمة شغل صغيره، فإنه لا يسمع غالباً سوى صرخات الرعب، وعويل الحقد، وأصوات انفجار قذائف الأسلحة المتطورة، وصفير الصواريخ، وطقطقة الرشاشات، أما الأطفال البؤساء فتقع نظراتهم الحائرة القلقة على مدن مخربة، وسجناء تُساء معاملتهم، ووحوش قبيحة في خدمة قوى الشر.

ويردون علينا، بأن هذه الأمور ليست سوى محض خيال لا يمكن تحقيقه يستطيع الأطفال حمله على هذا المحمل، بالتأكيد ولكن النماذج القصصية والمواقف النموذجية توحي بإصرار أن اللجوء للقوة يحل كل المشكلات، و أن الحل هو دائماً «حل جذري»، إذا سمحتم لنا باستخدام التعبير، إن أسوأ ما في الأمر لا يكمن في التمييز بين الحقيقة والخيال. فلا يوجد تلفاز بدون عنف؛ لأن طبيعة العنف تشاهد عن بعد.

إفريقيا؟ صراع قبلي، ومرتزقة يعيشون على أمجاد الحقبة الاستعمارية، والمجاعات، أمريكا اللاتينية؟ تجار مخدرات وحرب عصابات، نيويورك؟

لصوص وأسـواق تجارية تتفجـر، ولا يهمنا عن بركان سـوى معرفة عدد الضحايـا الذين سقطـوا عند اندفاعـه الأخير، وما زالت صـورة الطفلة الكولومبيـة التي تحتضر في الوحـل النازل من مرتفعات نيفـادو دل رويز حاضـرة في ذاكرتنا، كل هذا موجود بالطبع، ولكن رفع قيمة العنف وقيمة المعانـاة والضعـف البشـري، وتشجيع الحقـد الأعمى لا بد لـه أن يغير في النهاية نظرتنا للعالم مـن حولنا، إن التعامل مع الآخر المبني على الخوف لا يمكـن له أن يُولد السلام والتعاون، ومـن نافلة القول إن نؤكد أن الطفل هو الأكثر عرضة للتأثر بما يرى، وخاصة إذا كان يتلقى هذه الرسائل وهو في حالة تشبه التنويم المغناطيسي المذكورة سابقاً.

هل هي آثار قابلة للقياس؟

العلمـاء الذيـن لا يكتفـون بالانطباعـات العامة وضعـوا بروتوكولات تجريبيـة مختلفة ليظهروا بالأرقـام العلاقة بين الرائـي وظاهرة العنف عند الأطفال.

وقـد يكـون من المفيد بهـذه المناسبـة أن نقوم بجولـة منهجية صغيرة لنفهم قيمة وجود التجارب «المخبرية».

يجـب أن نُذكر أولاً كما يفعل كل الباحثين الأمينين بأن ظروف التجارب مهمـا حاولـت أن تعكس الحقيقـة فإنها تبقى غير مطابقـة للواقع، ولذلك وجب علينا أن نكون حذرين جداً عند استخلاص النتائج، وكذلك علينا ألا يغيب عن بالنا أن «العلوم الإنسانية» لا تشابه تماماً «العلوم الدقيقة». فعدد العوامـل التي تتدخل في السلوك الإنسـاني تبقى غير محددة وخارج حدود السيطـرة مهما كانت الاحتياطات المتخذة والإجراء المُتبع. وأخيراً فإن من

أشد الصعوبات تفريق المسؤولية المباشرة (لأن الأطفال الذين يشاهدون الرائي أصبحوا عُنُفاً) عن العلاقة الممكنة (الأطفال العُنُف يشاهدون الرائي أكثر من غيرهم)، وعن العاقبة (لأن الأطفال عُنُفٌ فإنهم يشاهدون الرائي). ومن الأمثلة البسيطة جداً في الحذر المطلوب أمام استنتاجات الباحثين الدُعابة الآتية: «هل تعرفون السبب الأول للطلاق؟ الزواج!». يجب أن يكون لدينا نفس الشك فيما يتعلق بالإحصائيات التي يمكننا من خلالها أن نستنتج الشيء وعكسه، إن لم نكن مزودين بمعارف أساسية، بإمكاننا توضيح هذا الخطر من خلال الإحصائية الآتية: «دراسة (هـ) التي تقوم بها المؤسسة (ي) (مثلاً في مدينة أمريكية مشهورة) الاختصاصية بالأبحاث حول الإدمان أكدت أن 96% من حالات الوفاة التي سببتها جرعة زائدة من الهيروين، كانت عند أشخاص رضعوا من أمهاتهم مرة واحدة على الأقل خلال السنة الأولى من حياتهم». هذه الإحصائية الصحيحة بحد ذاتها لا تسمح باستنتاج نتائج محتملة إلا إذا قارنا المعطيات بمعطيات مجموعة شاهدة، فإذا بقيت النسبة نفسها عند الناس الذين لا يتعاطون الهيروين، فلا يمكننا بطبيعة الحال أن نستنتج أي شيء بخصوص دور حليب الأم في الوفاة من جرعة الهيروين الزائدة.

إن هذا التوضيح لابد منه قبل أن نطلع على بعض الأبحاث التي أُجريت حول موضوع العنف المتعلق بمشاهدة الرائي من قبل الأطفال، وذلك إذا أردنا أن نتجنب الوقوع في فخ العلم الكاذب.

الأبحاث والنتائج حول ظاهرة العنف

إن التساؤل المطروح حول تأثير المشاهد العنيفة على مشاهدي التلفاز ليس حديثاً: فمنذ 1916م، صنفت دراسة فرنسية السينما «كمدرسة للانحطاط

والجريمــة». إذا كانت هذه العبارة المختصــرة تجعلنا نتبسم اليوم، خاصة إذا فكرنــا بالمشاهــد البريئة لأفلام تلك الحقبة، ولكنهــا تشعرنا بضرورة إعادة النظر والتفكير الرصين بالتغير الذي طرأ على مجتمعاتنا.

كانــت أُولى الدراسات المجراة على ظاهرة العنف أمريكية، ثم أجريت دراســات في بريطانيــا، وأخــيراً في دول أوروبــا الأخــرى، ومعظمها تبقى متأرجحــة في استنتاجاتها، رافضةً أن تُلقــي باللائمة كلها على التلفاز في الزيادة المتوقعة عند المشاهدين صغار السن.

ولذلك فإننــا سوف نصل إلى استنتاجاتنــا الخاصة من خلال دراسة العناصر المهمة لهذا الملف.

أولاً: هــذا الرقــم المجرد الــذي تذكره مجلــة تربويــة أمريكية في عام 1985م: «(...) يشاهــد الطفل الأمريكي العادي 18... جريمة قتل قبل أن يُنهي دراسته الثانوية». والسؤال الذي يظهر على السطح مباشرة هو:

لــماذا؟ لماذا هــذه «670 جريمة قتل، 15 حادثة اغتصــاب، 848 شجاراً، 419 تبــادل إطــلاق نار أو انفجاراً، 14 عملية خطــف، 11 حادثة سرقة تحت تهديد السلاح، 8 حوادث انتحار، 32 عملية خطف رهائن، 27 مشهد تعذيب، 18 مشهــد تعاطــي مخــدرات، 9 حــوادث رمــي نفس مــن خلال نافــذة، 13 محاولة خنق، و 11 مشهداً لمعارك حربية (...) المشاهد التي أحصتها المجلة الأسبوعية لوبوان Le Point عن محطات التلفاز الفرنسية خلال أسبوع؟

قبــل أن ندعي شــرح أو تفسير أي شيء لدى الطفــل، لا يمكننا تجاهل هذه المشكلة الفلسفية: لماذا يجد الشر والمعاناة والدناءة هذا الصدى عند الطفل الذي ندعوه اعتباطاً بالحكيم؟

إنه ليس من حق مُؤلِفَي هذا الكتاب أن يعطوا جواباً لكل سؤال يخطر ببال أحدنا، ولكن وضع الطفل في ظرف عام حيث المنافسة، والصراع العنيف بهدف السيطرة، والاصطفاء الشديد، والعنف على كل المستويات (السياسية والاقتصادية)، والشدة النفسية، والخوف من الفشل (انتحار طلاب المدارس في اليابان)، وتبجيل النجاح و«العراك» («إنه رجل مكافح، أو مندفع بجموح») يتم تقديرها كمُثُل عُليا. ومن قبل من؟ إن لم نكن نحن الكبار؟ لا شك في أنه نوع من السذاجة أن نخلي أنفسنا من المسؤولية، ونحاكم الأمر كقضاة ولنضيف المزيد من التشاؤم نريد أن نحدد أن الطفل ليس بريئاً تماماً، وأن الشر يجذبه أحياناً أكثر من الخير ... تناقض تعرض له المدرسون والآباء في يوم من الأيام، ولنعود إلى صلب الموضوع يجب علينا أن نركز على الأبحاث المجراة في المخابر، دون أن نهمل الجانب المصطنع للحالات المذكورة.

جهاز الفيديو كوسيلة مضادة للعنف!

(...) كالكثير من الآباء لست ضد التلفاز من الناحية المبدئية: فأنا أحاول أن أتعايش معه، وأندفع نحو كل ما يُنشر في المكتبات والمجلات حول مضار وفوائد الشاشة الصغيرة المتعلقة بأبنائي الصغار. إنه من الصعب أن تكون حكماً في المباراة بين سيغولين روايال (سئمنا من الأطفال الذين يقلبون المحطات طوال الوقت) و فرانسوا ماريه (دعوهم يشاهدون التلفاز). من المستحيل الفصل في الموضوع لأن الحجج المتناقضة والقطعية يقدمها المختصون من الطرفين: «العنف في الرائي يؤدي إلى العنف في سلوك الأطفال» وبالمقابل «ليس لمشاهد

العنف في الرائي أي أثر يؤدي إلى العنف في سلوك الأطفال» بل يمكنها على العكس أن يكون لها أثر مُفرِغ صحي».

وهكذا فقد بينت فلسفتي الخاصة، إن الاغتصاب الجماعي لفتاة ضالة مدمنة على الهيروين من قبل عصابة من أصحاب الرؤوس المحلوقة في مقبرة سيارات في دوسلدورف (ألمانيا)، أو المجزرة بمنشار الشجر لعائلة من طائفة المورمون يقوم بها رجل بين الحياة والموت في عشية عيد جميع القديسين في مدينة سولت ليك (إنني أخلط الأشياء قليلاً، ولكن الفكرة العامة موجودة). حسناً فأنا لا أظن صراحة بأن هذه الأمور جيدة لنفسية أطفالي الصغار الهشة، ومن يدري ربما تكون مؤذية لأدمغتهم القابلة للتأثر، وكذلك ولكي أحميهم من اللقاءات السيئة على المحطة الخامسة والسادسة فإنني أتحرك.

إنني أستأجر أشرطة فيديو «للأفلام العالية الجودة المنتجة في هوليوود» في مراكز VO (الحصول عليها ليس سهلاً ويحتاج لمتطوع لجلبها؛ ولكن العناء يكمن في إعادتها قبل إغلاق المتجر المزاجي). إنني أقوم بكفاح ملحمي بمساعدة جهاز الفيديو المبرمج لتسجيل تسع فترات بث خلال 18 شهراً، ولكن أنسى دائماً تسجيل الفيلم الوثائقي التعليمي الجذاب على المحطة السابعة. ويساعدني في ذلك أصدقائي المزودون بالكابلات في المقاطعات المجاورة.

إن هذه الفعالية تضع الإنسان تحت شيء من الضغط النفسي، ولكنها تستحق العناء، فقد وصلت إلى إضعاف التلفاز الذي لم ينجح بإيقاع أبنائي في شباكه.

في عام 1961م درس باندورا (الولايات المتحدة) وغيره سلوك أطفال مع لعبة تدعى «دمية بوبو» Bobo Doll بعد مشاهدتهم للعنف على الرائي أو غيره، وكانت استنتاجاتهم واضحة تماماً: إن العدائية لدى الأطفال الذين شاهدوا المشاهد العنيفة كانت أكبر منها لدى الأطفال الذين لم يتعرضوا لهذه التجربة، وهناك ملاحظة جديدة بالاهتمام: كان العنف الذي أبداه الأطفال تجاه اللعبة أكثر شدة، كلما كانت همجية المعتدي في البرنامج المشاهد موضع تقدير.

لجأ بيركوفيتش لنفس الأسلوب في نهاية السبعينات لدراسة العنف عند الأطفال الآخرين في الولايات المتحدة وبلجيكا، وهناك كذلك كانت النتائج غير قابلة للنقاش: كانت العدائية الجسدية والقولية أكبر عند الأطفال الذين شاهدوا أفلاماً عنيفة، مقارنة بتلك المشاهدة لدى الأطفال الذين تابعوا مشاهد عادية محايدة، وبحسب علمنا فإن بيركوفيتش كان من أوائل الذين أظهروا أن العناية التربوية تؤثر على درجة العنف عند الأطفال الذين يتعرضون لنفس المشاهد، ولكن لابد لنا من أن نخفف من حدة هذه الملاحظات فكما يقول هوزمان: «لاشك أن تعريض الأطفال لرؤية العنف في فيلم أو برنامج تلفازي في أجواء المخبر الخاصة يزيد من احتمال تصرفهم بعدائية بعد هذه التجربة».

إن المرحلة التالية هي دراسة تأثير المشاهد العنيفة على المدى البعيد، خارج النطاق المصطنع للمخبر، وفي الحياة اليومية للأطفال، إن أبحاث بلسون المجراة على 1565 صبياً في مدينة لندن تتراوح أعمارهم بين 12-17 سنة (في عام 1978م) تبقى مثلاً يحتذى، وتظهر بوضوح وجلاء

حقيقة زيادة السلوك العدائي عند الصبية الأكثر تعرضاً من ناحية الكم للمشاهد العنيفة، إضافة لذلك يثير بلسون احتمال وجود علاقة بين درجة عنف الشباب، وطبيعة البرنامج المعروض، ويبدو أن هذه العلاقة تزداد قوة، كلما كان العنف « ملموساً» وغير مبرر ومغلفاً بالمكر والخديعة، بينما يكون العنف في الصور المتحركة وأفلام الخيال العلمي أقل ضرراً.

كلما زاد عدد أجهزة التلفاز في بلد زاد القتل فيها

جرائم القتل المرتكبة في كندا و الولايات المتحدة زادت بنسبة 93% بين دخول التلفاز في عامي 1950م و1970م، وفي جنوب أفريقيا حيث لم يسمح بدخول التلفاز حتى عام 1975م، نلاحظ وجود نفس الظاهرة: بعد مرور 12 عاماً ازدادت نسبة القتل 130%. هذا ما أظهرته دراسة أجراها براندون سنتروول في جامعة واشنطن.

المصدر: مجلة العلم والحياة، شباط 1994م.

وبحسب رأي بيلسون فإن آلية «رفع حرج» هي التي تفسر الانتقال إلى الفعل، فالحواجز المعتادة التربوية و الاجتماعية تنهار تحت تأثير السيل المستمر من المشاهد العنيفة التي يرفع التلفاز من قيمتها.

وبإمكاننا أن نعدد الأمثلة التي تؤدي إلى استنتاجات مشابهة، ولكن الأهم هو اكتشاف ظروف نشوء هذا العنف، وهنا نجد الدور الرئيس الذي تلعبه الصحبة العائلية والتربوية التي يعبر عنها بجلاء كل من إيرونز وهيوزمان.

«كلما قل اهتمام الأهل بالطفل وقل حنانهم، قل اقتداؤه مَثَلَ أحد الأبوين، وزاد عنفه في المدرسة، إضافة إلى أن العقوبات ــ وخاصة الجسدية - التي يفرضها الوالدان تصبح مثلاً يحتذى في السلوك العدائي لدى الأطفال».

هذه النظرة تؤكد تعقيد أسباب ظاهرة العنف، ودون أن ندعي الحسم في المسؤولية النسبية للتلفاز، فبإمكاننا أن نؤكد أن التلفاز ليس سوى عنصر في لوحة اجتماعية تلعب فيها عوامل مثل الحب والتربية (التي يصعب قياسها «علمياً») دوراً حاسماً.

عمر الأطفال وجنسهم

يظهر من خلال الدراسات أنه كلما كان التعرض للعنف مبكراً، كانت الآثار أكثر سلبية، وذلك بسبب عدم نضج الطفل الذي نوهنا إليه سابقاً، إلى جانب كون البنات أكثر مقاومة من الصبيان، والأمر يستحق أن نتوقف قليلاً عند هذه الملاحظات البسيطة؛ لأنها تسلط الضوء على أثر العوامل الأخرى التي يمكن لها أن تولد العنف.

إننا نعرف منذ زمن طويل أن الأطفال الصغار يتعلمون بالتأثر من جهة وبالتقليد من جهة أخرى، وفي عمر لم يتمكن فيه المنطق والتفكير والحزم بعد، يبدو منطقياً أن خطر تعرض الطفل لمشاهد عنيفة لا يمكن السيطرة عليه، فإذا كان منغمساً في جو من العدائية عدة ساعات في اليوم، فيمكننا أن نراهن بثقة على أن الطفل سيعبِّر بطريقة ما أو أخرى عن العواطف المتراكمة، إن الأحداث الجديدة المتعلقة بجرائم ارتكبها أطفال وتشابه

أمثلة عرضها التلفاز تؤكد هذه الفرضية، أما المقاومة الأفضل التي تبديها البنات - دون استبعاد الأسباب المتعلقة بالمورثات - فيمكن تفسيرها على الأقل جزئياً بتركيز أضعف على تقدير القوة كوسيلة لحل النزاعات في نظامهن التربوي.

الآثار «غير العنيفة» للعنف التلفازي

ركز الباحثون كثيراً في أبحاثهم على العنف المولد للعنف، أما الأبحاث المجراة على النتائج الأخرى لمشاهدة الصور العنيفة فهي قليلة.

ليليان لورسا الاختصاصية بعلم الاجتماع، والعاملة كمديرة أبحاث في مركز الأبحاث العلمية الوطني الفرنسي CNRS، هي دون شك الأكثر دراسة (فيما يخص فرنسا) للتجربة التلفازية عند أطفال مدارس الحضانة. وقد اهتمت خاصة بالقلق الذي تبعثه مشاهدة رسوم متحركة عنيفة مثل غولدوراك، بيومان أو فرسان زودياك الأكثر رواجاً في ذلك الوقت. ومن خلال حوار متتابع مع 421 طفلاً من مستويات اجتماعية مختلفة، أظهرت وجود صدمات نفسية حقيقية عند الأطفال الصغار، وخلطاً خطيراً بين الواقع و الخيال.

وبرأي ليليان لورسا، فإن الآباء والبالغين عموماً يقللون من أهمية وخطورة عرض المشاهد العنيفة على التلفاز، وتأثيرها المديد على نفسية الطفل، وقد لاحظت أن الضرر يزداد كلما نقص الاهتمام والحنان المقدم من جانب العائلة، وأنه يختلف باختلاف الوسط الاقتصادي الاجتماعي الذي ينتمي إليه الطفل.

وبعـد أن تركـت جانباً الأبحـاث المخبريـة، أو العبـث بالإحصائيات، قامـت بجمع صبـور لشهادات أطفال تصدم ببساطتهـا، وبعيدة جداً عَمَّا كان يتخيلـه المدرسون والآبـاء، إنها تتناول ظاهرة الانبهـار التي تعرضنا لهـا سابقـاً، والأفعال نصـف الواعيـة اللاشعورية التـي لا سيطرة للوعي عليها. ومن هنا يأتي الخطر الذي يمكن حصره بوسيلة الإعلام التلفازية. فعندمـا يقرأ الأهـل القصص للأطفال، فـإن الصلة بالواقـع قائمة، ولا يحصـل الأثـر المنوم مغناطيسيـاً؛ لأن علاقة الحب محترمـة. أما عندما يقرأ الطفـل بنفسه فعلية أن يبـذل جهد تركيز يمنع الإيحـاء، ويبقيه في حالـة يقظة واقية، وهـذا بالضبط الأثر الذي يجهلـه الأشخاص المهتمون (أو غير المهتمين) بالأطفال الصغار.

إن ما يميز معظم الأبحاث المتعلقة بهذا الموضوع هو المقاربة الشخصية، أو صغر المجموعات المدروسة، وبهذه المناسبة فمن المهم ذكر دراسة براندون سنـترول التي أجريت في جامعـة واشنطن، والتي لا تقوم على دراسة عينة مختـارة وإنما مجموع سكان البلدان الثلاثة: كنـدا والولايات المتحدة بين العامـين 1950م و 1970م، وجنوب أفريقيـا بين العامين 1975م و1987م، إلى مـاذا تشير هذه التواريـخ؟ إلى المدة الفاصلة بين دخـول التلفاز وبين بدايـة حساب عدد جرائم القتل في هـذه البلاد المختلفة. بالنسبة للبلدين الموجوديـن في أمريكا الشمالية، يمكننا الـكلام عن زيادة قدرها 130%. إن تطابـق المنحنيات للدارسين يظهـر أن الفاصل الزمني بين الظاهرتين واحد، مما يقـترح وجود علاقة بين وسيلة الإعلام هـذه، وازدياد ظاهرة العنف.

الحقيقة المجردة: ميتران هو عبارة عن ضفدع

في مدرسة لحضانة الأطفال في هذه السنة التي تصادف الذكرى المئتين لاندلاع الثورة الفرنسية، تتساءل المدرسة: «هل فرانسوا ميتران ملك؟». وتجيب جوقة الأطفال الصغار ذوي السنوات الأربع ببراءة متعجبة: «لا! إنه ضفدع!». أليسَ برنامج «عرض الحيوانات» حيث يُعرض رجال السياسة على شكل عرائس مسرح هو أحد البرامج الأكثر شعبية؟

إن المناسبة للتعرف على المصدر الأول للمعلومات بالنسبة لهؤلاء التلاميذ الصغار تُتاح بشكل رائع، ولكن الجميع يعلم أن المدرسة والتلفاز ليسا في حالة وفاق، و لما أخذا قراراً بالزواج لتأسيس التلفاز المدرسي، فإن هذا الزواج لم يأتِ بنتائج طيبة، في الولايات المتحدة «افتح يا سمسم» («المدعو 1، شارع السمسم» في محطاتنا التلفازية) تم تصميمه لمساعدة الأطفال من الشرائح الاجتماعية الفقيرة، والذين لا يرتادون المدرسة على التجهز لدخولها.

وقد تبين من خلال التجربة أنها أفادت الأطفال في الطبقات الموسرة أكثر من الأطفال الفقراء، وخاصة بوجود شخص بالغ يشجعهم.

التلفاز ليس ديموقراطياً، ومن ثَمَّ فالمدرسة هي الوحيدة القادرة على استبدال الوالدين الغائبين أو اللذين لا يقومان بدورهما. وبالإجمال فالمدرسة لم تتخذ قراراً بعد بإعطاء التلفاز حق المواطنة. ذلك التلفاز الحقيقي الذي صنع ليُسلي، و ذلك الذي يجعل الأطفال يبدعون، هل هو حقيقة مستحيل استغلال هذا الحماس؟

> العديد من المدرسين لم يعرفوا غولدوراك إلا عن طريق «اللوحات الحرة» في صفهم، لماذا يستمر المدرسون بالطلب من تلاميذهم أن يخبروا كيف قضوا يوم الأربعاء؟ ويرفضون بنفس الوقت سماع حديثهم عن أبطالهم المفضلين، أو عن لوي دو فينس الذي شاهدوه ليلة البارحة؟
>
> مارتين ڤالو، عالم التربية Le Monde de l`Education june 1989

التأثير المُفرِغ للعنف التلفازي

بحسب نظرية التنفيس، وهي كلمة لاتينية تعني بالدقة «التنقية»، يُحرر العنف المُمَثل المُشاهد من الدوافع الهدامة التي يحملها بين جنبيه. ويبدو أن هذه المُقاربة مقنعة عندما يتعلق الأمر ببالغين يشاهدون فلماً ذا مستوى فني عالٍ (مأساة يونانية على سبيل المثال)، ولكنها لا تنطبق على وسيلة إعلام «مؤثرة» كالتلفاز، ولا تنطبق خاصة على أطفال قدرتهم على استيعاب التعبير الرمزي محدودة جداً، ففي كتابه «الإنسان العدائي» يدعم بيير كارلي على العكس فكرة «أن التنفيس يسبب غالباً تقوية السلوك العدواني، ومن ثم زيادة احتمال نقله إلى الواقع».

أما ليليان لورسا فهي بدورها ترفض كذلك فكرة التنفيس، تستنتج -إضافة للعديد من الباحثين الأمريكيين والأوربيين- أن للتلفاز تأثيراً مُكبراً على الأطفال، وإن كان هذا الأثر لا يؤدي بالضرورة للقيام بما يشاهدون.

تغير التصورات

دون الدخول في تفاصيل الطريقة التي تستخدمها ليليان لورسا وآخرون، يجب التأكيد على الفوضى التي يسببها العنف المعروض على

التلفاز على تصور الأطفال للواقع، فإضافة للخلط بين الواقع والخيال المذكور سابقاً، يُلاحظ وجود عدم قدرة على الوصف المرتب، وصعوبة في تقمص الشخصيات بطريقة بناءة (كما يحدث عند سماع أساطير الجنيات مثلاً)، وذوبان الشخصية التي مازالت هشة عند الأطفال الصغار، وتشوه في استيعاب الزمان والمكان... إلخ، دون أن يستطيع الباحثون تحديد الأسباب، وكونها مرتبطة بشكل أو محتوى البرامج (دون شك، الاثنان يؤثران).

وهنا كذلك يبدو جلياً أن غياب الأثر المُعادل العائلي والمدرسي، الذي يوازن التأثيرات المنحرفة لبرامج سيئة التصميم، وفي وسيلة إعلام يصعب التحكم بها، هذا الغياب سيكون عاملاً يزيد الوضع سوءاً، يبقى علينا أن نعيد السؤال الأبدي والذي لا يمكن الالتفاف حوله: هل التلفاز أداة سيئة لحضارة جيدة؟ أم أنه على العكس المثال الحي لثقافة فقدت معالمها، وانطلقت بمضاء على طريق منحرف؟.

في محاولة لإنهاء الموضوع دون الوصول للاستنتاج

يمكننا أن نتابع بالتأكيد لعبة ذكر الأقوال والمراجع المتناقضة إلى ما لا نهاية، وذلك بهدف دعم موقفنا المساند أو المعارض للتلفاز، ولكننا لسنا ملزمين بالاستناد دائماً لدراسات الآخرين، وأن نكون الناطقين باسمهم. فأطفالنا وتلاميذنا، وأطفال معروفون أو غير معروفين لنا يكبرون تحت سمعنا وبصرنا، إضافة للطفل الذي ما زال حياً في أعماقنا كبالغين راشدين. يكفي أن نلاحظ ما فينا وما حولنا لنستوعب الحقيقة.

مـاذا نرى؟ أن حقـل رؤيتنا أوسع بكثـير من أكثر الشاشـات اتساعاً، وأن المعلومـات التـي نحصل عليها من الواقع المُعاشـ تفوق جداً كماً وكيفاً الاهتزازات الضوئية التعيسة لأشعة مهبطية على شاشة ذات 625 أو 819 خطـاً. وأن التلفـاز لـن يستبدل أبداً نضـارة صباح مشـرق، ودفء جسد يلتصق بك، وعبق غابة بعد هطول المطر.

إن ذكرياتنا الأكثر غنى مصدرها أناس أحياء إلينـا و أعمـال تربينا، وأمكنـة وجدنـا فيها طعم الفردوس الضائع، وربما كتـاب غدا صديقاً لنا.

بالمقابـل لا يترك سيل المشاهـد التلفازية التي يمحـو بعضها بعضاً في جـو من العبث السطحي أي أثر ـ بطبيعـة الحال زائل ـ على رمل الذاكرة القريبة، حتى العنف عندما نحرره من سجنه الضيق يصبح فرصة للسمو والارتقـاع، فعندما نناضـل لقضية سامية مع رفـاق بلحمهم ودمهم، لابد لنا من اختبار الواقع، واكتشاف الممكن، ومواجهة الصعاب، وتقدير فرص النجـاح، والحزم في الأمور... إلـخ، إن التأثير الأسـوأ للتلفاز على الطفل ربمـا ينتج عن حرمانه مـن الخير الكثير باحتلالـه كل الزمان والمكان في نفسه أو روحه، أكثر من كونه ناتجاً عن «الإثم» الذي يرتكبه.

كم من الصداقـات نخسرها بسبب شبح شخصيـة خيالية سيئة؟ كم مـن الاهتـزازات فوق ماء النهـر نسيناها بسبب برنامـج تلفازي؟ كم من الحب خنقناه ضمن جدران أربعة لفرقة سيئة التهوية؟ وكم من العواطف أطفأناها بتلفاز يشتغل؟

إننا لا نحمي الطفل من هذه المضار بالمنع من المشاهدة، أو بإعطاء دروس مبادئ و أخلاق، إننا لا نبعد الشيطان بجلسات هدفها طرده، كما أننا لا نقضي على الكذب بالطرد من رحمة الله، إن حل المشكلة يكمن أولاً في تصفية الأمور مع النفس أولاً، ومعرفة ما نريد أن نعطي للآخر أو ننقل إليه، إذاً يجب أن نمتلك هذا الشيء وأن نحياه بأنفسنا، ثم نتعلم كيف ننقله للآخرين، وأن نستعيد دورنا كأم وأب ومدرس و صديق، ذلك الدور الذي لم يكن علينا أن نتخلى عنه أبداً، وهكذا يبقى التلفاز جهازاً بكل بساطة، مع كل محدوديته وحسناته، وقدرته على التسلية والإخبار والتعليم،وعجزه التام عن منح الحب والحياة.

كيف يكون تحقيق ذلك سيكون عنوان الفصل الأخير من هذا الكتاب، الذي ستكونون أبطاله.


وهكذا سوف
تستمعون إلي؟!

في المحاكمة الأخلاقية التي تفصل بين العديد من الآباء وتقريباً كل المدرسين من جهة، والهدرَة (أفعوان خرافي ذو تسعة رؤوس) التلفازية، هل يلعب المدرسون دور المدعي العام أم الشهود أم المتهمين أم شركاء الجريمة؟ السؤال جوهري، وتجاهله يدل على استهتار يشوبه الخداع، ونحن سنحاول الإجابة عليه بإسهاب، أو توضيح ملابساته على الأقل. نعم، فالوالدان والمدرسون لهم الحق بل ويجب عليهم أن يلعبوا دور المدعي العام طالما أن البرامج المخصصة للأطفال والشباب ظاهرة الرداءة والتعاسة. وبحكم كونهم مسؤولين ومستهلكين و «دافعي ضرائب»، يتوجب عليهم عرض أفكارهم و ملاحظاتهم وتصوراتهم حول تلفاز يحترم الأطفال. ولكن ما الإمكانات والوسائل المتاحة للقيام بذلك؟

لا شك أن الوالدين والمربين هم شهود فعليون، ولكن شهاداتهم ليست غالباً سوى ملاحظات محدودة وسطحية، فنادرون هم المدرسون القادرون على المراقبة الرصينة والملائمة لاستهلاك الأطفال للتلفاز، وتأثيره المحتمل عليهم، إن ملاحظاتهم سطحية حتمية وقاسية وينقصها أبسط قواعد الموضوعية، فهل يمكننا قبول شهاداتهم؟ أم أنهم فاعلون؟ وكي يستحقوا هذه الصفة يجب على المدرسين وخاصة الوالدين أن يشاركوا في اختيار البرامج المشاهدة مع أطفالهم، ويقبلوا أن يشاهدوا التلفاز معهم، وأن يتناقشوا معهم ويتحاوروا ويتبادلوا الآراء حول البرامج، إن الحوار مفقود في كثير من العائلات ـ وكثير من الصفوف بالتأكيد! ـ إن النظر معاً وباتجاه واحد و إن كان باتجاه التلفاز، والمشاركة الفعلية يعنيان فعلاً أن نكون فاعلين! ونحن ما زلنا بعيدين جداً عن هذا.

بقي في هذه المحاكمة التي يتهم فيها التلفاز بسوء النية أن نحدد درجة إسهام الأهل مهما كانت من ناحية سلطتهم الأبوية والتربوية، وهنا أيضاً يتبين لنا أن المسؤولية كبيرة وثقيلة.

من يشتري التلفاز وجهاز الفيديو؟ من يدفع رسوم الاشتراك؟ من يضع الجهاز وسط غرفة الجلوس (و أحياناً جهازاً آخر في غرفة الأطفال)؟ من يقضي سهرة كاملة أمام الشاشة الصغيرة؟... من الإجابة المتشابهة على كل هذه الأسئلة يبدو لنا من الصعب جداً أن نحكم بخلو طرف الأهل من إسهام بالإيواء، وإسهام بالقدوة. وهنا، قراءنا الأعزاء و أصدقاءنا الأوفياء للحظات، يجب علينا أن نقبل باستبدال ثوب المدعي العام بثوب محامي الدفاع.

هل التلفاز أفيون الشعوب؟

إذا كان البالغون سواء كانوا آباء أو لم يكونوا، وسواء كانوا مدرسين أو «كارهين للأطفال»، يشاهدون التلفاز، فذلك لأنهم بحاجة إلى مشاهدته، وأنهم يحبون أن يعيشوا لحظات العطالة الفكرية التامة، إنهم يحلمون بنسيان عالم متاعبهم اليومية، والطقوس المزعجة المرافقة له، وأوضاعهم المهترئة، إنهم يريدون بكل بساطة أن ينسوا أنفسهم خلال لحظات، ولا داعي لأن يُشعرنا أحد بوجود صراع بين الثقافة والإعلام، فالبرامج من هذا النمط نادرة جداً، وتبث في ساعات غير معروفة، ولا يسعنا إلا أن نهنئ المنتجين لهذه البرامج الذين يتابعون السير في هذه الطريق النبيلة المعزولة. لننظر حولنا، ماذا يريد معظم الناس؟ وقتاً حراً وملابس، وإجازات على شاطئ البحر أو للتزلج على الثلج، ومراكز تجارية، وعبوات معدنية للمياه الغازية، ومراكز لياقة، ومجلات مليئة بصور الليدي ديانا...

في المحاكمة الأخلاقية التي تفصل بين العديد من الآباء وتقريباً كل المدرسين من جهة، والهدرَة (أفعوان خرافي ذو تسعة رؤوس) التلفازية، هل يلعب المدرسون دور المدعي العام أم الشهود أم المتهمين أم شركاء الجريمة؟ السؤال جوهري، وتجاهله يدل على استهتار يشوبه الخداع، ونحن سنحاول الإجابة عليه بإسهاب، أو توضيح ملابساته على الأقل. نعم، فالوالدان والمدرسون لهم الحق بل ويجب عليهم أن يلعبوا دور المدعي العام طالما أن البرامج المخصصة للأطفال والشباب ظاهرة الرداءة والتعاسة. وبحكم كونهم مسؤولين ومستهلكين و «دافعي ضرائب»، يتوجب عليهم عرض أفكارهم و ملاحظاتهم وتصوراتهم حول تلفاز يحترم الأطفال. ولكن ما الإمكانات والوسائل المتاحة للقيام بذلك؟

لا شك أن الوالدين والمربين هم شهود فعليون، ولكن شهاداتهم ليست غالباً سوى ملاحظات محدودة وسطحية، فنادرون هم المدرسون القادرون على المراقبة الرصينة والملائمة لاستهلاك الأطفال للتلفاز، وتأثيره المحتمل عليهم، إن ملاحظاتهم سطحية حتمية وقاسية وينقصها أبسط قواعد الموضوعية، فهل يمكننا قبول شهاداتهم؟ أم أنهم فاعلون؟ وكي يستحقوا هذه الصفة يجب على المدرسين وخاصة الوالدين أن يشاركوا في اختيار البرامج المشاهدة مع أطفالهم، ويقبلوا أن يشاهدوا التلفاز معهم، وأن يتناقشوا معهم ويتحاوروا ويتبادلوا الآراء حول البرامج، إن الحوار مفقود في كثير من العائلات ـ وكثير من الصفوف بالتأكيد! ـ إن النظر معاً وباتجاه واحد و إن كان باتجاه التلفاز، والمشاركة الفعلية يعنيان فعلاً أن نكون فاعلين! ونحن ما زلنا بعيدين جداً عن هذا.

بقي في هذه المحاكمة التي يتهم فيها التلفاز بسوء النية أن نحدد درجة إسهام الأهل مهما كانت من ناحية سلطتهم الأبوية والتربوية، وهنا أيضاً يتبين لنا أن المسؤولية كبيرة وثقيلة.

من يشتري التلفاز وجهاز الفيديو؟ من يدفع رسوم الاشتراك؟ من يضع الجهاز وسط غرفة الجلوس (و أحياناً جهازاً آخر في غرفة الأطفال)؟ من يقضي سهرة كاملة أمام الشاشة الصغيرة؟... من الإجابة المتشابهة على كل هذه الأسئلة يبدو لنا من الصعب جداً أن نحكم بخلو طرف الأهل من إسهام بالإيواء، وإسهام بالقدوة. وهنا، قراءنا الأعزاء و أصدقاءنا الأوفياء للحظات، يجب علينا أن نقبل باستبدال ثوب المدعي العام بثوب محامي الدفاع.

هل التلفاز أفيون الشعوب؟

إذا كان البالغون سواء كانوا آباء أو لم يكونوا، وسواء كانوا مدرسين أو «كارهين للأطفال»، يشاهدون التلفاز، فذلك لأنهم بحاجة إلى مشاهدته، وأنهم يحبون أن يعيشوا لحظات العطالة الفكرية التامة، إنهم يحلمون بنسيان عالم متاعبهم اليومية، والطقوس المزعجة المرافقة له، وأوضاعهم المهترئة، إنهم يريدون بكل بساطة أن ينسوا أنفسهم خلال لحظات، ولا داعي لأن يُشعرنا أحد بوجود صراع بين الثقافة والإعلام. فالبرامج من هذا النمط نادرة جداً، وتبث في ساعات غير معروفة، ولا يسعنا إلا أن نهنئ المنتجين لهذه البرامج الذين يتابعون السير في هذه الطريق النبيلة المعزولة. لننظر حولنا، ماذا يريد معظم الناس؟ وقتاً حراً وملابس، وإجازات على شاطئ البحر أو للتزلج على الثلج، ومراكز تجارية، وعبوات معدنية للمياه الغازية، ومراكز لياقة، ومجلات مليئة بصور الليدي ديانا...

يريد الجمهور أن يتسلى، وأن يقتنع بأنه يلهو حتى لا يشعر بأزمته الإنسانية التي يمكن تفهمها، إنه يهرب من الواقع ويعلل نفسه بحسب استطاعته، فمع ضياع مصداقية رجال الكنيسة، وغلاء أجور المحللين النفسيين، والعزلة السائدة في المدن الكبيرة، يبقى التلفاز الوحيد تقريباً القادر على تخفيف آلام البؤس والخوف عند الإنسان، في أي وقت وأي مكان وأي وسط اجتماعي.

ويمكننا سماع من يحنون «لأيام زمان الطيبة» يكيلون المديح لمجتمع متضامن، وعائلات متماسكة، وأجيال تعيش تحت سقف واحد، والولائم العائلية الكبيرة حيث تُطرح بخجل عبارات حول أمور الحياة.....

ولنفتش قليلاً في ذاكرة الأيام السابقة مستعينين بعصا الأمانة، وسنجد فيها الفقر والحرمان، والتسلط الأبوي العنيف، والكحولية والتدرن الرئوي، وأوضاع المرأة المزرية، واستغلال الأطفال، وتفاوت طبقي اجتماعي لا يمكن تجاوزه، ومتع مخصصة حصراً لتنويم الدماغ وجموده.

لم يدمر التلفاز شيئاً، ولكنه لم يبنِ شيئاً لائقاً، لقد تطورت مجتمعاتنا لتزيد من حظوظ المادية ببشاعة، والأنانية الشخصية أو العائلية، وليس التلفاز سوى واحد من مكوناتها يحمل الانعكاسات المتدنية التي نعرفها.

«أصبح التلفاز مُحرك المجتمع»

كارلو فريكسيرو هو أحد المفكرين المهتمين بالتلفاز الأكثر أصالة. بعد أن انفصل عن السيد بيرلسكوني الذي اشتغل معه بدايات كمستشار، التحق بجان بيير إلكاباش، في تلفاز فرنسا حيث أصبح مسؤولاً عن الإنتاج.

LNQ (أحرف من بدايات اسـم الشخص الذي أجرى المقابلة): لم يكـن التلفاز بهذه القوة أبداً، ولكـن لدينا شعور بأنه لا يعرف إلى أين يسير...

كارلوسفريكسيرو: إننا نعيش نهاية تلفاز العروض في الثمانينات. هـذا التلفاز كان، فقـد كان «يسرق» أفضل ما عنـد وسائل الإعلام الأخـرى، كالسينما والمنوعـات والموسيقى والرياضـة، إننا اليوم في مرحلـة ثالثة، فقد أصبح التلفـاز ملك وسائل الإعلام، إنه هو الذي «ينتـج» الحياة الواقعية، وهـو الذي ينتج السينمـا وحتى الرياضة. بـدون التلفـاز بطولات العـالم الرياضيـة لا وجود لها، وقـد أصبح التلفاز منتجاً حتى لأحداث الإنـزال العسكرية، فالحقيقة أصبحت تصنعها وسيلة إعلام مهمتها الأصلية إنتاج الخيال...

إننا حالياً في مرحلة انتقالية. ويلزمها تجميع كل شخصيات المرحلة السابقة واستخدامها بالكامل وعصرها كما يُعصر الليمون (....)

ونشعر بأن مللاً قد تولد عند المشاهدين من تلفاز الثمانينات فهم يطلبون شيئاً آخر، ويريدون تلفازاً ذا علاقة حميمة مع الحياة...

هذا ما أدعوه الانتقال من التلفاز القائم على الاستعراض والواقع إلى التلفـاز الديمقراطـي، كان لتلفـاز الاستعراض ــ الواقع وظيفة انتقالية، أما التلفاز الذي نقوم به اليوم فهو يعكس بقوة استطلاعات الـرأي، لقد غـدا المشاهـدون كاتبـين للسيناريو، إن أفضـل الأفلام التلفازية تسويقا هي الأفـلام التي تتكلم عن الواقع، مثل «المؤسسة»، خيـال ذو علاقة وطيـدة بالاستعراض ـ الواقع، سـوف يتم بالتدريج استبـدال التلفاز القديم بالتلفاز الواقعـي الجديد، وهو تلفاز الحياة

اليوميــة السياسيــة، وإن النجــاح التلفازي للسيد برنــار تابي يفسره هذا، إنه التلفاز الذي أصبح محرك المجتمع.

أحدهم قال إن السينمــا هي «الموت أثناء العمل». أما التلفاز فهو علــى العكس «الحياة في العمل». إن البرنامج التي تعرض الحياة هي التي ترسم تلفاز المستقبل.

ولكن التلفاز هو آلة خطرة، آلة تحدث الخراب.

ولنأخــذ إيطاليا مثــلاً، فالتلفــاز ساعد عمليــة التنظيف وجلاء الأمــور، ولكنه بمفارقة ساعد كذلــك بيرلوسكوني إلى الوصول؛ لأنه لم يوجــد شخص يواجهــه، ولأنه فهم تماماً قواعد لعبــة التلفاز، إن «التنظيــف» سمح بفرض رجــل من الحرس القــديم كبيرلوسكوني، لأن التلفــاز يجيد هدم الماضي ولا يجيد البنــاء، ولكننا بحاجة دوماً للإيجابيــة، والشخصــ الــذي يجيــد بعــث الإيجابية علــى التلفاز، يستطيــع التحكم بقواعد اللعبــة، وإن لم يكن هذا الأمر جديداً، هذه هي خطورة التلفاز، وكأننا بحاجة لتأكيد أن التلفاز لا يعني الحرية.

والتلفاز أيضاً في كثير من الأحيان هو حلبة صراع الفكرة الوحيدة....

لقــد أصبــح التسويق هــو حلبة الفكــرة الوحيــدة، ولكن يفترض بالتلفــاز أن يكــون مكان الفكرة الثنائية، فــإذا أخذنا السياسة مثالاً فهو السيد تابي وجهاً لوجه مع السيد دوفيلييه، يصعب اليوم على كل الأشخاصــ الذيــن يوحدون الناس أن يكونوا في حالــة انسجام مــع روح العصر على التلفــاز، إن الرابح هو الــذي سيكتشف ميشيل بولاك الجديد (مُعِدُّ برنامج مخصص للحوار كان يحتد فيه الجدل والنقاش في الثمانينات وعنوانه «حق الإجابــة»). وبسبب الدعايات

يجب التأكـد من وجود مشاهدين مضمونـين، وهكذا يستحيل علينا التجديد. إن الدعاية تحمل مسؤولية كبيرة في قلة الشجاعة.

أقـوال لكارلو فريكسـيرو جمعها جان مارسيـل بوغيرو/ اليومية الجديدة Le Nouveaue Quotidien

18 تموز م1994

إن التلفـاز لم يصمـم أبـداً للأعـلام أو الأبطـال أو الحكمـاء، هـذه الذبابـات البيضـاء من البشر التي تعـرف كيف تتغلب علـى وحدتها، إنه وسيلـة إعلام للرعاع، وهذا يعني الغالبيـة الساحقة من الجنس البشري، أي أنـه صمم لنـا كلنـا، الإبداع بغرض التسلية ليس له هدف سوى جذب وأسـر وحبس النـاس الضعفاء و المستسلمـين، استعراضي وسطحي هدف التلفـاز هو العرض وليس التثبيت، كثير الكلام بـدون طائل وسطحي قد دخـل في آخر غرف الجلوس التـي يُتكلم فيها ليصمت النـاس، إننا نـادراً مـا نتناقش أمام التلفاز، فنحن نقلب المحطات ونتسلى بالطعام ونتخاطب همساً، فالوالدة تخيط والوالد يغط في نومه، نستهلك مادة التلفاز ونتثائب ونضحك ونحك جسمنـا ونتلاشى، وفي الغد نكون قد نسينا كل شيء، كما يحصـل لأحلامنا لنبدأ مـن جديد... إن التلفاز آلـة عجيبة تجعلك تحلم وأنت واقف، وتحلم وأنت جالس أو مستلق، إنه مشروع عجيب لتعطيل عمل الدماغ آني المفعول.

إن التسامـح في الـدور الاجتماعي للتلفاز عند البالغـين ظاهر للعيان، وذلـك يدفعنـا للاستغـراب من كـون الذين يمارسونـه بسلبيـة المُصاب بالتوحد، هم أنفسهم الذين يرفضون بقوة استخدام الأطفال له، إنه عبارة

عـن أمرٍ متناقض كاذب مـن ناحية؛ لأن الغالبيــة الساحقة من مشاهدي التلفـاز الكبـار ليسوا تحت سيطـرة المشاهد التي يرونهـا، ويعرفون كيف يضعونهـا في موضعها الصحيح، بالفصل بين ما هو حقيقي وما هو خيالي بهدف التسلية.ولكنهم يشكون في قدرة أطفالهم على القيام بذلك.

ومن جهة أخرى، فإنهـم يشعرون بالذنب لإهمالهم أطفالهم، وتركهم لتلفـاز هم أنفسهـم لا يستطيعون الاستغناء عنه، رغـم كونه لا يقدم لهم سوى القليل ثقافياً و اجتماعياً؛ بينما تقوم الحياة والمدرسة والتأهيل خارج البيت على قيم مختلفة، ولكن هل نحن متأكدون فعلاً من ذلك؟

التلفاز والتفاعل العائلي

مـن خلال العديد من التحريات الجدية تماماً التي أجريت حول الدور الاجتماعـي للتلفـاز، حصـل إجماع حـول التأثـير السيئ عمومـاً في هذا الجانب، وذلك مهما كان عمر المشاهد، سواء كان 7 سنوات أو 77 سنة.

ولكن يجدر بنا الانتباه لنقطتين إيجابيتين نوعاً ما:

- التوتـرات العائليـة الكبيرة ضمن العائلـة، النزاعات تنتهي لنقص الوقـت والنقاش اللازمين لتفاقمهـا، يقوم التلفاز بـدور الواقي- كما يحمي واقـي الشمس من ضررها ـ من الأحقاد والضغينة، من خلال تأثيره المنوم وهيمنته التي تحل النزاعات المعقولة.
- يمُيـت التلفاز على الشاطـئ العائلي تدفق الطُرَف وحوادث المجتمع والاستعراضـات والحـوارات ومنتجـات يمكـن لها أن تغـذي مادة الحديـث، وتُكـون رابطاً وربمـا حاجزاً بـين الطفـل وأصدقائه في المدرسة وعائلته.

إن النقطة الاخيرة وحدها كافية لإراحة ضمير معظم الاهل بتبرير وجود التلفاز في البيت: «كل أصدقائه عندهم تلفاز، ونحن لا نريده أن يشعر بأنه شاذ عن القاعدة، وأن نُبعده عن الواقع»، «لو لم يكن عندنا تلفاز، فإنه سيذهب ليشاهده عند الأصدقاء»، «وإذا لم يكن بإمكانه مشاهدة برنامج «زحف القرن العشرين»، فكيف يمكن له أن يجيب على أسئلة الأستاذ حول موضوع الحلقة؟».

العديد من التأكيدات التي لا تنجح في إخفاء تخلي الوالدين عن دورهما في التربية، فهم يحيلون مسؤولية استغلال التلفاز على الآخرين: الأصدقاء، المدرسة.... إن الأطفال المحظوظين الذين نشؤوا في وسط عائلي مشجع يُحفز الحوار ويحترم الاستماع، يمكنهم بدون شك الاستفادة من الساعات التي يقضونها أمام الشاشة الصغيرة، والأهم من الحالة المادية المريحة، هو المستوى الثقافي الاجتماعي للأم الذي يلعب دوراً محورياً، ولا شيء يثير الدهشة كالحقيقة الآتية: يصعب تعديل السوية الاجتماعية والثقافية. ولكن مستوى الثقافة له علاقة بالإرادة والمعرفة والتصميم، فالمال لحسن الحظ لا يصنع كل شيء، وهذا يبعث على الأمل، وسنعود لهذه الأمور في الفصل الأخير من الكتاب.

مشاهدة التلفاز والمستوى الاجتماعي الثقافي

إن أكثر المؤشرات التي تشير إلى استهلاك الطفل للتلفاز هو مستوى تعليم الأم.

ويمكننا أن نستنتج نوعاً من السلوك:

الطفل الأقل مشاهدة للتلفاز:

- طفل صغير عمره اقل من 10 سنوات.
- وحيد.
- أمه وصلت للتعليم العالي.
- أبوه يشغل منصباً مهماً أو يمارس مهنة حرة.

الطفل الأكثر مشاهدة للتلفاز:

- مراهق عمره 13 ـ 14 سنة.
- من عائلة فيها ثلاثة أطفال أو أكثر.
- أم وصلت لنهاية المرحلة الابتدائية فقط.
- أب عامل أو عاطل عن العمل.

يظهر من خلال العديد من الدراسات أن العامل الأكثر أهمية في تحديد استهلاك التلفاز هو الوسط العائلي وقيمه.

معلومات مستقاة من محاضرة ألقتها الدكتورة كارين بوتشي طبيبة ملحقة بإدارة الخدمات الصحية في قسم التعليم الحكومي في مقاطعة جنيف، لوكارتو، تشرين أول 1990م.

مشاهدة التلفاز هي « فعالية» ذات طابع عائلي، وهذا يعني أن كل فرد من العائلة يشارك به، وحده أو بصحبة الآخرين.

إن وجود الطفل وحيداً أمام التلفاز هو أمر نادر الحدوث، وهناك عدة احتمالات ممكنة، فيوجد أطفال لا يشاهدون التلفاز وحدهم أبداً، وآخرون يشاهدونه لساعات وحدهم، ونمط ثالث يشاهدون التلفاز مع بعضهم دون وجود بالغين معهم.

فيما يتعلـق بمعظم الأطفال لا توجد طريقة وحيـدة طقوسية لمشاهدة التلفاز، فيمكن لنا أن نشاهده مع بيير أو بول أو جان كما اتفق. «إن التلفاز ليس كقالب الكيك الذي ينقص نصيبنا منه كلما زاد عددنا». فالتلفاز شيء نشارك به الآخرين! لسوء الحظ، يبدو أن كلمة مشاركة لا تعني أبداً الحوار أو التساؤلات المشتركة أو النقاش أو الحصول على معلومة.

بين الوقاحة واللامبالاة

جواباً على سؤالنا «هل تتناقشون مـع والديكم حول ما تشاهدونه على التلفاز؟» يقـول تلاميذنا الكبـار: «أحيانـاً» أو «نادراً» أمـا الصغار السن منهـم فيفاجئهم السؤال، ويلزم أن نشـرح لهم ماذا نقصد منه، فالبعض منهم يعتبر طلب الإذن بتشغيل التلفاز هو «نقاش» بحد ذاته، وبعد توضيح الأمور لهم جيداً، تبين أن معظم المشاهدين صغار السن نادراً ما يتبادلون الحديث مع الوالدين بخصوص ما يشاهدون.

ولذلك سببـان كلاهما وجيه ويفسر ما يحـدث ويمكن أن نستنتجه من أقوالهم.

أولهمـا عائـد إلى أن الأهل لا يهتمون بالبرامـج المخصصة للأطفال، وأن هـذه البرامج تُعرض في أوقات لا تناسبهـم، وأنهم يفضلون إذا كانوا موجودين في المنزل القيام بأعمال منزلية «بدلاً من إضاعة الوقت في هذه الأمور الطفولية».

ثانيهمـا: عائد إلى طبيعة التلفاز العابرة والزائلة والمستسلمة السلبية، والتي تلخصها تعابير العديد من المراهقين، «ولكن الحديث أثناء البرنامج مزعـج!». بالتأكيـد. ربما، مع أن. ولكن. وماذا بعـد؟ «بعد البرنامج يكون

الوقت متأخراً ويجب علينا أن نذهب للنوم». يعترف البعض أنه حصل على إيضاحات لبعض الأمور وربما امتداد للبرنامج، ولكن هذا الأمر نادر الحدوث، أما الغالبية فلا ترى حاجة لذلك لأن كل المشاهدات العائلية المشتركة للتلفاز تقتصر على أفلام المغامرات أو المسلسلات «البسيطة» إن نتائج استطلاعنا المحدود نسبياً (ثلاثون طالباً تقريباً) تشابه تلك التي حصلت عليها ليليان لورسا في عام 1989م، ونجدها في تعليقها: «التساؤل حول الحوار مع البالغين يبدو وقحاً، فإذا اعتمدنا على شهادات الأطفال، نستنتج أن لا أحد يتكلم معهم حول ما يشاهدون، إن الكلمات المستخدمة لاستجواب الأطفال لها دلالات معبرة، فالحديث يعني الشجار، ومن ثم مجموعة من الاستطرادات الدرامية، والكلام يعني المضايقة: لأنه يُحدث ضجيجاً، وعندما نستخدم كلمة يشرح، فهي تعني في كثير من الأحيان يُوبخ، وأحياناً تعني الشجار والصراخ كذلك».

«اصمت عندما يتكلم التلفاز» أو «لا تلمس جهازي» هذه هي الشعارات التي يمكن أن يرفعها مدمنو التلفاز في نهاية القرن العشرين، ظهر التلفاز فجأة كاندفاع بركاني في الحياة العائلية قبل ثلاثين عاماً، وخلال زمن قصير احتل مكانة في جميع البيوت تقريباً، إن استخدامه واستخدام الأجهزة المتعلقة به (جهاز الفيديو، الكاميرا، كاميرا الفيديو، الألعاب الإلكترونية، والمينيتل.....) أصبح طبيعياً تماماً دون أن نقلق أبداً بخصوص تأثيراتها الاجتماعية، والنتيجة اليوم قاسية.

فالتلفاز لم يشجع الحوار وتبادل الأفكار والنقاش ضمن الأسر، ولكنه لم يسبب في كثير من الأحيان إلا عزلة اجتماعية، وتشجيعاً على الاستهلاك أناني وانفرادي.

هل هذه الظاهرة قابلة للتراجع؟ بحكم التفاؤل الذي بُنيت عليه مهـ
كمعلمـين، وبحكم كوننا آباء، لا يمكننا إلا أن نجيب بالإيجاب، ولكن إق
الوالدين بعدم تسليم أبنائهم لهذه الحاضنة (مُربية الأطفال) الرخيـ
والمتوفـرة يبدو مهمـة صعبة، فلابد من استعادة السلطـة والكلمة في و
هـذا المُخدر الـذي يخدع بقدرتـه على تهدئتهـم وجعلهـم يسترخون
وأبناؤهـم؛ لأن الشاشـة الصغيرة في واقع الحال لا تـؤذي إلا إذا بالغـ
أسأنـا استعمالها! فلا يوجد تلفاز واحد لكل عائلة، وإنما تلفازات مخـ
لعوائل مختلفة.

العائلة اليوم

شاشة تلفاز وعالم دون نظام!

يعيشـ الطفل منذ سنين عمـره الأولى في بيئة متغيرة وغالباً غير مستقرة بسبب عمـل الأم، ويؤكد المختصون بعلم النفس على أهمية الاستقرار بالنسبة للطفل الصغير.

ما نتائج هذه الحالة من عدم الاستقرار؟

تـزداد نسبة النسـاء العاملات باستمـرار، والطفـل الذي طالما تمنينـاه وأحببنـاه ودللنـاه وداعبنـاه أصبـح يعيش مـع والديه مدة تـزداد قصراً، إنه يقضي معظـم وقته في دار الحضانة مع حاضنات وحارسـات، وفي المدرسـة بعـد ذلك، أو أمـام التلفـاز، والقليل من الوقـت الـذي يقضيه مـع والديه مخصـص للهو واللعـب، ومن ثم للمتعـة والسـرور، وأصبح الوقـت المخصص لنقضيه معـاً نادراً، إن اللحظـات التي تجتمع العائلة فيها فتقـوى رابطتها، تحد بنفس الوقت الانخراط في الحياة المشتركة مع المجتمع.

لم يعد بيت العائلة مكاناً للتواصل وإنما عشاً ثنائياً وملجأ، و«الجنة» أكثر مـن كونها انعكاساً لصـورة الحياة، ويمكننا أن نقـول إن العائلة تشكل عازلاً بين الطفل وواقع الحياة، سابقاً كان الطفل يرى والديه في وسطهمـا المهني، وتتكون شخصيته على الواقـع بقربهما، وهو يراهما غارقين فيه، كان يستوعب ويتمثل هذا الواقع شيئاً فشيئاً بشكل طبيعي مـن خلال نضج بطيء ومستمـر كان يحدث عفوياً، إنه من الواضح أن عائلة فيها طفل وحيـد، ومتقوقعة على نفسها لا تصلح لأن تكون مكاناً لاختبـار الاحتكاك بالناس، إن الأطفال الكبار بخلاف الذين سبقوهم بالعمـر يبقون أطـول مدة ممكنة ضمن عوائلهم وذلـك بإرادتهم، هل هـذه الظاهرة هي مرحلـة مراهقة تطول أكثر فأكـثر؟، أم أنها رفض للنضج، أم أنها تعبير عن الحرمان من انسجام عائلي مطلوب؟

قبـل عشرين عاماً كان البقـاء مع الوالدين يعنـي احترام أوقات الدخـول والخروج من المنـزل، أما اليـوم فالبيت العائلي غـدا نُزلاً، فنحـن نفعـل مـا نريـد، ونحصل فـوق ذلك علـى الراحـة. الحرية الكاملـة: لم يعد هنـاك ضوابط، ولم يعد هناك ممنـوع. وفي النهاية فالوضـع غير صحي: يتحمل الوالدان حتى ما يجرحهما ويصدمهما، خوفـاً من خسارة أطفالهما، فهما لم يعـودا يلعبان دورهما كوالدين، وإنما يلعبان دور الصديق، إن من أكبر فجوات التربية الحديثة تقلص مـا كان ممنوعـاً لعدة أجيـال، لم يعـد الوالدان قادريـن على حفظ الغيريـة* والمراهقـون لا يجدون من يتمردون ضـده. فنحن نعيش في جـو من السلبية المستمـرة دون قواعد حياة مفروضة. لقد انتقلنا من عالم النظام إلى عالم الفوضى. إن هذا عاملاً من عوامل التفتح دون

* الغيرية: (ما يخص الآخر) وهي عكس الذاتية (ما يخص الذات).

شك، ولكنه يصعب التعايش معه؛ فلم يعد كافياً أن نعيش على هوانا، وأن لا نتبع التقاليد، والعادات المتوازنة. لقد أصبح من الصعب أن تكون والداً: فقد بات من الضروري إعادة اكتشاف كل شخص وكيفية التعامل معه في كل حالة.

أقوال انتقتها ليليان ديلواس. منتقاة من مقابلة مع لويس روسيل مختص بالإحصاء وعلم الاجتماع مجلة عالم التربية، عدد أيلول 1989م.

التلفاز والعلاقات بين الأقران ـ اللغة

يقول كثير من الوالدين أن امتلاك التلفاز يعني عدم الرغبة في جعل الطفل متطرفاً مقارنة بأصدقائه، إن صدق هذه الحجة مشكوك به، ويمكن تفسيرها بإلقاء اللوم على الآخر، أكثر من تفسيرها بالكرم التربوي الاجتماعي.

ولكن يبدو على كل حال مؤكداً أن مشاهدة التلفاز هي أيضاً طريقة للاندماج في مجموعة الأقران، إن مشاهدة نفس البرنامج، أو نفس الفيلم يسمح في الغد بالمشاركة بنفس النقاشات ونفس اللعب المشترك مع الأطفال الآخرين، ويمنح مرجعية (نحن لا نجرؤ على استخدام كلمة «ثقافة» في هذا الموضع) مشتركة ولكن عابرة، ويجب عند تقييم هذه النقاشات بين الأطفال حول برنامج معين أن نضعها في موضعها المناسب.

فمشاهدة الصور المتحركة والأفلام والمسلسلات لا تثير فضولاً يتجاوز تعابيراً مثل «لذيذ» أو «رائع» أو «لابأس»، وربما في لحظات عابرة من دردشة طويلة وصفاً حاكياً بالصوت* لمطاردة بالسيارات في شوارع

* حاكية صوتية: كلمة يحكي صوتها صوت الشيء الذي تصفه.

لوس أنجلس أو سان فرانسيسكو، غير مفيد ولا يهم أحداً؛ لأن الجميع شاهد بأم عينه السيد هاري يصفي حسابه مع كل أولئك «الأوغاد». وبالتأكيد كل هذه «الحوارات» تنتهي كالآتي «غداً يوجد فيلم لرامبو على المحطة الثالثة، وإذا لم أتمكن من رؤيته، فسوف أسجله على شريط فيديو». إن المتع التلفازية ليست قابلة للاسترجاع، لأنها آنية أو متعلقة بالمستقبل القريب المنظور.

لا يعلم التلفاز اللغة؛ لأنه أولاً وقبل كل شيء ليس سوى مُشاهد، فاللغة بوضوح ذات جانب اجتماعي ووظيفي، ويحتاج تعلمها لعلاقة تبادلية مع الطفل حتى يتمثلها، «يتكلم الأطفال بنفس طريقة كلام والديهم؛ لأن هؤلاء وليس التلفاز يلبون حاجاتهم» هذا ما تقوله باربارا. أ. فولز.

ليس التلفاز عاجزاً عن تعليم الطفل الكلام فحسب، ولكنه لا يدفع للحوار بين الأطفال حتى عندما يشاهدونه معاً. «ميريه شالفون الصحفية ومنتجة برامج الأطفال، أظهرت أن التلفاز هو وسيلة سيئة للتعلم، وأن «الشاشة تعيق تعلم اللغة».

أولاً: « لأن التلفاز سريع والصورة تتبعها صورة، (...) إنه لا يدع الوقت للتفكير، ولا يسمح بالرجوع للموضوع بتؤدة، كما نفعل في عبارات الكتاب الذي نقرؤه، ولا يمكن له أن ينطبع في الذاكرة لوقت طويل، إن من النتائج الأخرى لهذه السرعة: ضرورة فهمه سريعاً...».

ثانياً: «مبدأ عمل التلفاز هو تتابع الصور، وهذا لا شيء فيه، ولكنه أصل العلة، إن التلفاز لا يعين على التمكن من اللغة لأنه من غير المفيد تسمية ما نرى، إضافة إلى أنه يميل إلى تحويل الأحداث والأفكار إلى عرض

ومشاهدة، وبما أنه يزُود بالصور، فإنه يخاطب العاطفة أكثر من مخاد العقل، ويُـزود بحساسية وشفافية تجاه الأشيـاء أكثر من تزويده بمعا, تتعلق بها».

الطريقة الأمريكية لحياة التلفاز

حالة الولايات المتحدة:

- البرامج مستمرة 24 ساعة في اليوم.
- صباح يوم السبت: ثلاث محطات مخصصة بالكامل للأطفال من 2-11 سنة = 33 مليون طفلاً.

الشتاء: 2-5 سنوات: 4 ساعات و 46 دقيقة في اليوم.

6-11 سنة: 4 ساعات و 14 دقيقة في اليوم.

الصيف: ساعتان تقريباً في اليوم.

المعدل السنوي للمشاهـدة: 3 ساعات و39 دقيقة في اليوم، وهذا يساوي 24 ساعة بالأسبوع، وهذا يساوي 1300 ساعة في السنة.

يقضـي الطفل الأمريكـي أمام شاشة التلفاز عـدد ساعات يفوق عدد الساعات التي يقضيها في المدرسة.

87% مـن الأطفـال يشاهـدون برامـج ليست مخصصـة لهم! معلومات مستقاة من محاضرة ألقتها الدكتورة كارين بوتشي طبيبة ملحقة بإدارة الخدمات الصحية للتعليم الحكومي بمقاطعة جنيف.

لوكارنو، تشرين أول 1990م.

ثالثاً: «يتوجه التلفاز إلى كل الناس بنفس الوقت، ولا يمكنه أن يلاحظ مستوى كل شخص على حدة، وهذا أمر يجب مراعاته في كل إجراء تعليمي. وهكـذا يتعلم الطفل أموراً جديدة دون أن يعرف أين تجري، وبدون إدراك لوسطها الجغرافي أو التاريخي أو السياسي».

سواء كان ذلك ضمن العائلـة، أو بين القُرناء، لا يُولد التلفاز موضوعاً للحديث، ولا يسهم في إغناء المفردات الفاعلة، وذلك لأن اللغة المستخدمة في الرائـي معظم الأحيان هي ثمرة حديث أو لغـة ناطقة بأسلوب مباشر. الأزمنة اللغوية بسيطة، ويستبدل الاسم، والتعجب هو السائد، الكلمة ليست سوى أداة تخريب لآلهة الصورة، التي تحكم الدين المهبطي الجديد.

اللعبة ـ الألعاب

إضافـة إلى اللغة يشكل اللعب أحـد العناصر المهمة التي تسهم في بناء وتطـور شخصية الطفل، ويُعرف الاختصاصيون النفسيون والمربون اللعب علـى أنـه نشاط جسـدي أو ذهني دون هـدف مفيد بالضـرورة نلجأ إليه للحصـول فقط على المتعة التي يعطينـا إياها، فإذا تمسكنا بهذا التعريف الوحيـد والموجـز فسيكـون بحوزتنا في النهايـة! دور نبيـل استُحدث لهذا التلفـاز صيـاد الأطفال المثير للجلبـة، وكما هي الحـال في اسكتش فرنان رينـو حول «البرتقالات»، يبقى علينا فقط إزالة بعض الألفاظ من الإعلان المُغري «التلفاز هو اللعبة».

هل مشاهدة التلفاز نشاط جسماني؟ حتى وإن مررتم مرور الكرام على الفصـل المخصص للصحـة الجسدية للطفل مدمن التلفـاز، فإن الجواب على السؤال واضح دون نقاش، إلا إذا اعتبرتم أن الطاقة المصروفة لتحريك سبابة اليد اليمنى التي تقلب المحطات تستحق أن توصف بكلمة الجهد.

هل مشاهدة التلفاز نشاط فكري؟ لعلمنا بأن كل حالة وعي ـ بما في ذلك النوم ـ تسبب فعالية دماغية، فإن بإمكاننا أن نتخيل أن مشاهد التلفاز عندما يكون في أقصى درجات تفاعله مع ما يشاهد يُبقي بعض الخلايا العصبية في حالة التأهب، ولكننا لا نعطي أي قيمة لعبية أو تأهيلية للمشاهدة السلبية، ونضم بذلك رأينا إلى رأي أ. ماكارينكو الذي يصرح بمايلي: «في كل لُعبة مفيدة، يوجد أولاً جهد جسدي وجهد فكري (...). إن لُعبة دون نشاط أو بذل جهد هي لُعبة سيئة دائماً، يمكننا أن نواصل الشرح، ونتابع تحليل عبارات مثل «اللذة المستفادة» و «بدون فائدة»، ولكن يبدو لنا أن هذا الأمر غير مفيد؛ لأن الشرط الأول لكل لُعبة يبقى الحركة، وأن العطالة التي يقتضيها «فعل» مشاهدة التلفاز تبدو لنا أكثر قدرة على خنق النشاط منها على تحريضه بطبيعة الحال: فإذا لم يكن التلفاز لُعبة بحد ذاته، فهل يمكنه أن يوحي للطفل باللعب؟

بالتأكيد نعم؛ وخاصة عند الأطفال الأصغر سناً الذين يجدون في أبطال صورهم المتحركة مصادر ثرة لمشاهد لعبية.

مصادر غنية؟ ليس بالتأكيد!.

إن المربيات في دور حضانة الأطفال، ومدرسات الأطفال في الأعمار الصغيرة اللواتي يشهدن عن قرب ـ أطفالنا الصغار ،يؤكدون وجود نقص واضح في لَعِب الأطفال، وفي لغتهم وحتى رسومهم بعد مُدَدٍ من المشاهدة الطويلة للتلفاز (الطقس السيئ ــ الفصول الباردة)، وهذا ينطبق خصوصاً على الذكور الذين يبدون أكثر قابلية للتأثر بالتلفاز من البنات في هذا العمر؟ أما ما يتعلق بالإبداع والقدرة على الاختراع، وهما هدفان

أساسان للعب كأداة لبناء الشخصية، فإن التقليد الحرفي غالباً للمشاهد المرئية في الليلة السابقة لا يدع لهما أي مجال.

السيدة لوفنت سيكوس التي تعمل كمدرسة كتبت: «ما يثير القلق بالنسبة لنا كمدرسين هو ملاحظة كيف يلعب مسلسل تلفازي مثل سلاحف النينجا دوراً هداماً في القضاء على عالم الخيال والإبداع عند الطفل، أصبح اللعب الذي يعتبر أداة أساساً في نمو الطفل وتطوره إعادة دقيقة لآخر حلقة شاهدها من سلاحف النينجا، ونجد فيه اللغة نفسها ونبرة الصوت والحركات ذاتها، وويل للطفل الذي لم يهتم بشخصيات المسلسل لأنه سيتم استبعاده من المجموعة. لقد وصلنا لدرجة أن على الطفل الذي يُقبل في اللعبة أن يقلد كالقرد إحدى سلاحف النينجا ليظهر كفاءته في اللعب! ربما كان هذا النمط من السلوك موجوداً دائماً، ولكن عندما نطلع على فحوى هذه المسلسلات، فلابد أن يصيبنا الهم!

إن من سوء حظ المدرس أن هذه الشخصيات لا تظهر فقط أثناء لعب الأطفال، وإنما في رسومهم كذلك، وفي نشاطاتهم اليدوية، وفي طريقة كلامهم، إن لم يكن في مجيئها للمدرسة بشكلها البعيد عن الحس الجمالي، وهذا تعبير عن استمرار حتمي لدعايات تجارية تظهر على التلفاز خلال مسلسلات الأطفال» انتهى كلام لوفنت سيسكو.

وهنا يظهر على السطح سؤال مهم: ألا يمنع التلفاز الذي يستهلك بشراهة الوقت المخصص للهو الطفل من الاستمتاع بكثير من فرص الاحتكاك الاجتماعي، كاللعب الحقيقي مع أصدقائه والرحلات والنشاطات خارج حيز المدرسة؟

ولابـد لنا من أن نُذَكِّر بأن معظـم الأطفال يبقون جالسين أمام التلفاز لأنـه ليس لديهم خيـار أفضل، فلو استطاعـوا أن يختـاروا لاختار الكثير منهم الخروج مع والديهم أو اللعب مع أصدقائهم. ويذكر كلاً من شالفون وكورسيـه أن: «مـن الأمور العجيبـة أن التلفاز أصبح للكثـير من الأطفال ملجـأ ووسيلة وخياراً ثانياً لشغل الوقت: فإذا كان بإمكان الطفل أن يختار بين عدة نشاطات ترفيهية، فسنلاحظ أن «مشاهـدة التلفاز» تأتي بنسبة (11%) مـن الخيـارات، بعـد «ممارسـة الرياضـة» (36%)، و«الذهـاب للسينمـا» (20%)، أو «الخروج مع الأهـل أو الأصدقاء» (12%). فكما هي الحـال بالنسبة للبالغين يبـدو أن سحر الرائي قد انتهـى وغدا واحداً من الأدوات المنزليـة الكهربائيـة العاديـة الذي يُلون الحيـاة، ولم يعد مصدر شغف كبير».

أمـا بويان ودارتيفيل فيصلان إلى نفس الاستنتاج عند المراهقين: «تبدو مشاهـدة التلفاز كنشاط عائلي لابد منه، وخضـوع للنظام العادي الرتيب. وقـد وصل درجة من الاهتراء والاعتياد حتى أننا لم نعد نطلب منه سوى أن يكون حاضراً، ولو كان الأمر عائداً إليهم في قضاء سهرتهم، لاختار تسعة من أصل عشرة مراهقين أن يمارسوا بعض الأعمال المنزلية اليدوية، أو الذهاب للسينما. أقل من 10% سيفضلون التلفاز على النشاطات الأخرى».

وعلى غرار الكثير من الكُتاب لا يمكننا إلا أن نلاحظ التناقض الواضح في مواقف الأهل مع أطفالهم بخصوص التلفاز، إنهم يريدون من أطفالهم أن يلعبوا، ولكنهم يرغبـون برؤيتهم مسمرين أمام التلفاز عندما يرغبون بالحصـول علـى الهدوء، ولابد لنـا أن نكـرر: إنهم بحاجة لمربيـة أطفال

منزليـة (التلفاز) تتقاضى أجـراً زهيداً قدره 25 قرشـاً بالساعة (وهذا أجر لا يمكن منافسته خاصة وأنها خدمة متوفرة في أي وقت!).

إن البنت البكر لأحـد مؤلفي الكتاب بعد عودتها من إقامة دامت عاماً عنـد عائلة أمريكية تقول بشيء من الدعابـة: «هنا بمجرد أن يجلس أخي الصغير لُوان أمام التلفاز تقيمون الدنيا وتقعدوها لتدفعوه للخروج واللعب خارج المنزل.

أمـا في أمريكا، فإذا عـادت الأم ولم تجد طفليها مُسمرين أمام شاشة أحـد أجهزة التلفاز، فإنها تبحـث عنهما في كل الحي لتقنعهما بأن التلفاز يعرض برامج رائعة تناسبهما، وأن عليهما العودة للمنزل مباشرة!».

الرداءة ليست قدراً

يبـدو أن البالغين أصابهم الإحبـاط، وأنهم يقفون عاجزين أمام التلفـاز، هـذا إن لم يكونـوا مفتونين بـه، إن تلفاز الصبـاح يعطينا المثـال على ذلك، في عـام 1984م، 94% من النـاس الذين استجوبوا أجابوا بأنهم لا يسمحـون لأطفالهم بمشاهدته، وبعد ثلاث سنوات، أصبـح 27% من الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 7 و 10 سنوات يتناولـون فطورهـم وهم يتمتعـون بمشاهدة الرسـوم المتحركة قبل ذهابهـم إلى المدرسـة! «أصبح التلفاز موضوعـاً تجارياً، ولم تعد له أهـداف الخدمـات الحكومية، فمـاذا بإمكاننا أن نفعـل؟....» هذا هـو التعليق السهل الـذي نسمعه غالباً، ولكن أليس هـذا سبباً كافياً يدعونـا للمطالبـة بالقليل من الشـروط؟ إن المُنتَج الـذي لا يجد له راغبـاً يُسحـب من السوق، فـإذا كان الأطفال مصـدراً من مصادر

دخل محطات التلفاز، أفلا يحق لهم ـ ككل مستهلك ـ الحصول على النوعية الجيدة والخيارات المتعددة والتنوع؟ فإذا كنا نقبل بالمنطق التجاري فدعونا نصل فيه إلى نهايته، إن إعادة بث مسرحية يكلف أقل من «صور شبه متحركة»، إن فيلماً وثائقياً جيداً يمكن له أن يعاد بثه بانتظام، فجمهور المشاهدين من الأطفال له ميزة التجدد بسرعة (ففي فرنسا 750000 ولادة سنوياً). كما أن تقريراً مصوراً يمكن له أن يُصدّر للخارج، وهذا لا ينطبق على البرامج الحية المباشرة المُؤسِفَة، فالرداءة ليست قدراً.

هل الفتاة تبالغ مستهزئة؟ ليس تماماً... فما حصل في الولايات المتحدة قبل 4 سنوات، هو دون شك ما يحصل في فرنسا أو سويسرا في العام 2000م أو قبل هذا التاريخ إذا اعتمدنا على تصريحات لوان الذي يعود من اكتشافاته مع أصدقائه في شوارع القرية قائلاً: «لا توجد قطة في الشارع، فالجميع يشاهد التلفاز!».

أمريكا على أبوابنا: هذا ليس مدعاة للفرح! وخاصة إذا أتحنا الفرصة لألبرت أينشتاين الملاحظ الدقيق ليقدم للفصل اللاحق المتعلق بالثقافة: «مرت الولايات المتحدة من الهمجية مباشرة إلى الانحطاط دون المرور بالحضارة».


الطفل: أنا دائماً أري
والدي دفتر علاماتي أثناء
مشاهدته لمباراة كرة القدم.
الأب ـ دون أن يشاهد دفتر
العلامات ـ: نتائجك جيدة جداً!
اذهب إلى سريرك، وسنرى
الأمر فيما بعد!
%

«لا تموت ثقافة إلا بسبب ضعفها»
أندريه مالرو (1901م ـ 1976م)
كتاب فتنة الغرب

الفصل السادس

أي ثقافة نختار لأبنائنا؟

«ليس التلفاز سوى أداة، يمكن أن تسخر للخير أو الشر، ولا أحد يستطيع أن يدعي بطيب نية أنه لا توجد برامج مفيدة تربوية وتكوينية وثقافية!». إن هذه الحجة التي يلجؤون إليها كثيراً لإقناعنا تبدو مقنعة للوهلة الأولى، وتستحق أن نعلق عليها.

أولاً: وبحكم كوننا مدرسين لا يمكننا إلا أن نفخر بجميع التعابير مثل: «تربوي» و «تكويني» و«مفيد» و«ثقافي». وهذا يظهر مدى احترام الناس للمدرسة القائمين عليها بشكل خاص، ولكننا لسنا مقتنعين بأن المؤسسة التعليمية الحالية تستحق دائماً هذا المديح، فعندما نضعها تحت الأضواء، ونراها بأعين الوالدين والصحفيين والأوساط الاقتصادية والسياسة، فإن نعوتاً أخرى أقل إطراء تنطلق غالباً عن علم ودراية.

الثقافة وانعدام الثقافة

وعلى كل حال فالمدرسة ليست موضوع حديثنا، ولنعد إلى أغنام بانورج وراعيتهم (مثل فرنسي يعني العودة إلى الموضوع الأصلي) أي التلفاز! فكلمة «ثقافة» قد أطلقت، وكلما حاولنا أن نتخيل أثراً إيجابياً للتلفاز على

الأطفـال، فإننا نسمع الكلمة البديهية ثقافي، ولكن ما الثقافة؟ فكل إنسان عنـده فكرته الخاصة، أو مَوّالَـه الفكري الصداح حـول الموضوع. حتى لو كانت التعاريف متضاربة أو متناقضة فكل شخص مُحق، فالثقافة موجودة تحت اللحـاء أو بين اللحاء ولب الساق، وفي الشكل أو المضمون، وفي القلب والنفس، وهي أي شيء نعطيه قيمة نابعـة من أنفسنا، فمثلاً هناك ثقافة عُماليـة و ثقافـة فنية و ثقافة فكريـة، وثقافة رأس المـال، وثقافة الشارع، وثقافـة الكوكاكـولا.... فهل ماندلسون أكثر ثقافة مـن إيلفيس بريسلي أو فرقة المسدسات والورد بالنسبـة لي؟ وبالنسبة لابني؟ وبالنسبة لجارتي؟ وبالنسبـة للاجـئ سياسي من رواندا؟ أو بالنسبـة لدوروتيه أو جان ماري كافادا؟

الثقافـة؟ هل هي شبكة أم غربال يستطيـع كل إنسان أن يحجز بها ما يريد أو يستطيع حجزه، أو نادراً ما يجب عليه الاحتفاظ به؟

مـا الشيء الأهم معرفتـه؟ اسم آخر زوجة لجوني هاليـدي؟ أم نهاية الحلقـة 128 من الموديلات الراقيـة؟ أم نتيجة مباراة كرة القدم المشهورة بـين فرنسا وبلغاريـا؟ أم اسم عائلـة رئيس القوة العسكريـة الصربية في البوسنـة؟ كل شيء مهم أولا شـيء له أهمية، وذلك يتبـع المزاج، والفراغ والمصلحـة والميـول... إذاً فلماذا لا نقبل أن يكـون هنالك « ثقافة تلفازية» كذلك؟ ولكنها حتماً ليست ثقافة وحيدة وإنما ثقافات، والأفضل استخدام تعبـير: عناصـر ثقافية، ليـس التلفاز سـوى «مُسوّدُة ثقافـة» هائلة، حيث يختلـط و يتشابـك ويضطـرب كل شيء لـدى الطفل المهمـل المتروك دون اهتمـام، كم أعلناهـا مُدوية حاجة الطفل «للعب الفاعـل» ليتطور بتوازن. فالطفـل أمام الشاشة وتتابع صورهـا لا يمكنه أن يختار منها إلا بناء على

قاعـدة من التجـارب الشخصية ذات صلـة بالواقع، ومبنيـة على تواصل وحـوار مـع البالغين، ليبني مـا سيكـون بالتدريج قيمه وثقافتـه الراسخة يحتـاج الطفل لقواعـد متينة ثابتة وخاضعـة باستمـرار للنقاش والحوار والمواجهة مع الأهل.

وهذه حتماً ليسـت وظيفة التلفاز. فليس للتلفاز مهمة سوى اللهو ولفت النظر بأي طريقة، وهذا ينطبق على الصغار و الكبار، فالتلفاز يشبع بل و يتخم الجميع بحسائه:

قبضـة من الفنـون، وما يشبـه البرامـج الأدبية، وملعقـة صغيرة من الأفـلام الوثائقية، وأباريق من الرياضـة، وأوعية لفتٍ من المسلسلات فئة ب وج، وقدور من الألعاب، وأي شيء يجذب الجمهور، و منوعات، وبراميل عروض حية من تلفاز الواقع، هل تقبلـون؟ حسناً. أم ترفضون؟ للأسف، وسنحـاول أن نحسن الأمـور في المرة التالية، وبمـا أن التلفاز متمسك بك ويهمـه أمـرك، فهو حريص علـى أن يعرض عليك ما يعجبـك، ويبدو أن مـا يُعجب الجمهور في سويسـرا و بلجيكا و فرنسا والبلـدان الغربية،ليس بالضـرورة ثقافـة تقليدية مُعترف بها مـن قبل طبقـة اجتماعية و فكرية نخبويـة، يشرح برونـو لوساتو الدقة البالغة لظاهـرة الثقافة = الملجأ «في المسـاء عندما تُبث مقطوعة رائعـة لموازر يعزفها كارل بوهـم تصل نسبة المشاهـدة إلى 2% من الجمهور بالكاد، مقابل 16% في ألمانيا، أما التلفاز الفرنسـي المنافـسـ فيلـم عصابات من الفئـة ب ـ فيحصـد 60% من المشاهديـن، ثم نأتـي بعدها و ندافع عن الثقافة! حتـى كبار المسؤولين في التلفـاز الحكومي لا يجرؤون على الدفـاع عن الثقافة خوفاً من أن يظهروا بمظهر النخبويين.

ولنتكلم بمنتهى الصراحة مهما كانت قيمة أو نوعية أو الأهمية الحيوية لبرنامج تلفازي، فإنه إن لم يحصل إلا على اهتمام شريحة ضيقة من «المثقفين المقتدرين»، يصبح برنامجاً نخبوياً، ومن ثم محل جدل محتدم؛ ويجب استثناؤه من الثقافة الشعبية الشابة فاقدة الجذور، إن محاولة توجيه برنامج مخصص للنخبة (الرجعية، البرجوازية، المحافظة ...إلخ) إلى أكبر عدد من المشاهدين يدل على توجه نخبوي!».

ابن الدعاية

«الهواء الذي نستنشقه مكون من آزوت وأوكسجين و دعاية ...»

«إذا كنت ترغب فعلاً أن تحقق مبيعات كبيرة، فعليك أن تستخدم أطفالاً كمساعدي بيع، فالطفل يروج للبضاعة، فهو يثير أعصاب أمه وأبيه حتى يجعلهم يشترون له ما يريد»، صرح بهذا مختص بالموضوع في المجلة الأمريكية عصر الدعاية.

والوسيلة المفضلة للتأثير على الأطفال هي التلفاز، أولاً: لأنه وسيلة لهوهم المفضلة: فهم يخصصون له 40% من وقت فراغهم، ويخصصون 12% من ذلك الوقت للمطالعة (وذلك عائد لأن المطالعة تحتاج إلى التمكن من القراءة، وهذا ليس ضرورياً لمشاهدة التلفاز).

إن الأطفال الأمريكيين «يمتصون» بحسب إحصائية فانس باكار 20000 مشهد دعائي في السنة، إن الدعاية التلفازية هي الأكثر تقديراً من قبل الأطفال (96%) وتليها دعاية المذياع (40% في استطلاعات الرأي)، وتليها الدعاية بالإعلانات في الطرق (34%) والدعاية في المجلات (34%).

نعم هذا صحيح! ولكن للتلفاز قيمه الخاصة وثقافته التي تُسمى «أوديمات»، وله إحصائيات مشاهدة وله اعتباراته المادية!

والأطفال ليسوا منسيين في هذا السباق على الربح، وخاصة من قبل المُعلنين على التلفاز.

ففي العام 1988م خصصت المجلة الفرنسية تيرسييل استطلاعاً للرأي يُوضح هذه الفكرة: «إن حجم الاستهلاك يبلغ 400 مليار فرنك فرنسي». وبين هذا الاستطلاع أن الأطفال المُولَعين بالإعلانات لهم القول الأخير في 15% من مصاريف العائلات الفرنسية.

فاليوم البرامج التلفازية المخصصة للأطفال تسبقها و تليها وأحياناً تتخللها رسائل دعائية غرضها الترويج لسلع استهلاكية للأطفال مثل: الألعاب و ألعاب التسلية والحلويات، وللأهل كذلك؛ مثل اللبن والمنظفات ومعاجين الأسنان والأطعمة المجمدة، أو أطعمة القطط. إن مصنعي هذه المنتجات الأخيرة يعرفون قدرة الأطفال على إقناع أمهاتهم المُتعبات عصبياً اللواتي يدفعن عربة التسوق في سوق تجاري يغص بالزبائن.

الذاكرة والبيئة والمرجعية

«الثقافة هي ما يتبقى في الذهن عندما ننسى كل شيء» إننا نتذكر عندما كنا مراهقين كم وقفنا حائرين أمام موضوع تعبير يتعلق بهذه الفكرة، وبعد مرور ثلاثين عاماً فنحن ما زلنا مقتنعين بسطحية الفكرة.

فنحن إذا نسينا كل شيء، فلن يتبقى منا سوى شخص فاقد للذاكرة أو معتوه.

إن موضـوع الثقافـة هو مشكلـة ذاكرة قبل أي شيء آخـر، وإن تركيب جسدنـا يقتضي ألا تكون الذاكرة فعالة إلا إذا اعتمدت على مرجعية ثابتة ترتبط عناصرها ببعضها ارتباطاً وثيقاً.

إن الذاكـرة ليست رُكاماً من الذكريات أو الصـور لا يُعرف رأسها من ذنبها، ولكنها عملية تولد أفكاراً جديدة يمكن استخدامها مباشرة اعتماداً على تجاربنا السابقة التي نُوليها اهتماماً وأهمية خاصة، ولكن ماذا يفعل التلفاز مـن خلال برامجه التي تُراعـي كل الأذواق، وقِـدره الثقافية التي تصهـر وتخلط كل الأفـكار، وفوقها هـذه التقنية الرائعـة المُسماة بجهاز التحكم عن بعد؟

يسقـي التلفاز الطفل بل يغمره ويُغرقه بسيل مُستمر من المعلومات غير المترابطة وغير المتسلسلة.

هذا الموزاييك أو المزيـج أو المشكال* من المشاهد المانوية* غالباً يجعل الطفـل يظن بأن كل شـيء له قيمة، وبأن الشيء وعدمه لهما نفس القيمة. وهذا يؤدي للبلاهة وانعدام الثقافة.

إن معرفة هذا الأمر تشكل صدمة قاسية للطيبين الذين كانوا يعتقدون أن الرائـي يمكن لـه أن ينشر بين الناس عامة مـا كان مخصصاً للنخبة. وهـذه الصدفة تشابـه تلك التي تلقاهـا أصحاب المبـادئ الكرماء الذين كانوا يتخيلون قبل عدة عقود الوصول إلى مدرسة تقوم على المساواة وتزيل الفوارق الاجتماعية والثقافية.

---

* المشكال: آلة أنبوبية تحتوي على مراء مركزة حيث إن الأشياء الصغيرة الملونة الموجودة معها في الأنبوب تتحرك فتولد رسوماً مختلفة الأشكال والألوان.

* مانوي: صفة من مذهب ماني الفارسي صاحب عقيدة الصراع بين النور والظلام.

المدرسة والتلفاز وهما بنتا مجتمعنا تتجهان على ما يبدو نحو غاي غير تلك التي وُضعت لها، إن الحالمين اللطفاء نسوا ببساطة الدور الأس الذي يلعبه الوالدان في تربية وتحضير الأطفال.

حدثني عن ثقافة الجنس

إن المهووسين بالتلفاز مولعون بالجنس

تعتقد محطة التلفاز الفرنسية الأولى TF1، إضافة لتجار الصور الآخرين، أن بإمكانها الوصول عن طريق إغواء المشاهدين البالغين الذكور إلى مستويات مشاهدة عالية جداً تُقارب تلك التي تحصل عليها برامج مخصصة للكبار مثل «هيلين والصبيان»: الدياثة[*] ثم الجنس، إن العائق الوحيد في وجه تطور هذه التجارة الجنسية هو الهيئة العليا للإعلام (CSA)، التي تلعب دور الشرطي بالنسبة لمحطات التلفاز، ولكن هذه الهيئة أُستُهزئ بها عندما منعت عرض فواصل دعائية تتعلق بمستحضرات تستخدم للاستحمام، وأخرى لشركة بيجو للسيارات، وبسبب الحملة الشعواء عليها تكتفي الهيئة بتقنين أوقات عرض الأفلام والمشاهد الإباحية (الإباحية «الخفيفة») بعد الساعة الحادية عشر ليلاً، والجنسية الفاضحة بعد الثانية عشر ليلاً وحصراً على القناة الزائدة Canal plus، والقناة عبر الكبل المدعوة السينمائية Ciné-cinémas، والعودة إلى التصنيف الموجود لصالات السينما، يبدو هذا الحل كسولاً ولكنه فعال.

ولكن في بداية أيلول ستجد الهيئة العليا للإعلام نفسها وقد تجاوزتها الأحداث، فالمزيد من المنتجات الإباحية ستأخذ شكل الأفلام التلفازية التي لا تعرض في صالات السينما.

(*) الديوث في العربية هو الذي لا يبالي بانتهاك عرضه.

ثـم وبحسب مـا نشرتـه المجلـة الأسبوعيـة الاختصاصية (CB News)، فـإن رجـال الإعـلام الخبيثـين قـد وجدوا طريقـة أخرى للعرض. فالمجموعة الإعلامية المشهورة كارا تُعد ما تسميه «الدراما المخصصـة للكبار»، وهـذا يعني أفـلام عادية (مغامـرات ـ حب ـ ...إلخ) تُشبع بأكبر كم ممكن من المشاهد الإباحية.

وبفضـل هذه التورية فإن الهيئة لـن تفقه شيئاً، وستصل الأفلام لجمهـور المشاهديـن الذيـن يشاهدون التلفـاز في السـاعـة الثامنة والنصف مساءً، وهذا سيمنع الصبية من التسكع في الطرقات.

سيرج ريشار في الجريدة المشهورة «البطة المصفدة» في 1993/8/18.

إن الأمـر دون شـك خطـير بالنسبـة للمدرسـة التـي تستمـر نفاقـاً باستخـدام لغتـين متناقضتـين إحداهـا احـترام الطفولـة، والثانية هي الاصطفاء الاجتماعي الضروري والمتكبر بآن واحد، وهذا الأمر أهون على التلفاز حتى يثبت العكس، فالرائي ليس علمانياً أو مجانياً أو إجبارياً، وهو بالخصوص لم يَدَّعِ أبداً أن مهمته التعليم أو التثقيف، علينا أن نتقبل هذا الفانوس السحري الحديث العهد، ولا ننتظر منـه أن يثقف أو يُربي أو أن يُشرف على متابعة أبنائنا بدلاً منا.

ولنـترك مهمة تلخيص الموضـوع للسيدة بيتلهايم المُربيـة و الإعلامية الأكثر جدارة منا، فالباب من الكتاب الذي نحن بصدده مُغرق في التشاؤم، و يدفعنـا لإلقاء جهاز التلفاز في الشارع، وهـو الحل الأسهل، أو إلقاء هذا الكتاب ومؤلفيه على قارعة الطريق: «التلفاز هو وسيلة إعلام صُنعت بغرض الترفيه؛ وإنها لا تساعد أبـداً على استخدام المحاكمة العقلية المتوازنة، أو

دراسة محاسن أو مساوئ قضية ما، فلا يمكننا أن ننتظر من وسيلة إعلام ما هو مُناقض لطبيعتها.

إن المعلومات التي نحصل عليها من خلال برامج التلفاز تميل لأن تكون ممثلة لرأي واحد، إضافة إلى كونها بسيطة لحد السذاجة وغير مُحايدة. ولذلك فإن الطفل الصغير لن يتعلم شيئاً يُذكر من خلال مشاهدة أفضل برامج التلفاز، وحتى تلك المخصصة لسنه؛ لأن تجربته في الحياة محدودة جداً، أما البالغون والمراهقون فلهم نظرة إلى التلفاز بحكم خبرتهم تسمح لهم بتبني موقف ملائم، وكي يتمكن الأطفال من القيام بذلك فهم بحاجة لمساعدة الراشدين.

«لا يمكن لأحد أن يكون مسؤولاً ويصاب باليأس بآن واحد»

كتاب طيار حربي للكاتب إيكزوبري (1900م ــ 1944م)

الفصل السابع

ما العمل؟
ماذا على كل أن يفعل؟

إلى القـراء الذيـن تحلوا بالصـبر بمرافقتنا حتـى الآن، أو إلى الذين قلبـوا بسرعة فهرس الكتاب ليصلوا إلى البـاب الأخير، كي يحصلوا على بضـع وصفات سريعـة ورخيصة ليحلـوا مشكلة أطفالهـم والتلفاز، نحب أن نقـول وبأعلى صوتنـا: بأنهم لن يجدوا خلال الصفحـات التالية خطة يتبعونها عامة ومنقذة بآن واحد.

أولاً: لأنه لو كانت هناك خطة فنحن لم نجدها بعد، ثم لأننا نرفض أن ندعـي الحق والكفاءة في «إعطاء الدروس» في مجال كثرت فيه المتغيرات النوعية والاجتماعية والتعليمية وتنوعت.

الوالدان اللذان لا يمكن استبدالهما

إن استنتاجـاً تخلص إليه كل الكتـب والدراسـات واستطلاعات الرأي والوثائـق المتعلقة بالتلفـاز والأطفال هو: أنّ دور الوالديـن والوسط العائلي الأساس في التعلم واكتساب المهـارات، وفي إدارة الوالدين والوسط العائلي الأساس في التعلـم واكتساب المهـارات، وفي إدارة هـذه الوسيلة الإعلامية المدهشة والمثيرة للجنون بآن واحد والسيطرة عليها، والتي تُدعى: التلفاز.

أمـر بَدَهِي؟ ربما! ولكننا نعتقد أن الطريقــة الأمثل هي نسبة كل شيء لفاعله، وأن نعيد للأهل مهمة تربية أطفالهم، فمن جانب يجب علينا دعم الوالديــن في دورهــم كأول المربــين، ومن جانب آخــر تشجيعهم من خلال تأكيد فكرة أن الوقت ليس متأخراً لزيادة الجهد المبذول.



إن إلقــاء مسؤولية ثقافــة تلفازية سليمة على عاتــق الوالدين فقط هو لبس إلزام قيصر بما يجب أن يفعله بونس بيــلات، ولكنه دليل على جهل مُطبــق بقدرة الوالديــن على التربيــة، وبالوقت والجهــد اللذين يمكن أن يخصصهما الوالدان لهذا الأمر.

لا شك في أن دور العائلة هو الأساس في هذا المجال، كما هي الحال فيما يتعلق بالنجاح المدرسي، و إن الفشل الواضح لمحاولة مساواة الفرص أمام الدراسة يُظهر بجــلاء استحالة إزالة الفوارق الاجتماعية والثقافية، حتى في مؤسســة لهــا جدية و نظام وترتيب المدرســة، إضافة إلى كونها مجانية وإجبارية.

فالتلفــاز ســواء أحببنــاه أم كرهناه هــو الآن وسيبقى وسيلــة الترفيه السهلــة والمفضلة لدى العديد مــن بني البشر، وعند الأغلبية الساحقة من أطفالنــا، إن مُحبي التلفاز النادرين مثل آريــان و فرانسوا ماريبه يسرهم هذا الكلام، ويجدون في الساعات التي يقضيها الأطفال أما التلفاز الخيط الأحمــر الذي يربــط الطفولــة بالتقنيات الحديثــة وتطبيقاتهــا المنزلية، ولكنهــم لا يستطيعــون إســكات التســاؤلات المُبررة لكل المُربــين تجاه هذا التلفاز الذي يصطاد الأطفال.

ما العمل؟ وما مسؤولية كل شخص؟

إلى جانــب الوالديــن ـ وهما القاعدة الصلبة للتربيــة ـ رقيقي القلب، واللذيــن يتمتعــان بقدرة كبيرة علــى التحمل، يوجد شــركاء آخرون يجب عليهــم التدخــل وربما التعاون ليساعــدوا أطفالنا على جعــل هذه الوسيلة الإعلامية المسلية إلى حد كبير والمخدرة بآن واحد عبداً مُطيعاً بدلاً من أن تكون سيداً متسلطاً.

من بين هذه الأطراف المعنية بالأمر، و المصابة بالدهشة أحياناً يمكننا أن نُعدد السلطات التشريعية العديدة، ومُحترفي التلفاز، والمدرسين وأعضاء السلك التعليمي، والأطفال أنفسهم طبعاً.

إن الأمور الآتية ليست شاملة، ولا تتعدى عدة نصائح نسمح لأنفسنا بتوجيهها إلى من يعنيهم الأمر، وسواء كانت توبيخية أو غير موضوعية أو بسيطة أو حرفية فالقارئ سيحكم ويجرب ويتبنى أو يتأقلم معها بحسب رغبته وحاجاته وتعقله وشجاعته.

كيف ندافع عن أنفسنا في وجه التلاعب؟

ما العمل؟ هل هو كسر التلفاز، أم التوقف عن قراءة الجريدة؟ هذا لن يمنع المعلومات المشوهة من إحداث الخراب فيما حولكم. إذاً ماذا بإمكاننا أن نفعل في وجه وسائل الإعلام هذه التي تجتر نفس المشاهد ونفس المعلومات؟

نريد أن نختم كلامنا ببعض الاقتراحات الجدية، على مختلف المستويات، لمستهلكي المادة الإعلامية، كيف يمكننا كشف وتحليل محاولات التلاعب بالرأي بأنفسنا؟

هل من الممكن إصلاح وسائل الإعلام بشكلها الحالي؟ أو الضغط عليها على الأقل؟ هل يمكننا أن نلعب دوراً فاعلاً في الإعلام دون أن نكون من أهل الاختصاص في هذا المجال؟ هل توجد صحافة غير خاضعة لنظام الهيمنة؟ أو طريقة للقراءة الناقدة؟

الإعلام لا ينجو من قانون القوة والسيطرة الذي يتكلم عنه. فالذي ينشر معلومة يتوقع أن يكون لنشرها أثر، وصحافتنا حسب ما

تؤكـده لنا غير مستقلة، وهي ضمن المنظومة الاقتصادية والسياسية للأغنيـاء والمسيطريـن في هـذا العالم، ولذلـك فهي عندمـا تنشر معلومـة، فالموقف المنطقي يقتضي أن نتساءل من وراء هذه المعلومة، ولصالح من يتم نشرها؟

إن الحفاظ على الاستقلالية كان أسهل، ونشعر بذلك عندما نعيد قراءة مقالات كُتبت قبل ثلاثين أو أربعين عاماً، في مقالات تلك الحقبة حول حرب المستعمرات في الجزائر أو فيتنام يمكننا اليوم أن نستشف بسهولة أكبر المصالح الاقتصادية غـير المعلنة، والعنصرية والأفكار المسبقة المبنية على نظريات أديولوجية مبطنة، اخترع المؤرخون طرق «النقد التاريخي» التي تسمح بتقييم دقة الوثائق وشهادات الناس على مـا حصـل في الماضي، إن الأمر المثالي هـو أن نستطيع قراءة جريدة حاليـة بنفس الرؤية، ونفس النظـرة الناقدة أمام أي معلومة وخاصة تلك الصـادرة عن وسيلة إعلام تدعي الحياديـة والاستقلال، إليكم خمسة أسئلة أساسية يجب عليكم طرحها.

1. من أصل المعلومة؟

2. ما المصلحة الذاتية في هذا الأمر؟

3. ما الأيدولوجية التي تحرك الشخص المتكلم؟

4. هل هو ينقل لنا بأمانة وجهة النظر المخالفة، أو يدلنا أين يمكن أن نجدها؟

5. هل يوضح لنا الأسباب الحقيقية للمشكلة؟

ميشيل كولون صحفي وكاتب في الجريدة الأسبوعية البلجيكية «سوليديرِ».

العاملون في حقل التلفاز

لنتذكر أولاً أن التربية والثقافة مازالتا هدفين مُعلنين بوضوح ضمن التزامات التلفاز الحكومي.

ورغم ذلك، وتحت ضغط المنافسة فإن الجزء المخصص للتسلية قد ازداد خلال سنتين في أوربا بنسبة تزيد عن 10%، وتشكل البرامج الأمريكية التي تقترب قيمتها التربوية والثقافية من العدم 21% من وقت الإرسال على مختلف المحطات في القارة الأوربية في العام 1987م. وفي سويسرا بلد المُربين المشهورين العظام، والتي كانت إذاعتها ومحطاتها التثقيفية تذكر دائماً كمثال في السبعينات، بُرمجت على محطة التلفاز السويسرية الناطقة بالفرنسية في العام 1989م أربعون ساعة بث تعليمية فقط، وهذا يُعادل خمسة عشر يوماً في سنة مشاهدة تلفازية للطفل.

تصرح بوليت مانيونا - المسؤولة التربوية، ومنتجة البرامج في المحطة الثقافية -: «تُعرض البرامج التربوية في أوقات المشاهدة الضعيفة، وهذا يعني في أوقات من النهار يستحيل فيها الحصول على نسبة عالية في سوق المشاهدة، فالنسبة للتلفاز السويسري الناطق بالفرنسية، لا يعتبر تثقيف الأطفال والبالغين من مهامه ذات الأولوية!» الكلمة المتداولة على الألسن هي: «الحصة في السوق»! إن خصخصة المحطات الحكومية وتكاثر المحطات التجارية أدت إلى كون الإعلانات الوسيلة الضرورية للاستمرارية، وأدت حُمى نسب المشاهدة ومتابعة التلفاز لإلهاب محطات التلفاز الحكومية، وجعلت من منتجيها ومُقدميها أبناءً للدعاية والإعلان، ذوي شرف مهني مطاط إلى حدٍ كبير.

فيجب الحصول على رضا الجمهور، وأن يُقدم له ما يريد: تسلية سهلة ولُعباً جماعية ومسلسلات عاطفية و فكاهية، و أفلاماً فيها شيء من الإثارة الجنسية تُدعى أدباً أفلاماً ديناميكية... صوت الشعب!

وعندما يُسأل المسؤولون في المحطات التلفازية عن العنف أو التساهل في عرض البرامج المنحلة، فإنهم يجيبون بدون تردد: بأن مهمة التربية منوطة بالوالدين وربما المدرسة، وأن مهمتهم الرئيسة هي إدارة هذه الشركات بقدر ما يستطيعون، لتأمين مرتبات العدد الكبير من العاملين فيها، وأن الدعاية التلفازية ومن ثم نسب المشاهدة هي شر لابد منه، وأن الحرب بين المحطات ضروس، وبما أن المال لا رائحة له، وأن الإنتاج التلفازي المحلي غالٍ إلى هذه الدرجة، فيجب التوقف عن إزعاجهم بالحقد الرصين لأمهات الفضيلة، وأن كل المنافسين يفعلون نفس الشيء.

لا يمكننا إلا أن نوافق على هذه الحجة الأخيرة فهيئة الإذاعة والتلفاز البلجيكية الناطقة بالفرنسية RTBF تشابه كثيراً هيئة الإذاعة والتلفاز السويسرية الناطقة بالفرنسية RTSR، والتي تقلد بدورها إلى حد كبير محطة التلفاز الفرنسية الحكومية الثانية France 2، والتي لا توجد بينها وبين المحطة الفرنسية الأولى TF1 الخاصة والمثيرة للجدل فروق كبيرة.

هل هذا مؤشر لانتصار الرأسمالية العتيدة وعقلية الرداءة المنفلتة في أدنى مستويات الانحطاط الثقافي؟ فما فائدة التبجح بالمنافسة الحرة، والحرية الكاذبة للمشاهدين الذين بإمكانهم الاختيار بين عشرين محطة متشابهة، كونها تسعى وراء نفس الأهداف؟

ما مبرر محطات التلفاز الخاصة التي تحذو حذو المحطات الأمريكية في تغطية أحداث المجتمع الأكثر غباءً والأكثر دَموية وعُنفاً، لترضي حاجة الجمهور للحصول على جرعته من الإثارة ومنظر الدم؟ ولماذا يسمح لأشخاص ومصورين محترفين بالوجود في شوارعنا يتصيدون الأحداث الساخنة الحية، ويترصدون مشاهد الدم التي تسبق الموت، ويصورون جثثاً هامدة مازالت دافئة، وقاتلين وهم في أوج فعاليتهم. وإذا كان الأطفال يشاهدون ذلك فالأمر سيان لسوء أو لحسن الحظ، فهذا يزيد مشعر المشاهدة، إضافة إلى أنه يفتح عيونهم على ما يجري في الحياة الحقيقة، إن هذا الأمر تربوي حقاً، وفاضح إلى حد كبير! وتلخص الصحفية ساندرين كوهين الموضوع كما يلي: «كواسر حقيرة ومحطات تلفاز دنيئة تحاول أن ترضي ضميرها بتأكيد أنها تعرض على المشاهدين ما يريدون، بدل أن تعرض عليهم ما يمكن أن ينال إعجابهم».

لحسن الحظ نحن في أوربا لم نصل بعد إلى هذا الحد، وبعض الصحفيين والمخرجين و المنتجين يصرون على إنتاج تلفاز نظيف ونزيه. فحتى متى يستطيعون الصمود في وجه أبواق وأدعياء المشاهد المثيرة الواجب الحصول عليها بأي ثمن، وأمام الغش والخداع المسيطرين على زملائهم في العمل؟ أخيراً أصبحت «العلبة» تشبه سلة مليئة بالسرطانات (حيوانات بحرية). أخبرنا بهذا صديق يعمل في مجال الإنتاج التلفازي إننا إذا أدركنا حقيقة ما يحصل من ثورات متتابعة في بلاط المحطات التلفازية المختلفة، لقلنا لأنفسنا إن من الأفضل لنا أن نعمل في مجال البناء أو البنوك... أو التعليم، قد يردون علينا أن النقد سهل وعبثي، وأن «الفن» التلفازي يبقى معقداً، ونحن نقر تماماً بأن مشاحنات الواقع التجاري الهابط لابد أن تجعل

العاملـين في التلفاز يتحرقون لإنتاجهـا. ويبدو لنا أن من الأمانة أن نعرض عليهم بعض القضايا العملية، وبعض الإرشادات المنتقاة هنا وهناك خلال مطالعاتنا ومحادثاتنا وتأملاتنا. ونأسف إن سخر منا العاملون في التلفاز، ولكننـا نكون قـد حاولنا أن نقنعهم بأن عليهم واجبـاً إعلامياً نبيلاً عليهم ممارسته مع المشاهدين عامةً والأطفال خاصة.

الأطفال هم الضحية

لا يشتكي الأطفال، رغم نمطية البرامج فأكثر من نصف الذين بلغوا 18 عاماً يؤكدون أنهم يحبون مشاهدة المزيد من الرسوم المتحركة!

باستخـدام التعابـير التقنيـة يدعى مسلسـل للرسـوم المتحركة «مُنتـَج»، وينطبق عليه عادة نوعان من المعايـير: أولهما سعر منافس في السـوق العالميـة، فإنتاج ساعة واحدة مـن الرسوم المتحركة يكلف بـين 3 و4 ملايين فرنك فرنسي، ولكن بمجـرد ظهوره على المحطات اليابانية والأمريكية، تباع الساعة بسعر يتراوح بين 40000 و 20000 فرنكاً، وطالما أن الأمر كذلك فما الفائدة من أن ننتج رسوماً متحركة بأنفسنا، ولماذا نهتـم بالإبداع الأصيل؟ إضافة إلى أن «المنتج الجيد» يجـب أن يكـون موجهـاً لشريحـة عمريـة متوسطـة: وكلمـا توجهنا إلى شريحـة عمريـة أضيق قـل عـدد المشاهدين، وهذا مـن مبادئ الرياضيات، ولذلك فإن الأطفـال الأصغر سناً والمراهقين هم الذين لا يحصلون على حقهم في هذا الخضم الإعلامي.

ولهـذا فإن ما ندعوه «التلفاز العائلـي» (خليط غير متجانس من الألعاب والمسلسلات الموجهة لعموم المشاهدين) يهددنا.

فالتصويـر والممثلون والموسيقيون لا تكلف أقل عندما يكون المنتج موجهـاً للأطفال، فساعة من الخيال العلمـي على التلفاز تكلف 2-3 ملايـين فرنك، بينما يكلف فلم وثائقـي أو نشرة الأخبار 400000 - 150000 فرنـك، ومـن ثم فإن البرامـج ذات القيمة هي مخصصة للفترة المسائية وللبالغين.

ما المتوقع من العاملين في حقل التلفاز؟

- عرض برامج جيدة من حيث الشكل والمضمون.
- أن يتذكـروا دائمـاً أن التربية والثقافة تبقـى من المهام الرئيسة للتلفـاز، وأنها ليست ملجـأ يلجأ إليه لملء أوقـات مشاهدة ضعيفة وغير معروفة.
- الابتعـاد عـن كل دعايـة تجاريـة في الأوقـات المجـاورة للبرامج المخصصة للأطفال.
- القبـول والرغبـة في الحوار والنقاش والتعاون مع المُربين: والدين ومدرسين.
- الامتناع عن استخدام الأطفال لأغراض دعائية.
- إعـلام الأطفال بالبرامج المخصصة لهم (كل يوم على محطات التلفـاز، ومـرة بالأسبـوع من خـلال مجـلات البرامـج التلفازية الأسبوعية المخصصة لذلك).
- مشاركة الأطفال في إخراج وتقييم البرامج.

• احـترام حُريـة الأطفال الجسدية والنفسيـة بالابتعاد خاصةً عن نشر البرامج العنيفة صوتاً وصورة.

أنا أقلب إذاً أنا أتابع!

(سؤال: هل كلمة Suis الفرنسية تعني الضمير أنا، أم الفعل أتابع؟)

هـذه الثـورة التقنيـة الخالصة والتـي تتمثـل بالتحكم عـن بعد لها انعكاسات حساسة على طريقة قيامنا باغتسالنا (التلفازي) اليومي؟

إن العاملين في حقل الإعلان التجاري يطرحون على أنفسهم هذا السؤال المُلح، والذي يكتسب لديهم طابعاً إستراتيجياً مصيرياً.

لا توجـد معطيات متوفـرة في سويسرا، ولكـن في فرنسا أظهرت دراسة أجرتها الهيئة المختصة بتأثير الإعلام أن 43% من المشاهدين يعتبرون «ثابتـين» في الفترة المسائية بين الثامنة و25 دقيقة والثامنة و55 دقيقـة، وهي نصف ساعة مشبعـة بالدعايات التجارية، وخلال هـذه الفترة فإنهم إما لا يقلبـون المحطات أبداً أو مرة واحدة فقط. أما الذين يقلبـون المحطات بين 2 و5 مرات فإنهم يشكلون الشريحة الثانية مـن حيث الأهميـة: 45% من «المشاهديـن». وتبقى شريحة صغـيرة تعادل 12% مـن «المقلبين بكثرة» الذيـن يستخدمون جهاز التحكـم عن بعـد 6-14 مرة خـلال الثلاثين دقيقة المذكـورة نفسها (أرقام مأخـوذة من «التلفاز» كتاب كتبتـه بياتريس بروكار ونشرته دار النشر ليوكومان Lieu commun). ليس هناك ما يدعو للخوف، إذاً إليكم المزيد.

بلند، بول.

- في كل البرامـج يجـب العنايـة بالتأثيرات الصوتيـة والتعليقات، ويجب تجنب الكلمات النابية.
- الاهتمام بتطوير النقد الموجه للبرامج المخصصة للأطفال.

نقـاط مستقاة مـن المراجع الأساسـ الآتية: «الطفولـة الصغيرة» برو جوفينتون؛ «النضج التلفازي» كيت مودي، تأثير التلفاز»؛...

الدولة رمز السلطة والتشريع

إن كـثرة الكلام حول أخطار التلفاز، وخاصـة على الطفولة والشبيبة، يؤدي بالضرورة للتشوق لإصدار قوانين تضبط الأمر.

ونحـن لا نريـد لكتابنـا المتواضع أن يدعـم الغاضبـين الذين يرون في «المنع» رديفاً «للحماية».

نحـن لا نهمـل بالتأكيـد الملاحظات السلبيـة الموجـودة في العديد من صفحـات عملنا حول الآثار الهدامة لبعضـ استخدامات التلفاز؛ولكن بين هـذا الموقف ومطالبة السلطات التشريعية بقوانين جديدة وتأسيس هيئات جديدة للرقابة هناك خطوة لا نريد أن نخطوها بأي حال من الأحوال.

يبدو لنا أن القوانين التي تفرض ـ كخدمة عامة ـ على محطات التلفاز في معظـم البلـدان أن تعرض «برامـج تربوية ثقافية» كافيـة، ولكن لا يتم تطبيقهـا، فالقانون الفرنسي ــ على سبيل المثال ـ يخـول هيئات تنظيمية متعاقبـة مسؤوليـة «السهر» على حمايـة الطفولة والمراهقـة عند برمجة العرضـ التلفـازي «فقرة 15 مـن القانون الصادر في عـام 1986م والذي يتعلق بحرية الإعلام).

ويجب على محطات التلفاز أن تخبر المشاهدين عندما تكون هناك نية لعرض برنامج يمكن له أن يصدم عواطفهم، وخاصة أحاسيس الأطفال والمراهقين». كلنا يعرف المربعات البيضاء المشهورة والتي تشير لوجود العنف أو المشاهد الجنسية الفاضحة، والتي تختلف حسب البلدان والمحطات التلفازية بين المثلث الأحمر والمستطيل الأزرق.

وقد ذهبت المحطات التلفازية الأمريكية الكبرى، لمنع تدخل مجلس النواب الذي بدا لها شديد الإزعاج، إلى تبني نظام «الدليل المسبق للوالدين» في تموز 1993م (الطبعة الأمريكية من المربع الأبيض)، وتعهدوا فوق ذلك بعدم عرض برامج تحوي عنفاً لا مبرر له قدر المستطاع.

ولكن هذه التعهدات الجيدة لم تجد تطبيقاً في دنيا الواقع، وقررت هذه المحطات تحت ضغط الجمهور ومجلس النواب، وللحد من مشاهد العنف على التلفاز، وبحسب وكالة الأنباء الفرنسية بتاريخ 23 كانون ثاني 1994م، أن «تعيد تنظيم بثها بحيث تعلن عن محتوى البرامج التي تبثها» وذلك بدرجات متفاوتة، أما المحطات التي تبث بنظام الكابلات فقد نظم المبرمجون فيها خطة مكونة من 11 نقطة تسمح بتصنيف البث حسب درجة العنف الموجود فيه، واستخدام نظام يعتمد على رقاقة ـ ف (V-chip)، وهو نظام تقني يسمح للوالدين بمنع ظهور برامج يعتبرونها عنيفة جداً، ولكن المحطات الأربع الكبرى رفضت الخضوع لهذه الإجراءات (ABS,NBC,CBS et FOX) خوفاً من هرب المعلنين، ومن ثم انخفاض الريع الآتي من الإعلان التجاري، ولكن «الشبكات» الأربع قبلت بأن تتزود بنظام مشترك يؤمن مراقبة العنف في البرامج، وهذا اتفاق لا بد من موافقة إدارات المحطات عليه قبل تنفيذه.

بإمكاننا أن نجد في السطور ـ أو فيما بينها ـ العديد من الكلمات مثل: المعلنين والرسوم الدعائية، والاتفاق بين المحطات المتنافسة، وحرية التصرف، وموافقة إدارة المحطات، والعديد من الكلمات في هذه العجالة التي توضح الصعوبة التي يجدها واضع القوانين عند ممارسة دوره الأخلاقي، والذي لا يحول عدم المسؤولية التجارية إلى فضيلة.

إن واحداً من أحر أمانينا التي نتوجه بها إلى المسؤولين عن التلفاز، هو الابتعاد عن تحرير البث من أية رقابة، وخاصة بوجود المحطات الخاصة الجشعة، والتي تقوم على البرامج الرخيصة السهلة الغوغائية، وتنضم إلى جملة المتقاسمين لكعكة الإعلان التجاري، إضافة لمحطات التلفاز الموجودة سابقاً والمجلات.

إن هذا الأمر لن يؤدي بالضرورة لتقليد سياسيينا درجة الشرف، ولن يرضيهم ففي الواقع، إذا كان معظم شبابنا مدمنين على التلفاز، ويتركون جانباً فعاليات «تربوية» مثل الرياضة، والأعمال المنزلية، والإبداع، والألعاب، بل ومجرد التعايش في أجواء الصحبة والصداقة، وذلك لأنه لا توجد أي بنية مناسبة لاستقبالهم بعد أن تغلق المدارس أبوابها؛ ولأن معظم النواب وممثلي الشعب من مختلف الاتجاهات الذين يهاجمون الدور المثير للشفقة للتلفاز على الشباب، ويقترحون قوانين صارمة ورقابة مشددة، قد يكون من الأفضل لهم أن يناضلوا لإنشاء خدمات ثقافية اجتماعية، ونشاطات موازية للفعاليات المدرسية، ومنشآت إعدادية مهنية أو ثقافية لاستقبال اليافعين، ويقدموا للأطفال بديلاً مقبولاً عن التلفاز الذي غدا كالجنية الملعونة. وإذا كنا قد فرضنا ـ كما شرحنا سابقاً ـ على الأمهات العمل مقابل أجرة، لأسباب اقتصادية وطنية واضحة، ولكن لا يُنصح بها

بالضرورة، فإن قليلاً من السياسيين انبروا فعلياً لتحضير المجتمع لمواج
مشكلة عمل الوالدين الكامل.

السياسات هي تُرهات

إن نجاح سيلفيو بيرلوسكوني لم يأتِ بمعجزة من السماء، وأنتم لا تجهلون حقيقة أن رجال السياسة يبذلون كل جهدهم للظهور على التلفاز.

وهذا دليل حي لغياب سلطتهم، فهم غير قادرين على إيصال أفكارهم، رغم أنهم يحتلون ساحة السياسة، ويسببون ظهور اللامبالاة في المجتمع، إن السياسيين يحتلون في أيامنا هذه خشبة مسرح تساعدهم على ممارسة السياسة الخيالية، ولكن هل بإمكاننا أن نقول بأن هناك سلطة إعلامية؟ لا، لا شيء يشير إلى أن بيرلوسكوني بإمكانه ترجمة سلطته الإعلامية بأمور سياسية. إن بيرلوسكوني هو نتيجة الإفلاس العام للسياسة، وضياع القيم والخداع الذي تمارسه نخبة المجتمع، ويعتقد العديد من الإيطاليين الذين نتناقش معهم، أن الفاشيين الجدد هم الذين كانوا الأكثر نجاحاً على التلفاز، ولكنني أقر بأن هذا الأمر ليس بالضرورة مؤكداً لنظريتهم، ولكنه يدعو إلى التفكير.

لا يبدو أن ديمقراطية التلفاز تثير في أنفسكم الخوف ...

نعتقد دائماً أن السياسة تتحكم بالجماهير من خلال التلفاز. ولكن هذه الفكرة غير صحيحة بالكلية، فالجموع من اللامبالين هي التي تفرض على السلطة السياسة تحييداً تسمح به وسائل الإعلام.

وهذا الاستهتار الشعبي، ألا يزعجكم؟

وأجيب فأقول: لا، فما يحصل في إيطاليا على سبيل المثال ينبئنا بما وراء هذه السياسة التي أشرت إليها. فأنا لا أستطيع أن أفهم حزننا على فئة سياسية تنهار كلياً، وأن نعتقد بأن واحد أن هذا الانهيار بديل أفضل لبيرلوسكوني، رغم أنني لا أكن لهذا الشخص أي وُد.

أنتم لا تعتقدون بوجود ديمقراطية التلفاز؟

لا، أنا لا أعتقد بوجود تعاون عضوي بين الديمقراطية والتلفاز، إلا إذا اعتبرنا الديمقراطية خطاباً أجوفاً حول حقوق الإنسان، والقيم الجمهورية... إلخ.

يوجد فخ قد نبهتكم إليه يكمن في الدفاع عن طبقة سياسية رأينا بأم أعيننا قيمتها الحقيقية.

ما الذي دفعكم للتفاعل ضد المشاهد التي نقلها التلفاز عن ساراييفو؟

الغضب: لقد استشاط غضبي ضد الطريقة التي استُغلَت بها الصور دون تأنيب ضمير، كما لو كنا مُديري مسرح، فاليوم تُبيض المشاهد كل شيء وتغسل الحقيقية. ويبقى الحل هو الكتابة عن المشاهد.

أقوال حصل عليها فيليب بوتي، في حدث الخميس، 14-20 نيسان 1994م. مقابلة مع جان بودريار.

يذكرنا كُتاب مقالة نشرت قبل عدة سنوات في مجلة سبيجل الألمانية، وينقلها فرانسوا مارييه بالحقائق الآتية: «من أصل 9.5 مليون طفلٍ يرتادون المدرسة في ألمانيا، 1.3 مليون ينتمون لعائلات أربابها عاطلين عن العمل لمدة طويلة؟ و300 ألف طفلٍ يخالفون القوانين المتعلقة بارتياد المدرسة، ويعملون جزءاً من اليوم ليجلبوا بعض المال لعائلاتهم، فليس التلفاز هو الذي يتعبهم ويقلقهم ويغذي خوفهم، وإنما العيش ضمن عائلة ينقصها المال والكرامة والأمل، فالتلفاز ليس سوى قليل من الراحة وتغيير الجو وفسحة الأمل، إنه أفيون هذه الجماهير من الأطفال والمراهقين، إذا استخدمنا تعبير ماركس الذي قال: بأن الدين يخدر آلام المجتمع، فالتلفاز هنا يلعب دور المواسي في العلاج التلفازي لظاهرة البطالة».

أخلاق سياسية

المظهر سحق الكلمة

«.....» إنني لا أسمع ما تقول لأنك تتكلم بصوت مرتفع جداً».
العبارة صحيحة إلى حد كبير، فالحركة وتسريحة الشعر واللباس والعين وربطة العنق، وباختصار المظهر يسحق الكلمة والدليل والفكرة، فالموهبة يمكن لها أن تسوق الكذب، والمظاهر تستبدل الذكاء، وتحل الصورة محل المحتوى، فتخيلوا أولاً مشهداً غير تقليدي! ـ مواجهة بين شارل ديغول وبرنار تابي...

تصوروا من ناحية الحركات الكبيرة للأيدي، والنظرة الثاقبة، والكلمات العريقة، والوقفات الطويلة، والرصانة الكبيرة، ومن ناحية أخرى النظرة المتلاعبة، والعبارات السوقية، واللهجة الصاخبة...

مـن يُستمع إليه أكـثر، ويفهم الناس أكثر اليـوم؟ نعم، لقد تغير الزمـن، إن الشـرح الحاصـل يفسـره التلفـاز: لم تكـن الأسطـورة الديغوليــة بحاجة للتلفاز لأن توجد، ولكن السيد تابي لا يساوي شيئاً دون التلفاز.

لقد أصبح التلفاز محطة اختبار السياسيين، سواء كانوا يمينيين أو يساريــين، محافظين أو تقدميين، مجددين أو رجعيين، فهو يختار الذيـن ينجحـون علـى الشاشة أو لا ينجحـون، إن هــذه التصفية لا تمارسها السلطة التي تسيطر على الأداة، من الآن وصاعداً سيسيطر التلفــاز التجاري، ويكون حكمــاً في حيز الإعلام، فالفـرق السياسي الأساس الآن هو: هل أنت ناجح على التلفاز أم لا؟

ألبيردو روا في مجلة «حدث الخميس» 14-20 نيسان 1994م.

إننــا ننتظر مـن الذين انتخبناهــم «حلـولاً» أخرى لبطالــة الوالدين ولضياع الشباب!

ولذلك فأنا أقول لكم: سيداتي و سادتي السياسيين توقفوا عن التبجح بإرادتكـم الخير للشباب دون بذل الجهد في ذلك، لأن اقتراح منع الأشياء لا يكلـف شيئا، ولكـن التصويت على تخصيص ميزانيــة لتأسيس مدرسة للموسيقى، أو صالة رياضية، أو منشآت لنشاطات رديفة للمدرسة، يتطلب الشجاعــة إضافة للمــال، و مفاوضــات شاقة، وتحضير ملفــات قوية، ولا يعطي شهرة شخصية إلا على مستوى الصحافة المحلية.

ولكـن كل سياسي منتخب ـ ولو كان ضعيفاً ـ يحلم ولو ضمناً بمستقبل محلــي أو في ناحيته، أو وطنــي وربما دولي مع ولادة أوروبــا الجديدة التي

ما تزال تكبر، وهذا الأمر يخلق علاقات مشبوهة مع وسيلة الإعلام هذه المحبوبة من قبل الجمهور، والتي نزدريها من ناحية دون قناعة قوية في خطاباتنا في المجالس المغلقة وفي مجلس النواب، والتي نداعبها بمكر مُدارين توجه المحطة عندما تُجرى معنا مقابلة تلفازية، أو نشارك في حلقة بحث مباشرة من ناحية أخرى، وهكذا نجد أنفسنا غارقين - بحسب رأي فرانسوا مارييه الذي نشاركه الرأي تماماً ولو لمرة واحدة - «في خطاب طنان يغلب عليه عدم الكفاءة والصخب المضحكين في أمور لا ينبغي عليها صرف نفقات.

وذلك لأن تخصيص مخصصات مالية يستدعي أن يستأثر رئيس الحكومة أو الوزير المختص باهتمام الإعلام، وأن يحصد المنفعة السياسية، ولا يبقى للنواب المنتخبين من قبل الشعب سوى مجد إصدار قوانين الحظر والمنع».

ولذلك فإننا لا نوجه بعض الأفكار التي قد تقود إلى حل في هذه الفقرة لكل السياسيين المتحمسين للمنع، والذين لا يرون في مُداخلاتهم «التعقيمية» في مجلس النواب، سوى فرصة لتحسين صورهم الشخصية في أعين الناس.

إن ثرثرتهم العقيمة ولسانهم الخشبي ليست إلا الأعراض المشخصة لظاهرة «توحد» مُلطف ومدروس.

إضافة للاعتبارات الاجتماعية عموماً والسياسية والتربوية التي يجب البدء بها، إننا ننصح المُنتخَبين المخلصين الذي يشعرون أنهم معنيون بأمور الشباب أن يقرؤوا التقرير الرائع و التقني بآن واحد، الذي أعده

وزيــر الدولة ووزيــر التربيــة والشباب والرياضــة جاك بومونتــي في عام 1989م تحت عنــوان «التربية والتلفاز. رهان القــرن الحادي والعشرين». إنهم سيجدون فيه شهادات ونصائح وتعليمات تتراوح بين إمكانية الإفادة مــن الثروة التلفازية الموجودة، وتحصيــل موارد مالية تسمح بإنتاج برامج ذات أهــداف تعليميــة، مــروراً بضرورة تحقيــق لامركزية فعاليــة الإنتاج والإبداع، وترشيد البنيات الإدارية، وتجهيز مدرسين مختصين بالتلفاز... دون أن ننســى ـ على المستوى الأوروبي ـ إيجاد سوق تعم القارة، والمغامرة المتعلقة بالأقمار الاصطناعية، نتمنى لكم قراءة مفيدة!

عندما يحلم المراهقون بتلفاز مثالي

إن المراهقــين لا تمثلهــم مسلســلات مثل «هيلــين والصبية»، ولا العبــارات المكــررة في نشرات الأخبار، دراســة فرنسية تفسح المجال للمراهقين ليعبروا عن أنفسهم.

تكتــب ناتالي ـ وهي فتاة من مدينة لــوزان ـ: «هيلين والصبية» لا علاقــة له مطلقاً بما نحن عليــه، ولا توجد فتاة أو فتاتان مثل هيلين، ولكن إن لم تكوني جميلة، وإن لم يكن لديك من المال ما يكفي لشراء نفس الملابس، فإن هذا يُشعرك بالحرمان».

المراهقون ضجــرون: فالتلفاز يعطي عنهم صورة لا يوافقون عليها. التقينــا هــذا الصيف بناتالي وروميو وبعض الشباب السويسريين الناطقين بالفرنسية، وأعطونا نفس الإجابات التي حصلت عليها من مئتي مراهق ومراهقة فرنسيين. الجمعيات الفرنسية لحقوق الطفل منــذ فترة قريبة عندمــا توجهت إليهم بأسئلــة مشابهة حول التلفاز

لقـد أجاب هؤلاء: «لا أحد يتكلم عنـا إلا عندما يكون هناك إضراب أو مظاهـرات في الطريـق، ينعتونـا بأننا عنيفون وأنانيـون وسلبيون وخالقـو مشكلات، حثالـة المجتمع، ومسؤولون عـن تخريب الأماكن العامة. لا يوجد تمثيل حقيقي؛ وهذا يعني لا يوجد مراهقون يتكلمون عن دراستهم وعن آمالهم في الحياة».

بـين عمر 11-19 سنة يحتج المراهقـون على عدم وجود الحالات الوسطيـة. «لا أحد يتكلم عنا إلا عندما نكون غاضبين»، هذا ما قاله الشبـاب الفرنسيـون الذين استطلعت آراءهـم الجمعيات الفرنسية لحماية الطفل.

(كوفراد) «لا يُعرض إلا الوجه السيئ لنا» يجيب ستيف ذو الستة عشر ربيعاً من منطقة الفود (...).

يمكننـا اعتبارهـم «بطالـين، ومهووسـين بالموسيقـى»: الشباب مهتمـون بمعرفـة الحقيقـة، إنهم فقـدوا ثقتهم بالصـورة، ويخيب أملهـم التعامل العـام مع المعلومـة. فروميو الذي لم يبلـغ بعد عامه السادس عشـر يتمنى وجود مزيد من «الأخـلاق وأصول الممارسة». يعـبر الشباب الفرنسيون في إجاباتهم عن عدم ثقتهم: «أحياناً يقوم الصحفيون بتشويه المعلومات ليجعلوها أكثر جاذبية للقراء».

يعتـبر البعض أنـه يجب تدريس الإعـلام في المدرسة. «بدل تعلم ملوك فرنسا وتاريخ سويسـرا، أليس بإمكاننا إعطاء دروس حول ما يحصل في العالم، وكيف نتعامل مع المعلومة؟»، سؤال يطرحه الشاب إيمـا نويل ذو الثمانية عشر ربيعـاً. «لقد كنت محظوظاً لكوني طالباً في مدرسـة نستمع فيها لنشـرة أخبار الثامنة صباحـاً على المذياع.

وكل يوم كنا نتناقش في مجريات الأمور، لقد سمح لنا هذا بالتعبير عن رأينا عن طريق المبادرة بالكلام». في باريس شُكلت جمعية لعدة ثانويات هدفها «الحصول على نظرة أعمق للمعلومة». «إننا ننظم اجتماعات نتناقش فيها حول المشكلات الحقيقية: مثلاً يوغوسلافيا قبل الحرب، وحول منظمة الأمم المتحدة وما تمثله حقيقة... كل هذه المعلومات تنقصنا» (...)

الكاتب لورانس ناغي في النوڤو كوتيديان 25 تموز 1994م.

إحصاء أرسل إلى 200 شاب وشابة فرنسيين. COFRADE

«الشباب يتساءلون عن المعلومة» وثيقة رقم 13 INJEP

الشباب أنفسهم

رغم أن الأرقام الناطقة بوضوح يمكن لها أن تجعل بعض القراء متشائمين، ولكننا استنتجنا من استطلاعات رأي مختلفة أجريت حديثاً معلومات متنوعة لافتة للنظر حول مشاهدة الأطفال للتلفاز لكل من يود الغطس في هذه المعلومات شرف القيام بها! ولنبدأ بالولايات المتحدة التي تسبح منذ فترة طويلة في خضم الموجات الهرتزي، وحيث أكد الباحثان ديتز وستاربورغير، بعد دراسة أجريت على 4000 عائلة في 17 منطقة عمرانية. تبين أن الأطفال الأمريكيين يقضون حسب عمرهم 20-30 ساعة بالأسبوع أمام التلفاز، وأن طفلاً عمره سنتان يشاهد التلفاز بمعدل 60 يوماً في السنة، وبهذا يعطي للجنية « تلفاز» ثلاث سنوات من حياته في نهاية مدة الدراسة المدرسية.

دون الأخذ بعين الاعتبار للاختلافات الشخصية أو الاختلافات العائدة إلى التقويم المدرسي يصل الاستهلاك اليومي المتوسط للتلفاز إلى 3 ساعات ونصف في الولايات المتحدة، وتقريباً ساعتين لجارتها كندا.

الوضع في كندا يقترب كثيراً من الوضع في أوربا حيث يمكننا الاستنتاج بعد البحث، ورغم الاختلاف بين البلدان أن أطفال القارة القديمة يخصصون أكثر قليلاً من ساعتين في اليوم لمشاهدة التلفاز.

ليست لدينا رغبة في إتعاب القارئ بالإحصائيات! ونحن نقدمها فقط لنؤكد على حجم الظاهرة التي يلخصها كل من ديتز وستراسبورغر بعبارة قوية: «يخصص الأطفال وقتاً للتلفاز يتجاوز كل الأوقات المخصصة لأي نشاط آخر باستثناء النوم!».

ونعني بالنشاط هنا مفهومه المتداول العام، رغم أنه حقيقة ليس بنشاط، ونحن قد فصلنا هذا في فصل سابق، فالسحر الذي يمارسه التلفاز على الأطفال ناجم عن عمل ضعيف وعفوي للخلايا العصبية وليس سببه فعالية حقيقية لهذه العصبونات.

أندرسون ومساعدوه وجدوا في عام 1986م أنّ لا أحد يشاهد التلفاز خلال 15% من وقت تشغيله.

إن الأبحاث التي قام بها موريه قبل أكثر من 20 عاماً على عائلات فقيرة في مدينة واشنطن أبدت أن الأطفال من 1-10 سنوات يخصصون 18% من الوقت الذي يقضونه أمام الشاشة للقيام بنشاطات أخرى، والذين تتراوح أعمارهم بين 11-19 سنة 31.2% من هذا الوقت، أما

البالغـون فتبلغ هذه النسبة لديهم 36.5%. ويلاحظ الكاتب أن: «الأطفال يشاهـدون التلفـاز بشرود وعدم تركيـز غالباً، بينما هم يتومـون بأشياء أخـرى: اللعب، تجميع قطع لوحة فسيفسـائيـة، وأحياناً في أثناء القراءة وكتابـة الوظائف». وهكذا فنحن نشارك ماربيه الرأي في تصنيفه الجديد لمشاهدة التلفاز. وأنواعها الثلاثة المذكورة سابقاً: التلفاز المحبوب، والتلفاز الدائم والتلفاز لسد الثغرات.

نصائح للأطفال الذين يرغبون في التخلص من كونهم «مقلبين على التلفاز»

هذا الكتاب ليس موجهاً لقراء أطفال صغار السن، وإن كانوا هم مركز الاهتمام، فمن الصعب أن نوجه لهم نصائح دقيقة تجعلهم يتخلصون من عبودية علبـة الصور، مع ذلك فإن بعض الأفـكار تتبلور لتعين المشاهدين الصغار دون أن تكون لدينا رغبة بأن يفقدوا جزءاً من حريتهم.

- لا تقبلوا إلا التلفاز المحبوب والبرامج التي تختارونها، ولا تقوموا بعمل الكثير من الأشياء والمهمات والتلفاز يعمل.
- لا تشعلـوا التلفـاز إلا إذا كان فيه ما يدعو فعلاً للمشاهدة، وهذا يعني الاطلاع السابق على برنامج البث.
- هـذا البرنامج الذي يطلـب الأطفال من أهلهم بصدده شيئاً من التعليـق والمفاوضـات والتبريـر، حتـى وإن كان الأهـل يدعـون أن عندهم أشياء أخرى يفعلونها.

- بمجرد اختيار برنامج محدد، يجب وضع جهاز التحكم بعيداً في الطرف الآخر من الغرفة (ربما في الحمام، أو في قمر سلة الغسيل الوسخ!).
- اطلبوا من والدكم أو والدتكم كلما كان ذلك ممكناً أن يشاهدوا التلفاز معكم، ولا تترددوا بطرح أسئلة عليهم قبل الموضوع المشاهد وفي أثنائه وبعده.
- طالبوا بمشاهدة نشرة الأخبار مع والديكم من وقت لآخر. واسألوا كل سؤال مفيد يساعد على فهم الأشياء والأحداث.
- أقنعوا الأصدقاء بأن يتكلموا عما شاهدوه على التلفاز، وأن يتحاوروا حول موضوعاته أثناء الفرصة بين الحصص المدرسية.
- ولِمَ لا يكون هذا الحوار في الصف؟ وإن كان المدرسون معارضين مبدئيين للتلفاز، فإنهم سوف يوافقون على ذلك في النهاية إذا طرحتم عليهم تساؤلات جدية ومحضرة جيداً. وربما متنق عليها بين الأصدقاء.
- ارفضوا فكرة التلفاز الثاني في غرفة نوم الطفل. وذلك لأن الدمية التي تساعد على النوم ترفض المنافسة.
- اضغطوا على الصديق أو الصديقة للعب خارج المنزل. فلا يوجد أكثر «تناعلاً» من مشهد الهنود الحمر ورعاة البقر. عندما يكون الطفل الذي يلعب اللعبة هو نفسه الشريف أو النسر الأسود.

للأطفال الصغار والأكبر سناً

تمارين عملية

أسئلة:

1. عندما تطلعون على مجلة أسبوعية تنشر البرامج التلفازية الأسبوعية، قارنوا جداول المحطات المختلفة بتعبئة جدول تدونون عليه الوقت (أو نسبة الوقت) الذي تحتله البرامج الآتية:

- المعلومات.
- الجديد في العالم والتقارير.
- الأفلام الفرنسية.
- الأفلام الأجنبية.
- المسلسلات التلفازية الفرنسية.
- المسلسلات التلفازية الأجنبية.
- البرامج المتعلقة بالأدب والفنون والموسيقى الكلاسيكية.
- المنوعات الموسيقية.
- الرياضة.
- الوثائقيات المختلفة.

هل توجد فروق مهمة؟ هذا الجدول سيساعدكم على معرفة توجه كل محطة من محطات التلفاز، ومن ثم معرفة إلى أي جمهور تُبث البرامج.

2. إذا اشتركتم في محطة من المحطات، فشكلوا جدولكم للبرامج (نسبة الوقت) حسب مايلي:

- بالبحث عن أكثر أوقات المشاهدة، والتي تحاول خلالها محطات التلفاز إرضاء أكبر عدد ممكن من الجمهور.

• بالاهتمام فقط بما تحبونه... وقارنوا هذا الجدول بالجداول المثاليـة لزملائكم مستقاة من كتـاب الأدب (ليتراتور) الجزء الثاني «التقنيات»
كريستيان بييه ومساعدوه. نشر دار مانيار 1987م.

• القـدرة علـى التفاهم مع الإخـوة والأخوات فيمـا يتعلق باختيار برنامـج مشـترك يناسب الجميع، وأن نتقبـل دون انزعاج أو تذمر أو صفـق للأبواب أن «تغادروا المكان» عندمـا يعتبر أحد الوالدين: أنك شاهدت التلفاز بما يكفي هذا المساء، وأنه بوجود هذا الطقس الجميـل يفضـل أن تلعب خـارج المنـزل، أو أن لديه رغبـة بقراءة صحيفته أو بريده بهدوء في غرفة الجلوس.

• سـؤال الوالديـن إن كانـا موافقين على تسجيلـك في نادٍ رياضي أو دروس موسيقـى أو فرقـة كشافـة، فهـذه الأماكـن تمكننا من الحصول على أصدقاء أكثر من جلوسنا في غرفة الجلوس.

بمحاولة تطبيق هذه النصائح ـ وباختراع طرق أخرى ـ سوف ترون أن التلفاز لم يكن حتى الآن صديقاً وفياً، وأنه كان يفرض نفسه وأموراً أخرى أكثر من عرضه إياها، وأنه كان يستعبد أكثر مما يرفه، وخاصة أن قيمته الحقيقة تنبع من الحوار والنقاش الذي يمكن أن ينتج عن مشاهدته.

المدرسة و«الموجهون» المهنيون

إذا كان معظـم المدرسـين وخاصـة في المدارس الثانويـة يعتقدون أن المدرسـة يجب أن تقـوم بعملها: تعلم القـراءة والكتابة والعـد والحساب؛

فبعضهم يعتقد أن التلفاز يمكن له، بل ويجب عليه أن يدخل قاعة الصف. حاولنا سابقاً أن نُحيط بالطرق المختلفة لاستخدام التلفاز في التعليم (التلفاز المدرسي، التعليم عبر وسائل الإعلام، والاستخدام «الثقافي» «للتلفاز كأداة»...)، وأن نضع النقاط على الحروف فيما يخص الانقسام والتعارض في الشكل والمحتوى، اللذين يجعلان من الصعب بل من المستحيل في نظر العديدين بناء علاقات منسجمة بين هذين العالمين المختلفين تماماً.

إما المدرسة أو التلفاز أو حوار رديء

بإمكاننا إن أردنا أن نظهر كأناس متفتحي الفكر أن نترنم بوصلة غنائية مفادها أن التلفاز موجود، وهذا الموال الشائع جداً هو فارغ من أي معنى.

فعلينا أن نتَّبع سلسلة لازمة كريمة ومجانية من توجيهات إلياكا* YAKA. في المدرسة لا يستخدم ياكا غير التلفاز الحقيقي الراقي، ذلك الذي يُعلم ويثقف، ويعلم ياكا. الطفل أن يرتب ويُصنف وينظم، وباختصار يجعل ياكا من الطفل قادراً على التحكم بسيل المعلومات المتدفق لتجعل منه رجل المستقبل الحقيقي الراقي في القرن الحادي والعشرين، وهكذا ياكا! ودور المعلمين يكبر أكثر من أي وقت مضى، ويصبح أجمل وأرفع وأسمى.

وماذا لو كانت المدرسة عاجزة بكل بساطة عن القيام بهذا؟ وإذا قامت المدرسة بإصلاح أمورها أولاً؟ هذه المدرسة التي أصبحت عاجزة

* YAKA (ياكا) هو نظام متكامل يهدف إلى التزويد بطريقة فعالة لنشر أنظمة التشغيل على عدد كبير من الحواسيب غير المتجانسة.

عـن مواكبة تحديات العصر الكبيرة، وبحجة الفعالية والمردودية أصبحت مصطنعـة وغـير طبيعية، وتفصل بين المـواد التعليميـة والمواهب، فتجبر الشاعـر بالقـوة على فتـح كتاب الفيزيـاء لأن جرس انتهـاء الحصة رن، وتجـبر الصغـير المولـع بالرياضيـات أن يـترك معادلتـه ذات المجهولين ليخصص نفسه للمتع الإجبارية اللطيفة للآلات الرياضية، فإشارة انتهاء الحصة إجبارية.

هـذا التنقل الدائم والإجبـاري بين المواد المدرسيـة، وتعدد المدرسين، والكبـت النـاتج عـن النتائـج المدرسيـة، إضافـة إلى التشويش والعنف المدرسـي، وغياب التبادل الحقيقي في الأفـكار، كلها تجعل الطالب إنساناً خاضعاً للسخرة بدون رحمة.

إن جعـل الطالب معتمداً علـى الآخرين وفاقداً للمبـادرة، وأن نفرض عليـه أن يترك جسـده معلقاً على علاقـة الثياب في المشالـح قبل الدخول للصف، وأن يتخلى عن أحلامه ورغباته وفضوله على مدخل المدرسة، وأن نسلبـه كذلك وقت متعته بإغراقـه بالواجبات المنزلية، هذه بعض الأعمال البطوليـة اليومية التـي تمارسها هـذه المؤسسة المحترمـة التابعة للدولة، والتي نسميها المدرسة في الدول التي ندعوها متطورة.

بعد ثماني سنوات من هذا النظام المدرسي، يأتي الطلاب إلى دروسهم في الثانويـة كما يذهبون إلى السينما: فيضعـون مؤخراتهم على مقعد من المقاعـد، وينتظرون بسلبية مـرور الحصة، ويلزم جهـد هائل من الإبداع والصـبر لنصل ببعضهم شيئاً فشيئاً إلى المشاركة في الدرس، والجرأة في التعبير عن رأيهم، والمبادرة ببعض الأمور، وأن يستوعبوا أنهم يبذلون الجهد

لإرضـــاء أنفسهم، لا لإرضـــاء المدرسين أو الوالدين. أمـــا بالنسبة للباقين فإنهم يظلون (سيظلون؟) معتمدين على الآخرين وماديين ومنطوين على أنفسهم وعنيفين... فاشلين مستقبلاً وعلينا تقبلهم كمواطنين؟

«فتح مدرسة يعني إغلاق سجن، فما بالك إذا كان الأمر هو فتح سجن آخـر؟»، هـذا تساؤل طرحه المُنَظِّـر فيكتور هيغو، فالمدارس تعلم الأطفال الصمت والطاعة، وهذه جريمة.

و تريـدون من هـذه المدرسة التي تلتهـم الطفولة والشبـاب أن تنافس طواحـين الهواء التلفازيـة؟ حسبكم! ولكن هل أنتم حقيقـة مُصرون على رأيكم؟ فليكن، أنتم على حق!

ففي الواقع، إذا كانت الثورة على المؤسسة التعليمية الحالية مستحيلة، فإن معظم خُدامها ليسوا أوصياء ولا يمارسون الإخصاء. هم غالباً أساتذة قلبـاً وروحاً قبـل أن يكونوا أساتذة بعقولهم (ليســوا من الموظفين الغلاظ بجباهٍ كجبهة الثور!) إنهم يمنحون الطفولة حناناً واحتراماً عميقاً.

إنهـم هـم الذين يمنحـون المدرسة شرفهـا، ويطرحـون الأسئلة حول هدفهـا وتوجهاتهـا، وهم الذيـن يجعلـون المدرسة محببـة، ويحاولون أن يفتحوها على الحياة، ويروجـون لاحترام الذات قبل احترام الإتقان، كان لابد لنا من أن نجعل هذا واضحاً.

فنحـن نوجه هـذا الفصـل إليهـم خاصـةً، وإليهم كذلـك نوجه هذه «الصرخة المدوية» حول محاسـن ومساوئ المدرسة، والتي تشابه في بعض النواحي محاسن ومساوئ التلفاز.

كتبنا سابقاً أنه يجب إدخال الحياة إلى المدرسة، وأنه أصبح مستعجلاً

خروجها من جوها الخانق العقيم، ولا زلنا متمسكين بهذه الفكرة الكريمة والتفاؤل الطوباوي، ولكن هل يمثل التلفاز بصوره غير الواقعية والخيالية والمجزئة والزائلة الحياة؟

بالنسبة للمنادين بنظام تربوي منفتح على الحياة (فرينيه، ديكرولي والآخرين....) كان العالم هو الغابة والنهر والعصافير والمحميات السلتية أو الفرنسية ـ الرومانية القريبة جداً، ولم يكن تلك الأمور المعقدة الشائكة «هيلين والصبية»، والنزاع اليوغوسلافي، ومباريات التأهيل لبطولة أوروبا بكرة القدم، هذا العالم المصطنع الحديث وغير الموضوعي والسرطاني! سرطان التلفاز!

إن مشاهد التلفاز ليست أكثر واقعية من وقائع رواية لستيفنسون، وربما كانت أقل واقعية ـ وكم من الكثير يتحدث عن القليل ـ من الجرمينال* لإميل زولا، وهي رواية تنقل الواقع بأسلوب يحث على إعمال الخيال، وتتناول الأخلاق الاجتماعية والسياسية ـ مع روح مبالغة تحمل الدعابة ـ لحقبة زمنية محددة، لو عاد إلينا جان جاك روسو الطيب، فإن من المؤكد أنه سيكون بالتأكيد أكثر مرارة وتشاؤماً في هجومه على التعليم التلفازي، مما كان عليه في هجومه على الكتب، والاستخدام التربوي لها في زمنه. إن المدرسة لن تؤهل الطفل المدمن على التلفاز «ليصبح حالماً من خلال تَجواله في الطبيعة»... بمفرده أو بوجود الآخرين.

وهكذا ونظراً لكل الأمور السابقة، والاعتبارات الأخرى التي طُرحت في فصل «التلفاز والمدرسة» يمكننا أن نستخلص أن بإمكان المدرسين ـ وذلك

* الجرمينال: الشهر السابع من الثورة الفرنسية.

مــن حقهم ـ أن يستمروا بتجاهل الفجوة الغريبة القديمة الساكنة القائمة بين الثانوية وما يليها، وأن نلخص الأمر متفقين مع جاك بيفتو: «إن العلاقة بــين المدرسة والتلفاز كانــت حتى الآن مــن النوع الطوبــاوي....، وتتصف بالواقعيــة اليائسة، فيوجد بون شاسع بين مــا يُعلن، وبين ما يطبق، لدرجة أن الإنسان يتساءل كيف يمكن للمربين أن يبقوا واهمين حتى الآن».

ولهذا السبب بالــذات، ولكوننا ما زلنا نحتفظ بشيء من الأمل الواهم فنحــن مصــرون على تقــديم بعضــ النصائــح، وبعض الحلــول النظرية للمدرســين الذين يحلمون بمدرسة مفتوحة علــى العالم ذكية وتقبل النقد الذاتــي، فالمدرس الحقيقي لا يضع نفســه في الديماغوجية السهلة، ولا في الاستســلام والخضوع العبــودي لبرامج رسمية، إن أكــبر خيانة نقوم بها تجاه الأطفال هي الاحتقار واللامبالاة!

الخلاص من الأوهام

بما أن الموضوع حساس للغاية، وبما أننا نرفض أن نلعب دور الناصحين الأبويين للأشخاص الذين يقتاتون من إعطاء الدروس، فإن ما نقدمه عبارة عن رغبات وبعض الحلول العملية التي نرغب أن نعرضها على براعاتهم.

أولاً يجــب علــى المدرســين التخلصــ مــن بعضــ الأوهام التــي تتعلق بالاستخدام المثالي للتلفاز في الحصة المدرسية.

الوهم الأول: هو القدرة على قياس المعارف المكتسبة من قبل الطفل أمام التلفاز، من خلال استخدام المعايير التقليدية لتقييم الأداء المدرسي.

الوهم الثاني: استخدام التلفاز كوسيلة لدعم الأهداف الخاصة. عاش

التلفاز المدرسي ولم يثبت أي شيء سوى عدم فعاليته، فالدروس على التلفاز تبعث الضجر والملل بنفس الدرجة على الأقل مقارنة بالدروس العادية التي يعطيها المدرسون، وهذا يعني الكثير.

الوهم الثالث: وليس الأقل أهمية: المساعدة في فرز وتنظيم وترتيب المعلومات المتناثرة التي يُشَربها التلفاز للأطفال، فالمدرسة ببنيتها الحالية ليس لديها الوقت والإمكانيات ولا الكفاءة لتلعب دور المُوحِد لهذه الثقافة المبعثرة، التي لا تملك قاعدة صلبة تستند إليها، ولا تربطها علاقة بواقع الأطفال الحقيقي.

الدروس الإجبارية

بعد تأكيد شديد يقترح دانييل شنيدرمان أن يُعلم التعليق على مشاهد التلفاز في المدرسة، كما يُعلم التعليق على النصوص الأدبية.

وهو محِق في ذلك، فالتلفاز المتعلق بالحياة الثقافية والسياسية والاجتماعية هو حقيقة لا مفر منها، ولذلك يجب أن نعلم الأطفال كيف يشاهدون الشاشة الصغيرة.

فنشرة الأخبار يجب أن تخضع للتحليل كما نفعل مع نص أدبي، فالصور التي تعرضها هذه النشرة تبني إلى حد كبير طريقة فهمنا للعالم، فلنسرع بالتحكم بهذه الصور خوفاً من أن تسيطر هي علينا. هذا ما ينبهنا إليه الكاتب المشهور.

بانتظار أن يصبح تَعلُّم مشاهدة التلفاز إجبارياً، فإننا سنرضي ضمائرنا بقراءة مقالات شنيدرمان الدورية، ومقالات الآخرين الذي يلاحظون ويصفون ويعلقون يومياً على ما يشاهدون في

محطـات التلفزيون الرئيسة، وذلك بالنيابة عنا، إن عدد هؤلاء آخذ بالازديـاد، وهذا جيد، فجميعهم على اختلافهم يعملون أحياناً ودون علم على إزالة إبطال صفة القداسة عن التلفاز.

حُماة ضروريون، هم لا يفوتون فرصة لكبت جماح غروره بمجرد ادعائـه أنه يُغني عـن الواقع المُعاش بحركة بسيطـة لجهاز تصوير. أمـا أفضل هـؤلاء فيجمعون علـى الرفض المطلـق لأن يكونوا مغفلي عصرهـم، هـذا العصر ـ الـذي كان ومازال عصرنا ـــ لا يفتأ يعبر عـن نفسه بالتمثيل، وحتى في لحظات عجزه من خلال زاوية صغيرة لاستوديو مُضاء.

تيري ميرتونان، اليومية الجديدة (لونوڤو كوتيديان) 18 تموز 1994م.

من كتاب دانييل شنيدرمان: توقف على المشاهد «أريه سور إماج» دار النشر فايار.

بعض الحلول فيما يتعلق بالمدرسة

بمـا أننا انتهينا من نقاش طويل حول الموضوع، فلنحاول أن نجد ضمن هـذا الخضم نصائح مختلفة للعاملين في حقل التدريس، والتي نعتقد أنها الأكثر قبولاً.

- احصلوا على معلومات كافية عن علاقة الطفل بالتلفاز.
- عندمـا تقابلـون الأهـل حاولـوا أن تفتحـوا نقاشاً حـول التلفاز، ودعوهم يعبرون عن آرائهم.

• بعد قراءة عدة كتب حول الموضوع، انصحوا الأهل بقراءة أحسنها وأكثرها توفراً، لماذا لا يكون الكتاب الذي بين أيديكم؟ (انظروا كذلك إلى لائحة المراجع).

القيام بمساعٍ لدى الجهات المعنية في المدارس، لتزويد الصفوف بأجهزة تسمح بمشاهدة التلفاز: شاشات عرض وأجهزة فيديو.

• اختبار طرائق أخرى أكثر وعياً للاستهلاك التلفازي، وذلك اعتباراً من الصفوف المدرسية الأولى وربما صفوف الحضانة، إن استخدام الفيديو يسمح بتجزيء برنامج إلى فقرات مدتها 5-10 دقائق يمكن مناقشتها والعمل عليها خلال الدروس، وهذه الأجهزة تعين كذلك على العودة إلى الوراء لتكرار مشاهدة لقطة معينة، أو التوقف على مشهد محدد لمدة من الزمن.

• تعليم الطلاب فك الرموز والاستخدام المفيد لبرنامج تلفازي: قد يكون هذا درساً رائعاً في المطالعة!

• تنظيم دقيق وغير مندفع (3-4 مرات خلال العام الدراسي) لحوار في الصف حول الاستهلاك المفيد للتلفاز، أو حول فيلم أو برنامج مُشوقين يشاهدان أثناء الدوام المدرسي.

إن الاقتراحين الأخيرين إذا طُبقا جيداً، فإنهما يسمحان للطفل:

• بتطوير حسه النقدي الخاص به.

• أن يشرف بنفسه على توازن أفضل بين تلفاز التسلية وتلفاز الثقافة.

• التأكد من توفر شروط جيدة جسدية وعقلية للمشاهدة والإصغاء

ولكـن مهما كانت حساسيـة المدرسين عالية، وكانـت رغبتهم صادقة، فلابـد لاستيعاب ظاهرة التلفـاز في الصف من التذكـير بأمرين مهمين. أولاً، لا يجـوز أن يصبح التلفاز في المدرسة مالئـاً لأوقات الفراغ بحال من الأحوال، فـإذا كنا نشاهده خلال الدوام فيجـب أن تراعي هذه المشاهدة الانتباه، ووجود أهداف محددة من ورائها، وهذا يقتضي ثانياً رؤية مسبقة للبرنامج من قبل المدرس، وتحضيراً تعليمياً صارماً للموضوع.

إضافـة إلى هـذه النصائـح العمليـة الجاهـزة للاستعمـال مـن قبل المدرسـين، فنحـن نريد أن نوصل فيمـا يلي مجموعة مـن الأعمال الأكثر عمومـاً وطموحـاً للمؤسسة التعليمية، هـذه الإجـراءات مُستقاة من عمل الباحثة الأمريكية كيت مودي، ونحن ننقلها كما وردت في كتاب رونيه دوبو، آخر أجيال الكتابة:

في المدرسة

- تشجيـع النشاطـات العضلية، والرياضة بشكل عـام، والفعاليات الخلاقـة ـ الموسيقى والرسم والمسرح ـ لمحو الآثار السلبية لوسائل الإعلام الإلكترونية.
- إعطـاء الأولويـة لامتلاك المعـارف الأساسية، الكتابـة والقراءة والحسـاب يجـب أن تبقـى المهيمنـة خلال فـترة تشكيـل الذكاء و اكتساب المعرفة.
- تحديـد الوسائـل والتقنيـات المختلفة بما فيهـا الحواسيب، التي تدخـل ضمـن نظـرة شموليـة لـدور الإعـلام في التعليـم، ويجب إدخالها بتدرج كوسائل تعليمية مساعدة في كل مستويات الدراسة.

- التخطيط لاقتناء المعدات اللازمة للمدرسة كوسائل إنتاج: أولاً الآلات الناسخة، ثم أجهزة الفيديو وشاشات العرض الملونة. وتعطى الأولوية للمدارس التي تستقبل الأطفال الأقل استعداداً لتلقي الدروس.
- تسجيل البرامج التلفازية اليومية التي يمكن لها أن تشكل وثائق تفيد في التعليم في كل مدرسة من المدارس.
- تكوين مراكز للأفلام الوثائقية تشمل المكتبة، ومكتبة الشرائح القابلة للعرض، ومكتبة أشرطة الفيديو والأقراص المدمجة، والملفات الصحفية.
- تأهيل المدرسين لاستخدام وسائل الإعلام وتقنيات الحصول على المعلومة.
- تطوير الأبحاث بالتنسيق مع الدول الأخرى فيما يخص الدراسات التي تجرى على علاقة الإعلام بالتعليم.
- إنتاج أو المشاركة في إنتاج مسلسلات ذات طابع تعليمي.

كل هذه الأمنيات والاقتراحات والنصائح والطرق الأخرى العملية يجب ألا تنسينا أن التلفاز لن يدخل المدرسة من بابها الواسع في يوم من الأيام، وأنه سيبقى وسيلة محدودة لتعليم بعض الفروع، وحقل للدراسات الاجتماعية والنفسية يهتم به المدرسون المنفتحون والفضوليون، وباختصار تبقى هذه العلاقة بمثابة الغزل الخفيف، أما الزواج الحقيقي بين المدرسة والتلفاز فإنه لن يحدث أبداً، وذلك ببساطة لأن هاتين المؤسستين الثقيلتين مختلفتان جداً في أهدافهما ووسائلهما وطريقة عملهما وبنائهما، إن النقطة

لأبنائهما من خلال المشاهدة المستغرقة للتلفاز، وأخيراً، فتحت أنظارهما ومسؤوليتهما حيث يتمتع أبناؤهما بجرعات الإدمان على الشاشة الصغيرة في المنزل العائلي.

فالتلفاز يعتبر جهازاً منزلياً من ضمن الأجهزة المنزلية، ولكن الله وحده يعلم كم هو صعب ترويضه!

صعب ترويضه ولكنه ممكن بشرط أن يقبل الوالدان أن يستعيدا زمام المبادرة، وأن يمارسا دورهما التربوي، وأن يتعلما أن يستوعبا أطفالهما بموضوعية، وأن يبحثا عن توازن حي في حياتهما وفي طريقة تربيتهما للأطفال، إن التحمل الناجم عن الضعف والتراخي التربوي ليس إلا شكلاً مقنعاً للجبن أو اللامبالاة وذلك أسوأ. فالطفل الذي عُومل كالملك سيجد نفساً عاجلاً أم آجلاً عبداً مجرداً من كل حيلة في مواجهة متطلبات الحياة. فالأطفال يحتاجون لقيود و أنظمة واضحة دقيقة، قد يتجاوزوها أحياناً وقد يخرقوها نادراً مدركين أخطار هذا العمل والعقوبات المترتبة عليه، وهذا جزء من قواعد اللعبة.

يحتاج الشباب لقدوة وضوابط أكثر من حاجتهم للمعرفة، ويبدأ هذا في المنزل وفي حضن العائلة، فلماذا لا نبدأ بأن نضع مع الطفل معايير محددة وحدوداً قابلة للتفاوض فيما يتعلق بمشاهدته للتلفاز وممارسته هواياته؟

قبل أن نعرض بعض الآراء والنصائح والأفكار، وربما الطرق والمعايير في هذه الأدغال التي تمثلها تربية الأطفال بالنسبة للكثير من الآباء، نود أن نرد على بعض ردود الفعل و الاعتراضات التي ولدتها بعض كتاباتنا، أو التي لاقيناها أثناء نقاشاتنا الحادة أحياناً حول موضوع الطفل والتلفاز. «من

أولئـك الذين تعاشرون؟»، «في أي وسط تعيشـون؟»، «أنا لم أرَ قط مثل هذا عند أطفالي»، «عندنا لا تجري الأمور أبداً كما يحلو لكم أن تعمموه»...

نحـن نعترف بطيبـة خاطر بأن حياتنا العائلية ليسـت القاعدة، وربما كانت الاستثناء، ولكننا نطلب منكم بالمقابل الاعتراف بذات الشيء.

إن مجـرد قـراءة هـذه الصفحات يؤكـد أنكـم تطالعون وتقبلـون أن تحصلـوا على معلومات تتعلق بالتربيـة، ولذلك فغالب الظن ألا تكونوا من أولئـك الآباء الذين يتخلون عـن أبنائهم، ويتركونهـم أياماً بكاملها تحت رحمة هذه المَخَيلة* التي يمثلها التلفاز.

يجـب عليكـم أن تتفحصـوا البرنامـج معهـم، وأن تشاهـدوه أحياناً بصحبتهـم، وأن تدعوهم يتكلمـون حول ما شاهدوه وأحسـوا به، إن هذا التصـرف سوف يجعـل منكما والديـن غير نمطيـين، ولا تمثلان مجموع الآباء الفرنسيين الذين لا يقرأ خمس وسبعون بالمئة منهم أبداً كتباً تربوية، ويعتبرون أن أبناءهم هم في أحسن أحوالهم أمام التلفاز؛ لأنه يستطيع أن يحافظ على هدوئهم، ويمنعهم من المغامرات والأخطار في الطريق، أو في أماكن اللعب.

آباء فقراء، آباء تعيسون

إننا نلمس هنا إحدى تناقضات هذه الصفحـات، لأنها ستُقرأ خاصةً من قبل أشخاص ليسوا بحاجة إليهـا، وسيجدون صعوبة في التعرف على أنفسهـم من خلال الحـالات المعروضة لأنها لا تمثلهـم، وهذه الصفحات

* المخيلة: هي ما يُوضع في الحقل من أشياء تشبه بشكلها الإنسان لتبعد الطيور عن الزرع.

لـن تصـل الأشخاص الذين قـد يستفيدوا منها أكثر مـن غيرهم، ولكننا نأمـل أن يجـد فيها الأوائل دعمـاً لهم في مواقفهم التربويـة ـ فكل الناس بحاجـة كبـيرة للدعم المعنوي! ـــ وقد يكتشفون من خلالهـا بعض الطرق غـير المعروفة، وخاصة فإنهم سيتعلمون كيف يُعلمون وينصحون ويدعمون غيرهم، الكثيرون من الأهل وأطفالهم هم بحاجة فعلاً للمساعدة، وخاصة منهـم الذين ينتمـون للطبقات الاجتماعية المتواضعـة، وذلك لأنه بحسب أقـوال جوديت لازار «إن وقت المشاهدة ذو علاقة مباشرة بالوسط الثقافي الاجتماعي». هذه الملاحظة أكدتها معظم الدراسات التي أجريت في بلدان مختلفة، وأثبتها فرانسوا مارييه بعد دراسة أجراها قبل عشر سنوات.

إن مؤلف كتاب «دعوهم يشاهدوا التلفاز» وصل إلى استنتاجات مختلفة تماماً عن تلـك التي احتواهـا كتابه المنشـور عام 1989م لأنـه كان يقول وقتهـا: «وكي نلخص الموضـوع فإننا نقول بأنه خـلال الوقت الذي يشاهد فيه أبناء العمال التلفاز، الذي يمكن اعتباره حاضنة أطفال الفقراء، يقوم أبناء الموسريـن بممارسة الرياضة، وعزف الموسيقـى، ويحضرون دروس الغـد، ويقرؤون أو يمشون خارج المنزل، إن تلفاز يوم الأربعاء (يوم العطلة المدرسية في فرنسا) يلعب دوراً مُكَرِساً للفوارق الاجتماعية الثقافية».

التلفـاز هو وسيلة تسلية رخيصة، فمقابل حفنة من القروش يمكننا أن نشاهد خمس أو ست محطات يومياً.

وهو رقـم تضاف إليه زيادة مالية بسيطة، يُضاعـف مرتين أو ثلاثاً أو عشر مرات بحسـب ما قرره الوالدان، من اقتناء طبق استقبال هوائي، أو الاشتراك لدى شركة كابلات.

هل يُمنع المنع؟

جهاز جديد يسمح للوالدين بتحديد وقت المشاهدة لأبنائهم، وهذا يقلق الاختصاصيين النفسيين.

جهاز إيقاف التلفاز لم يحصل على موافقة الجميع، «إنه يذكرني بجهاز ظهر في الستينات، نوع من «مُوقِف تبول» يقرع جرساً عندما يبدأ الطفل بتبليل فراشه، هذا ما علقت به كريستين بيفاريتي، وهي ربة عائلة ورئيسة مدرسة الآباء في جنيف، إن هذا يعاكس نظريتنا التربوية». ولكنها لا تنكر حقيقة أن التلفاز أصبح مصدراً للنزاع ضمن العائلة، يتلقى هاتف هذه المدرسة العديد من الاتصالات بخصوص هذا الموضوع، «من الأفضل حدوث نزاع جدي، ولكن يجب استمرار الحوار». وبحسب رأيها فإن هذه المشكلة يمكن لها أن تتيح الفرصة للبالغين ليتساءلوا عن طريقة استخدامهم للتلفاز: «لا أستطيع أن أخبركم كم هو عدد الأهل الذين يشاهدون برامج سيئة للغاية.......».

وتشاركها الرأي غيميت فور ــ المسؤولة عن الأبحاث في قسم الإحصاء الإعلامي في باريس ـ : «تشير إحصائياتنا الفرنسية التي أجريت عام 1993م إلى أن الطفل بين 4-10 سنوات يشاهد التلفاز أقل من ساعتين بقليل في اليوم، وهذا رقم ينقص قليلاً عن سابقه في العام الذي قبله، أما البالغون فوق عمر الخمسين فيشاهدونه لمدة تزيد عن أربع ساعات باليوم وسطياً، وأنا أعتبر هذا الرقم أكثر خطورة». أما إحصائيات العام 1993م التي قام بها التلفاز السويسري

الناطق بالفرنسية TSR فهي مشابهة لما ذُكر، ففي سويسرا الناطقة بالفرنسية يشاهد الطفل الذي يتراوح عمره بين 3-14 سنة التلفاز لمدة 79 دقيقة باليوم مقابل 85 دقيقة في العام 1992م.

«لن أشتري أبداً مثل هذا الجهاز» أفادت السيدة دومينيك ميرسييه - وهي اختصاصية نفسية، وأم لصبيين صغيرين - أنا أفضل أن أشرف بنفسي على الوقت الذي يقضيه أطفالي أمام التلفاز، وإن أدى هذا إلى الدخول في نزاع معهم».

العديد من الأهل يرفض فكرة «التخلي عن المسؤولية» التي يمثلها جهاز التحكم بمشاهدة الأطفال للتلفاز، فمن السهل الاستسلام، واللجوء إلى آلة هرباً من المشكلة التربوية الأصلية، ما يُعرض عليه. هذه أقوال إيزابيل يعقوبيان، وهي اختصاصية نفسية لدى صغار الأطفال، وتضيف أن موقف الطفل يكون عادة نسخة عن موقف أبويه».

«إن تركيب ... يعني أن نمنع الآخرين مما نقوم به، فالتلفاز موجود ويجب أن نتعلم كيف نتعايش معه». يشاهد أطفالها (2.5 سنة و5 سنوات) التلفاز قليلاً كل يوم: «أظن أن الطفل بإمكانه أن يشاهد تقريباً كل شيء يعرض على التلفاز بشرط أن يكون أحد الراشدين بجانبه ليساعده على تكوين تفكير نقدي.

إيزابيل موسي، جريدة اليومية الجديدة (لونوفو كوتيديان) الأربعاء 20 نيسان 1994م.

تبقى كلفة هذا الأمر أقل بكثير من كلفة ذهاب عائلة (4-5 أشخاص) إلى السينما أو المسرح، ويزيد الفرق إذا أضفنا لأجر الدخول كلفة التنـ

وربما وجبة خفيفة، دون حساب «ضياع» الوقت، الذي لا يؤثر على ميزانية العائلة، ولكنه يمنع الكثيرين من الآباء المرهقين بأسبوع من العمل، والذي ينتظرون بفارغ الصبر ساعات الراحة في المنزل العائلي، من القيام به ويفضلون البقاء في المنزل حيث يستطيع التلفاز إبقاء الأطفال هادئين.

إن حصول العائلة على بعض الترفيه والتسلية والمتعة الثقافية هو أمر مُكلف في هذه الأيام، ونفهم من ذلك لماذا لجأت نسبة كبيرة من العائلات للتلفاز، فهو عملي ودائم الحضور لحل مشكلة شغل أوقات الأطفال.

في سويسرا 50% من العائلات لديها جهازا تلفاز على الأقل، وعندما نعرف أن عدداً كبيراً من العائلات فيها أحد الوالدين فقط، فتكون النتيجة وجود والد واحد مقابل شاشتي تلفاز.

يمكننا أن نتفهم ـ دون أن نؤيد ـ كل أولئك الآباء الذين يبحثون عن السهولة، التي لا تكلف جهداً يبذل، والأرخص دون شك، ولكن من الضروري والعاجل أن نخبرهم أن ثقتهم في التلفاز هي في غير مكانها، وأن أطفالهم المدمنين عليه، المتروكين وحدهم أمام الشاشة الصغيرة، يتجهون نحو مستقبل عاطفي غير مستقر، فالسيدة ليليان لورسا التي قامت باستطلاع رأي 421 من طلاب الحضانة تلخص دراستها بالآتي: «هؤلاء الأطفال يُظهرون بأوضح الأشكال وأبرئها جهل الآباء الذين لا يرون ما يشاهد أبناؤهم، ويشعرون بالاطمئنان لأن البرامج المشاهدة مخصصة للأطفال، ويتجاهلون كذلك ما يصيبهم من الرعب ليلاً في غرف نومهم من جراء هذه المشاهدة.

الكثير من الآباء لا يخطر على بالهم أن زمام التحكم بتربية أولادهم لم يعد بيدهم عندما يتركونهم تحت رحمة ما يعتقدون بأنه مجرد وسيلة تسلية يومية، فتكرار الصراخ والعنف والهيجان المدمر ورؤية الأشكال الوحشية اليومي يفرض نفسه خالقاً جواً من الذعر، ويغير الحس الذوقي فيصبح حاجة». انتهى كلام ليليان لورسا.

حاجة دائمة وإدمان حقيقي يكتب عنه جاك بيفتو قائلاً: «لاحقاً في حياتهم عندما يتعرض أولئك الذين شاهدوا التلفاز كثيراً في طفولتهم للإخفاق والفشل وحتى العزلة، فإنهم يعودون إلى مشاهدته من جديد. لقد بدأنا نستوعب أن الذين يشاهدون التلفاز كثيراً عند نضجهم هم أنفسهم الذين تابعوه بكثرة في طفولتهم، وهنا كذلك يبدو أن فرويد مُحق، فنحن لا نشفى أبداً مما نالنا في طفولتنا».

لم يعد التلفاز يحتل في أيامنا المكان الذي احتله سابقاً، فما كان يستخدم في أيام طفولتنا لم يعد صالحاً للاستعمال اليوم بشكله القديم. فعلى الوالدين أن يتزودوا بطاقة لا متناهية وخيال واسع ليعطوا البدائل عن مشاهدة التلفاز لأطفالهم، وعندما يكبر الأطفال فإن السلطة والحزم لا يكفيان، ويجد الكثير منهم أنفسهم وقد تجاوزتهم الأمور فيتخلون عن دورهم، ولأنهم لا يريدون الاعتراف بذلك، فإنهم يبحثون عن أعذار هم غير مقتنعين بها كذلك، هؤلاء الآباء هم بحاجة لمن يستمع إليهم ويدعمهم ويرشدهم، وليسوا بحاجة للنقد كما يحصل غالباً، وبإمكانهم أن يجدوا بين النصائح التي نقدمها لهم فيما يلي بكل تواضع ما يناسبهم، ويمكنهم أن يعدلوه ليتماشى مع وضعهم العائلي الخاص بهم؛ لأنه كما قلنا سابقاً، لا يوجد في مشكلة الشاشة الصغيرة طفل وعائلة، وإنما أطفال وعائلات!

شاشات الفشل المدرسي

(...) يبدو أن المبالغة في مشاهدة الرائي هي أحد أسباب الفشل في المدرسة، إضافة للهياج وعدم القدرة على التركيز.

ويفسر التأثير السلبي للوقت الذي يقضونه أمام الشاشة الصغيرة النتائج غير الجيدة التي يحصل عليها «مدمنو التلفاز» عند تعرضهم لاختبارات الذاكرة إضافة لنتائجهم الدراسية: فالأطفال الذين يحصلون على أفضل العلامات في المدرسة هم الذين يخصصون أقل من خمسين دقيقة في اليوم لمشاهدة الرائي، بينما يقضي الذين يحصلون على الدرجات السيئة أكثر من ساعتين يومياً أمام التلفاز.

«يعلق الأستاذ روفو قائلاً: ليس التلفاز جيداً أو سيئاً بحد ذاته. وليست المبالغة في مشاهدته هي التي يجب أن تدعونا للقلق، بقدر الطريقة التي يعيش فيها الطفل هذه المشاهدة، انبهار كامل على حساب كل حياة خلاقة للبعض، ووسيلة للخيال بالنسبة للبعض الآخر.

فلا أهمية لبقائهم أمام التلفاز ساعات في الحالة الأخيرة، وقد يكون من الأفضل لهم أن يقلبوا المحطات، فالتقليب في هذه الحالة ليس إلا علامة لصحة عقلية ممتازة، ووسيلة للتخلص من السلبية والعطالة».

ما النصائح التي يمكن أن يقدمها طبيب نفسي اختصاصي بالأطفال للوالدين القلقين لدى مشاهدتهما لنتائج استطلاعه؟

«المهم هو أن نهتم نحن كبالغين بما يشاهده أطفالنا، وأن نتناقش معهم بخصوصه، هل يحصل أن نتأخر في النوم لنشاركهم

متعــة مشاهدة برنامج على التلفــاز معاً؟ فنوعية النوم أهم من عدد ساعاته، ونحن ننام بشكل أفضل بعد حديث جيد!»
كالرولين هيلفنر، في عالم التربية، عدد أيار 1991م.

نصائح واقتراحات موجهة للوالدين

- الحصــول علــى معلومات حول محتوى ومدة ونوعية البرامج التي يشاهدهــا الأطفال، والتحقق من مناسبــة البرنامج المختار للطفل المعني بالأمر.
- مشاركة الطفل في اختياره لما يشاهد، والاحتفاظ بحق رفض بعضه.
- التأكد من توفر وشروط مشاهدة وسماع جيدة.
- مراقبة استخدام جهاز الفيديو.
- منع تناول الطعام أثناء مشاهدة الرائي.
- مشاركــة الأطفال متعتهم والاستمــاع لهم ومناقشتهم، ومشاهدة التلفــاز معهــم، السماح للأطفال باللعب وتقليد مــا شاهدوه، فهذا يساعدهــم على التخلص من مخاوفهــم ويعينهم علــى استيعاب الواقع دون كبح جماح الخيال.
- الضغــط علــى النفس لمصاحبة الطفل المشاهــد للتلفاز لرؤية ما يــرى، وللتدخــل أحيانــاً لإعادة بعض الأمــور إلى نصابها، ويجب منعه من رؤية المناظر المرعبة التي قد تترك بصمتها عليه دائماً.

- عدم التساهل بشأن الكوابيس التي يمكن أن يسببها الرائي، مع عدم تجاهل حقيقة أن النزاعات العائلية هي التي تدفع الأطفال للجوء للتلفاز.

- عدم استخدام الحرمان من الرائي كعقوبة، فمنع الطفل من مشاهدته ليست أفضل الوسائل لإشعاره بالمسؤولية.

- يجب أن نتوع الخيارات الثقافية المتاحة للأطفال الصغار، وأن تكون لدينا بدائل لها، يعطي الرائي الانطباع بأنه بإمكاننا التخلي عن بذل الجهد والوقت للوصول للمعرفة، ولذلك يجب الانتباه إلى عدم دخول التلفاز كمنافس للعب والمطالعة، فهو لا يمكنه أن يحل محلهما.

- يجب ألا تتحول مشاهدة الرائي إلى طقس من الطقوس، وهذا يعني أن تصبح أمراً يومياً لابد منه، ولا يمكن الاستغناء عنه كالطعام والنوم.

- تعليم الأطفال إيقاف الرائي: بالابتعاد عن المشاهدة الطويلة، والمبادرة بتحديد وقت المشاهدة!

- أما الأطفال الأكبر سناً فيجب تعليمهم كيف يستخدمون جهاز الفيديو ليستفيدوا أكثر من البرامج والوقت؛ لأن المحطات الحكومية الأقل سوءاً لا تصبح حقيقة موجهة لعموم الناس وثقافية ومفيدة إلا بعد الساعة العاشرة والنصف ليلاً، أما قبل هذا الوقت فالبث عبارة عن مصيدة أداتها الإثارة، وهدفها التنافس على جذب العدد الأكبر من المشاهدين.

إلى هذا الجدول مـن المواقف المثالية والإجراءات العملية نحن نضيف الاقتراحات المباشرة والقسرية التي تقترحها كيت مودي:

- إلغاء التلفاز نهائياً بالنسبة للأطفال الصغار جداً، وهذه الفكرة يدافـع عنها بعض المختصين بالأطفال: لا يسمـح بالتلفاز طالما أن الطفل لم يتعلم القراءة بعد.
- تقليل ساعات المشاهدة: ساعة في اليوم كحد أقصى.

يمكن إعطاء بعض الاستثناءات خلال عطلة نهايـة الأسبوع، وعندما يكون الطقس سيئاً، بشرط أن يشاهد الأطفال والأبوان البرامج المختارة.

- بالنسبـة للأطفـال بين عمـر 8-15 سنة: عليهم أن يقـرؤوا صفحة برنامج التلفاز في مجلة من المجلات أو الجرائد، وبقلم ملون يشيرون إلى ما يرغبون برؤيته من البرامج، ثم يرتبون جدولاً لما سيشاهدونه خلال أسبـوع كامل. ولكن يجب الانتباه إلى أنـه لا يحق للوالدين أن يمضيا أمام التلفاز وقتاً يزيد عن الوقت المخصص للأطفال.

هـذه النصائح التي جنيناها خلال مطالعتنا، والتي تتماشى مع الحس السليم، واستخدمنا بعضها مع أطفالنا فحققت بعض النجاح، وهي أفكار ليست حصرية ويمكن تعديلها بحسب الرغبة، ونحن ما فتئنا نكرر هذا.

إن هـدف هذه النصائح الرئيس هو دفع الآباء للتفكير، ومنحهم الثقة والقـدرة على تربية أطفالهـم، وهذا الأمر لا يتم إلا بشـيء من التضحية بالوقت والجهد، إضافة للاستعداد للبذل والإصغاء لما يقوله الأطفال.

إن إدمـان الأطفـال علـى التلفاز ليـس إلا نتيجة للمنـاخ العائلي، هذا الوسـط العائلي يمكنـه رغم وجود التلفاز أن يتوجه نحـو التحسن بمضاء عن طريق المشاهدة المشتركة للرائي كلما تمكنا من ذلك، والحوار وتبادل الأفكار مع الأطفال، إضافة للكلمات، يتبادل أفراد العائلة الذين يشاهدون التلفـاز معاً العواطـف والأحاسيس التي يعيشونها معـاً، والحب هو كذلك إحساس، وربما هو الإحساس الأجمل، وبدونه لا توجـد تربية، إذاً عليكم أيهـا الآباء أن تشاركوا أطفالكم حياتهـم و تساعدوهم وتحبوهم، وحولوا هذا التلفاز المُفرِق إلى تلفاز مُوحِد! ولنختم كلامنا، فنحن نستميح سانت أكزوبيري عـذراً لأننا سنتصرف قليلاً بأحد أقوالـه: «الحب هو أن ننظر معاً في نفس الاتجاه إلى نفس البرنامج».

علـى المقومات الشخصية، ويقدس فيه النجاح كمبدأ من مبادئ المجتمع؟ والمنافسة الشرسة التي يظهرها نظامنا التعليمي من أَسَسَها؟ ومن حرض الهروب الولهان من خلال الحلم ـ الذي أصبح فردوساً زائفاً ـ غيرنا نحن مواطنو المجتمعات الليبرالية التي نصفها بالمتطورة؟.

لقـد حصلنا على التلفاز الذي نستحقه، بينما لم نُتح لأطفالنا الفرصة لاختيـار العالم الذي نقدمه لهم، وكما يقـول المثل الصيني: «عندما يشير الإصبع إلى القمر فإن الأحمق ينظر إلى الإصبع ولا يرى القمر» في عصرنا لقد أصبح الإصبع رقمياً ـ إن صح التعبير ـ شاردياً صوتياً مهبطياً مربوطاً بالكبل ومالياً، لقد أصبح الإصبع مغطىً بكف من الحرير البصري، ولكنه مازال إصبعاً، وغدا الأحمق أكثر حمقاً من أي وقت مضى، وحتى القمر بعد أن غزته وكالة الفضاء الأمريكية NASA لم يعد سوى صورة افتراضية.

إحـدى شعارات انتفاضة 1968م في فرنســا كان ينصح بالآتي: «كونوا واقعيـين، واطلبوا المستحيل». ونحن من جانبنــا نريد أن نذهب إلى ما هو أبعـد من ذلك: إننا نريد الحصول على القمر! ولسنا ضد الإصبع الذي لا يتمنـى أحد قطعه، ولسنا كالجـراح الذي يدعي أن العضـو الذي بتر منه جـزء قد شفي، مـا حاولنا فعله خلال الصفحـات المتتالية للكتاب لم يكن سوى تذكـير عنيد بالفرق بين القمر والإصبـع، إن تشويه الإصبع وإطالته وكسوتـه وحوسبتـه وجعله ديموقراطياً لا تستطيع تغيـير مهمته، والمجنون لـن يعود إلى رشـده إذا زاد عدد الأصابع التي تشير إلى القمر، بل إن هذا سيزيـد مـن تخبطه الذهني، ويبـدو للأسف أن الاتجـاه الحالي للإعلام سائـر بهذا الاتجاه، ويتناسـب تطور التقانات عكساً مـع المحتوى والمعنى، ويزداد العرض بجنون بينما تبقى نوعية المعروض ثابتة أو تتراجع، ويزداد

ثـراء تجار الصــور بينما ينخفض إبداع المخرجين، ويـؤدي تنوع المحطات لترسيـخ النمطية المملة الهزيلة للبرامج، ولا تزيدنا حرية الخيار المتزايدة سوى عبودية يوماً بعد يوم، وكلما زاد ثراؤنا كلما نقص انتماؤنا.

ولكـن بـدلاً من النحيـب لنرَ مـا يمكننا فعله نحـن، وهذا هـو الأهم. يصعب علينا تغيـير العـالم إذا لم نبدأ بتغيـير أنفسنـا. فالتاريخ يطفح بأصحـاب العقول الجبـارة، والثوريـين الطيبين، والمصلحـين الجريئين، والقـادة الموهوبـين، ولكنهـا نادرة تلـك الانقلابات التي لم تنتـهِ بالعسف والرعـب ومعسكرات العمـل القهرية، أو بكل بساطـة بالعبارات الجوفاء: فكم من حرائق كبيرة تحولت إلى بؤر من الجحيم، وكم من نيران مقدسة أخمدت بالتُرهات، لا نحن لسنا بصدد تجهيز حملة تأديبية ضد المحطات التجارية، ولن نقود أي حملة صليبية ضد التلفاز، فقد بقي الرائي في مكانه في بيوتنا، ومازال أطفالنا يقضون بعض الوقت أمامه وحدهم أو بوجودنا، وقد يشاهدون برامج جيدة وأخرى أقل جودة، وبإمكان عمالقة الإعلام أن ينامـوا قريري الأعـين، فنحن لا نلومهم أكثر من سائـق الشاحنة الكبيرة الذي يخنقنا بدخان قاطرته أثناء تأدية عمله مثل كل الناس.

ولكن لنا أنياب كواسـر ضارية نرفض بها الاستسلام السهل والخمول العقلي والمسايرة الضعيفة التي تسمح لسدنة المعبد الإعلامي الادعاء بأننا أردنا هذه الرداءة المُشوهِة، أو أننا طلبنا هذا التعطيل التام للعقل بالتخدير الكامـل، أو أن أطفالنا يطالبون بالعنف والبشاعـة، إننا نرفض بكل قوانا أن نندمج في هذه التركيبة الهلامية اللزجة التي لا قوام لها ولا مادة فيها، والتـي لا تملك الشجاعة والفكر، والتي يدعونهـا الجمهور، هذه المجموعة التي لا وجود لها إلا في الإحصائيات الخيالية، والتي ليست إلا المتوسط بين

الكبير والصغير، والرجل والمرأة، وبين الشاي والقهوة والملح والسكر، وبين الحيــاة والموت، هذا الجمهور الذي ندعي أنه يطالب بالخبز المغلف مُسبق الصنع والألعاب التلفازية، ليس إلا تعبير عن الوسط غير الصحيح الواقع في منتصـف المسافة بين شُطآن المحيط ولازورد الجبــال الشامخة، وهذا يعني ببساطة أنه غير موجود.

إلى هذا الجمهور اللاافقاري ضحية المتلاعبين الجشعين نقدم الإنسان المســؤول عن نفسه وعن الآخرين، والمتمرد علــى تيار فكري واحد ديني أو سياسي، ولكنه بنفس الوقت متضامن مع كل أبناء جنسه، فالإنسان المميز يرفض أن تحتويه استطلاعات الرأي، فالتكافل الموجود بيننا لا علاقة له بالأغلبيــة، وخاصة أغلبية استطلاعات الــرأي بخصوص البرنامج الأكثر مشاهـدة والأقل مدعاة للتفكير بآن واحد، بما أننــا تكلمنا عن التربية في هذا الكتاب، فإننا نسمح لأنفسنا بأن نذكر بأن هدف الكتاب ليس أن نحول الطفل إلى مادة هلامية من الجمهور التلفازي، وإنما إلى إنسان بكل معنى الكلمــة، إنسان ينتمي لعصرنا، لا يخاف المستقبـل ولا يجهل الماضي، وفي علاقــة مباشرة مــع الحاضر، هذا الحاضر الذي يحتـل فيه التلفاز مكاناً مهماً، ولكن ليس كل المكان.

كي نُربّي علينا أن نبدأ بأنفسنا، كأن نطلب من الطفل التفكير، دون أن نقــوم نحن بهـذا، وهذا غير منطقي، أن نعلم الطفــل كيف يشاهد التلفاز بينمــا ندس رؤوسنا في الــتراب، يجعلنا هــذا السلوك في وضــع أسوأ من وضــع النعامة، التي لا تصنع من نفسها مثلاً للأجيال القادمة، أن نطالب الصغــير بألا يخضع لإغراء المشاهدة السهلة، بينما نعيش نحن حياة بالية لا يتعــدى كونه تناقض عقيم بحسب قــول كريشنامورتي: «أن نحرم الآخر

مـن الأحلام حتى التعيسة، بينما نحـن عاجزون عن أن نحلم ولو لحظة،، مُتذرعين بالحجج الواهية بأن هنـاك أموراً أخرى أفضل يمكن فعلها، هذه فعلاً حماقة.

ما ينطبق على التلفاز ينطبق على كل مشاريع الإنسان: على شاكلته!

فإذا كان واقعنا مطموس المعالم، وفاقداً للحياة وسطحياً، وكان لغزاً لا يستحق الحل، ومليئاً بأشخاص ضعاف الشخصية، فكيف نتوقع من هذا الواقع الممسوخ ببعديه على الشاشة الصغيرة أن يضيء فجأة بنور لا يملكه أصلـه، وكيف نريد لـه أن يأخذ أبعاداً تضاهي ارتفاع هيمالايا، يصبح بها العبد إلهاً، ويغدو به الأحمق حكيماً؟

نريـد التفاعـل؟ فلنبدأ بالتفاعل مـع أنفسنا، ومع المناطـق المنسية في حياتنا وضمائرنـا وأجسادنا، ولنتفاعل مع العالم الذي نحب وبدون جهاز تحكم عن بعد من فضلكم!

ولنتفاعـل مـع الهـواء الطلق الـذي لا يعزلنـا عنه سـوى حويصلاتنا الرئوية، ولنتفاعل مع أطفالنا، وليكن قلبنا هو مبعث السرور الوحيد.

وعندهـا ستقـع نظراتنا التي زالـت عنها الغشـاوة مندهشة على هذا الصنـدوق المكعب الـذي ندعوه التلفاز، وسيزول عجبنـا عندما نتأمل فيه ملياً: إذاً فالأمر لم يكـن سوى هذا؟ مجرد آلة بسيطة عبقرية حقاً، كانت تسحرنـا بشـكل غريـب، وتخيفنا بدون مـبرر، ولكنهـا لا تستحق على كل الأحـوال هذا الاهتمـام المبالغ به، والإعجاب السـاذج، أو حتى الاشمئزاز العميق الذي أبديناه بصددها.

وماذا بعد ...

إن الكتاب الذي ستهنون قراءته قريباً لم يلد بين يوم وليلة، ففي القرن الماضي عندما اخترع ڤلاديمير زوركين محلل الصورة (إيكو نو سكوب)، لم يخطر ببال أحد ما يمكن أن يكون لهذا الاختراع من نتائج، ولم يكن أحد يعرف إن كان له أي مستقبل.

وسريعاً أثبت الباحثون أن التلفاز ـ وإن لم يكن من اختراع الشيطان ـ ليس بالأداة البريئة، فالعلاقة بين عنف المشاهد ونقلها إلى الواقع لم يعد موضع شك بعد الآن، وقد أوضحنا هذا الأمر بجلاء في مقاطع سابقة من هذا الكتاب، وأكدت هذه المعلومة دراسة جدية جداً أجريت خلال 17 عاماً على سبع مئة وسبعة أطفال، نشرت في المجلة الراقية (العلم) Science في آذار 2002م لا تدع مجالاً للشك في صحتها، لم يسبق للإنسان أن تكلم عن الصحة كما تكلم عنها في هذه الأيام، ورغم ذلك فإن التسلية الأكثر شيوعاً بين بني البشر تتلخص بأن يغلق الإنسان على نفسه الباب في حجرة سيئة التهوية، وأن يُعد نفسه لحدوث أمراض القلب الوعائية بازدراد الطعام متسمراً أمام الشاشة الصغيرة.

عندما بدأ اهتمامنا بالموضوع في التسعينات كنا مقتنعين منذ ذلك الوقت أن تطور التلفاز نحو أشكال ضارة مؤذية حاصل لا محالة، ولكن كان يداعبنا الأمل أن تخيب الأحداث توقعاتنا، ففي النهاية لماذا لا يكون التلفاز قابلاً للتحسن؟ وأن يحسن وضع مُريديه؟

لسوء الحظ كان لابد من خفض النبرة، فما كان في ذلك الوقت يعتبر انحرافاً مزعجاً محتملاً ـ تلاعب واحتواء وتلصص وحث على العنف ـ

أصبح المحور الرئيس «للإبداع التلفازي». تم اختراق المرحلة الأولى مع قصة لوفت في البلدان الناطقة بالفرنسية (أصدقاؤنا على الطرف الثاني من الأطلسي هم السابقون ويمراحل في هذا النوع من التجديد). لا شيء يستحق الذكر ظاهراً: بعض الفتيات والفتيان المحجور عليهم في مكان مغلق تحت رقابة الكاميرا الدائمة ونظرات المشاهدين، هذا ما يسميه تلفاز الواقع الناس الأكثر تسامحاً، وما يسميه تلفاز القمامة أو تلفاز المرحاض المُطهرون في عصرنا، ولكن اللوفت قبل كل شيء هو اندفاع غير قابل للتراجع في طريق جديدة: لم يعد الأمر من الآن فصاعداً أن نعكس الواقع أو أن ننقده، وإنما أن ننتجه من الألف إلى الياء، تدَّعون أن الواقع الحقيقي للشباب الفرنسي معقد؟ ليس الأمر ذا أهمية، فستُعاد كتابته باختصاره إلى ما يمكن للشاشة أن تُبدي منه، الشباب يبحثون عن الحب، وهذه معلومة غير جذابة بلغة التلفاز؟ الأمر بسيط فسوف نربط القلب بالجنس من خلال عملية مهبطية تشرف عليها روح القدس، إن ما يصدم النفوس ليس هو ما يُعرض في اللوفت: قليلاً من المناظر الفاضحة بجرعة مقبولة، وضحالة فكرية واضحة، فكل هذا لا يقتضي منا تجهيز حملة صليبية لتطهيره، بالمقابل فإننا نشهد هنا نتاج التأثير التصميمي المشهور في مرحلته الأخيرة، فنحن لا نعرض على المُشاهد الشباب كما هم في الحياة، وإنما نعرض عليه ما يرغب برؤيته، ولكن ببُعدين على الشاشة المسطحة.

في بطولة العالم الأخيرة لكرة القدم في اليابان وكوريا، لم يُنظر إلى الإقصاء المبكر لفريق فرنسا الكروي على أنه هزيمة رياضية، وإنما ككارثة اقتصادية، فاللاعبون الذين تحولوا إلى رجال ـــ سندويتش بما يحملونه من الدعايات على الوجهين، والذين كانوا الضامنين لأعلى نسبة

مشاهـدة على محطة تلفاز تجارية جشعة، هؤلاء الشباب السود والبيض و المغاربـة من الجيل الثاني تحولوا خلال أيام قليلة من رمز لفرنسا متعددة الثقافـات الرابحـة، إلى رمز للإفلاس الاقتصادي، وأيـن حصلت هذه المأساة؟ علـى ملعب الكرة؟ أم في مقصورة سماسرة البورصة؟ لا هذا ولا ذاك، وإنما على شاشات التلفـاز! فمرة أخرى حلت الصورة محل الواقع، وفرضت نفسها عليه.

ولكننـا نتوقـع أن الأسوأ من هذا قادم في المستقبـل، فبإمكاننا أن نبدأ بتذوق ما ينتظرنا في المستقبل بمشاهدة ما يعرض على الشاشات في فرنسا خـلال ساعات ذروة المشاهدة، وهـي لعبة تقوم على المزاح الماجن الممزوج بالسخريـة الذي تنال به مقدمة البرنامج من «المتسابقين». هذا البرنامج يلقى نجاحاً باهراً فالأطفال معجبون به كثيراً!

حسبكـم حسبكـم! كل هذا بهدف الضحك! ففـي الجانب الآخر لبحر المانش الناس أكـثر شراً، فعند الأنغلو ساكسـون (وهم أناس جديون) في مثـل هذه الألعـاب لا يُستفَز المتسابقون فقط بـل يُعرضون للإهانة، ونحن نقلدهم فتأتي النسخة أبهـت من الأصل، فالاستهزاء يحل محل الشتيمة، ولكننا لا بد أن نصل إلى السِباب في النهاية.

تخيـل الكاتب الأمريكـي ستيفن كينغ في عـام 1982م في كتابه الرجل اللاهـث مجتمعـاً تسيطـر عليه محطة تلفـاز، واحدة من الألعـاب الأكثر شعبيـة على محطـة ليبرتل هي إطلاق أحـد المتسابقين قبـل ساعات من إطلاق عصابة من القتلة خلفه، ويشارك المشاهد فعلاً كجاسوس، مفرغاً كل حقـده وكل نزواتـه في هـذا المتسابق التعيـس، إن قـدرة المشاهد على

التفكير والتمرد تصبح عقبة، فينبطح أمام الجبروت السياسي الإعلامي لبعض المتسلطين على حساب الغالبية من الآخرين، كان هذا نوعاً من الخيال السياسي قبل عشرين عاماً، ولكننا مقبلون عليه شيئاً فشيئاً.

إلا إذا تذكرنا، في الوقت المناسب أننا نملك حرية الاختيار، وأن في كل مرحلة من مراحل تطور مجتمعاتنا ما زلنا نملك حق الاصطفاء، وأن حدوث الأسوأ ليس قدراً.

علينا أن نمنع ذكاءنا من الانطفاء، ولنطفئ التلفاز، وسيشكرنا أطفالنا على ذلك لاحقاً، لقد خضنا بأنفسنا هذه التجربة.

كورنيه، لاروبيلا ـ تموز 2002م.

مختصر المراجع

رينيــه ديبو: آخر أجيال المكتوب، دار النشــر فاڤر 1989م، أحدُ أفضل الكتب حول العلاقة بين الأمية والتلفاز، من ناحية الطرح والعلاج.

ليليــان لورسا: العنف على الرائي: الطفل المسحور، دار النشر سيروس ألترناتيـف، 1989م. المرجـع الـذي لا غنى عنـه ضد العنف علـى التلفاز وتأثيراتـه علـى الأطفـال، والمبني على احتـكاك شخصي مـع المشاهدين الصغار في وسطهم الطبيعي.

برونولوساتـو: الطفـل والشاشـة، ناتـان 1989م. تحليـل ملائم لمكان التلفـاز في حياة الأطفال والمجتمع، و علاقتـه مع الثقافة، تعتقد المؤلفة أن هـذه العلاقة مهددة إلى حدٍ كبير من خلال الحضور الدائم للصورة على حساب أشكال التواصل الأخرى.

فرانسـوا مارييه: دعوهم يشاهـدوا التلفاز، دار النشـر كالمان ـ ليفي 1989. أحـد الكتب النادرة لصالح التلفاز الذي لا يسبب غباء الأطفال بل يفتح أمامهم أشكالاً أخرى من الثقافة والسلوك ـ بحسب رأي المؤلف.

جاك بيڤتـو: نشوة التلفاز. INSEP, 1984 رغم أن هذا الكتاب أصبح قديمـاً فإنه يبقى مرجعاً من حيث عمـوم تناوله للموضوع، وأسلوبه المثير، ونوعية كتابته واستقلاليته.

الخلاصات المرجعية ـ العلاقة بين التلفاز والطفل.

المركز العالمي للطفولة، 1991م.

كمـا يشير عنوانه هـو ملخص جيـد للدراسات الرئيسـة التي تناولت التأثيرات الجسدية والنفسية والاجتماعية لاستخدام الطفل للتلفاز.

سيسيل بلمار، مونيك كارون، ماري كلير غروو: ألو كارو، ماذا تشاهد؟ مجموعـة المحطـات التلفازية الناطقـة بالفرنسية، نـاتـان، تسلية وتعليم، شينولبير، 1994م.

طرح جيد للتركيبة الاجتماعيـة النفسية للمشاهدين الصغار، عرضه جيـد ومليء بالوثائـق، ولكن هذا الكتاب ينقصه الحس النقدي، و يفسر هذا أن اللوبي التلفازي هو الذي طبعه.

الفهرس

المقدمة.. 5

أخطار الشاشة.................................... 7

قاموس الاستخدام السيئ للتلفاز........................ 13

الرائي غداً.. 27

الرائي والمدرسة 53

الآثار الحسية للتلفاز 77

التأثيرات العضوية للتلفاز............................. 95

التلفاز والحياة الاجتماعية والطفل في هذا الخضم؟............ 129

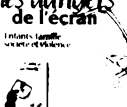
أي ثقافة نختار لأبنائنا؟............................... 153

ماذا على كل أن يفعل؟................................ 163

الخلاصة.. 215

مختصر المراجع.. 225

نحن جميعا مسؤولون...





كيف يمكننا أن نجعل أطفالنا واعين ذوي حس مرهف. وخاصة ناقدين لما يشاهدون على التلفاز والألعاب الإلكترونية والسينما؟!

بالنسبة لعدد متزايد من الشباب لم يعد الفرق بين العالم الافتراضي و العالم الحقيقي واضحاً في هذه الأيام! ولكن ماذا نفعل جدياً لإيقاف هذا الأمر؟

يقترح المؤلفان أن يكون الوالدان في الوقت الذي يجعلانه للعائلة هو الأمر المركزي وليس التلفاز.

كتاب «مخاطر الشاشة»، لا يوجد فيه شيء نظري. فهو يضع في حيز التطبيق نظريات بسيطة قابلة للممارسة لدى الأشخاص والعائلات وفي المدرسة.

إنه دليل تربوي حقيقي مكتوب بدقة واحترام وروح دعابة لاستخدام معقول ومنطقي للشاشة الصغيرة.

من أجل استخدام منطقي وعاقل للتلفاز.

عزيزي الولد.

- لا تكن عبداً للتلفاز. وتعلم كيف تستغني عنه أحياناً: لأن ذلك هو بداية الحرية.
- أدِّ واجباتك قبل مشاهدة برنامجك المفضل.
- أطع والديك عندما يطلبان منك ترك شاشة التلفاز.
- ليست الصورة في كثير من الأحيان سوى وهم أو أضغاث أحلام. وأحياناً لا تكون إلا كذباً وبهتاناً.
- فضل صحبة الأصدقاء على صحبة أبطال المسلسلات.

عزيزي الوالد.

- لا تسجد ولا تمرغ جبينك عبودية أمام التلفاز.
- إياك أن تتخلى عن مهامك من أجل برنامجك التلفازي.
- اهتم بغرسك وزرعك بدل الاهتمام بمسلسلك.
- اختر مع أطفالك ما يبدو لك أنه مفيد لهم من البرامج.
- لا تقدم ابنك أو ابنتك ضحية للمسلسلات.

رينيه بلانـد وميكائيل بول والدان ومدرسان وصحفيان ومؤلفان للعديد من الكتب المرجعية التي تلقي ضوء الاحترام والإصغاء للأطفال: «طفلي والإدمان»، «طفلي والاستهلاك»، «ربّوا الإنسان المقلب للتلفاز»، «من التملك إلى الرضا».

موضوع الكتاب: التلفزيون والأطفال

موقعنا على الإنترنت:
http://www.obeikanbookshop.com


60544762
ORD:000407-1